رواية

باولو سورِّنتينو

كلّهم على حق

مخرج فيلم "الجمال العظيم"
الحاصل على جائزة أوسكار
أحسن فيلم أجنبي عام ٢٠١٤

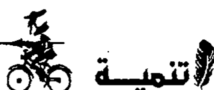
ترجمها عن الإيطالية
معاوية عبد المجيد

تنمية المتوسط
طبعة خاصة بمصر

كلّهم على حق

المؤلف: باولو سورّنتينو / المترجم: معاوية عبد المجيد / عنوان الكتاب: كلّهم على حق
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
هذه الطبعة خاصة بجمهورية مصر العربية: ٢٠١٧
صورة الغلاف: Moey Hoque / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-18-2



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

باولو سورِّنتينو

كلّهم على حق

ترجمها عن الإيطالية
معاوية عبد المجيد

المتوسط تنمية
طبعة خاصة بمصر

تجدون في هذه الرواية، فضلا عن الشخصيات الخيالية، شخصيات أخرى حقيقية. لكنّ وجودها في الأحداث، وكلّ ما يصدر عنها من تأكيدات، هو من صنع الخيال وليس لها أي أساس في الحياة الواقعية.

إلى أمي

أمي التي كان رأيها هكذا

حين تصعد الروح،
يمضي كل شيء في يقين مطلق
حتّى لو كنّا في خضمّ الفوضى

هنري ميللر

تقديم

بقلم المايسترو ميمو ريبيتو

(كتب هذه الكلمات فجرَ اليوم الذي أتمّ فيه مائة عام)

كلّ الأشياء التي لا أحتملها لها اسم.

لا أحتمل الكهول. سيلان لُعابهم. شكواهم. وعدم الجدوى من وجودهم.

كما لا أحتملهم - أبداً - حين يحاولون أن يبرزوا جدوى لوجودهم. لا أحتمل اتّكالهم ولا ضجيجهم الدائم والمتكرّر. لا أحتمل حكاياتهم المستفزّة. لا أحتمل ذواتهم المتضخّمة في حكاياتهم. لا أحتمل احتقارهم للأجيال اللاحقة.

لكنني لا أحتمل الأجيال اللاحقة أيضاً. ولا أحتمل الكهول الذين يصرخون حين يطلبون المقعد في الحافلة.

لا أحتمل الشبّان. غطرستهم. ومباهاتهم بالقوة والعِنفوان.

كما أنّ أسطورة الشاب البطل الذي لا يُقهَر مثيرة للشفقة حقّاً.

لا أحتمل الشبّان السفهاء الذين لا يتركون مقاعدهم للكهول في الحافلة.

لا أحتمل المشاغبين، ولا قهقهاتهم الفجائية، وعديمة الاحترام. لا أحتمل ازدراءهم مَن يختلف عنهم في الرأي.

ولا أطيق الشبّان المهذّبين ذوي الشهامة والكبرياء. لا يشغل بالهم سوى الأمنيّات والعمل الطوعي. بل أكاد أتقيّأ من التهذيب الذي خرّب قلوبهم وعقولهم.

لا أحتمل الأطفال المشاكسين والأنانيين، ولا الآباء والأمهات المهووسين في الغيرية تجاه أبنائهم فقط. لا أحتمل الأطفال الذين يبكون، ويصرخون. ولا أشعر بارتياح إزاء الأطفال الهادئين، فلا أحتملهم. أكره العمّال والعاطلين عن العمل، وفخرهم باللعنة الإلهية التي حلّت عليهم.

وتلك اللعنة ليست إلهية مطلقاً. إنما بسبب استهتارهم.

وكيف لي أن أحتمل أولئك الذين ينغمسون في الكفاح والانتقام، وخطبهم الجوفاء، والعرق الذي ينسلّ من تحت إبطهم؟ من المستحيل أن أحتملهم.

لا أحتمل مديري الأعمال، وما من حاجة إلى شرح السبب. لا أحتمل أبناء الطبقة البرجوازية الصغيرة المتقوقعين في عالمهم الخرائي. الخوف يوجّه مصائرهم. الخوف ممّا لا ينتمي إلى عالمهم الخرائي. إنهم مراءون، ولا يعرفون حتّى ما معنى هذه الكلمة.

لا أحتمل العاشقين إذا شغلوا الحيّز الأكبر.

لا أحتمل العاشقات إذا تدخّلن في كل شيء.

لا أحتمل أولئك المنفتحين على أيّ شيء، لا أطيق تسامحهم واستخفافهم بالأحكام المسبقة. تراهم - دوماً - على حقٍّ وتمامٍ في الرؤى التي لا ينبغي المساس بها. كل شيء مسموح بالنسبة إليهم، عدا الجريمة. تنتقدهم، فيشكرونك على النقد. تحتقرهم، فيشكرونك عن طيب خاطر. لا يعثون على الارتياح بالمحصّلة؛ لأنهم يدعون إلى مقاطعة الشرور، فلا أقوى على احتمالهم.

يسألونك: «كيف حالك؟» وينتظرون الإجابة بكل جدّيّة. يا للهول! كم من الغدر يكمن في هذا الاهتمام المزيّف!

بالمقابل، لا أحتمل حتّى أولئك الذين يعثون على الارتياح. فلطالما تجدهم خانعين طيّعين ومطمئنّين، كالمؤمنين والقوّادين.

لا أحتمل لاعبي البلياردو. ولا الأسماء المستعارة. لا أحتمل المتردّدين. وغير المدخّنين. لا أحتمل التلوّث، ولا الهواء النظيف. لا أطيق التجّار، البيتزا الجاهزة، المخاطبات الرسمية، الكرواسان بالشوكولا، حفلات السمر حول النار، عملاء التحويل، أوراق الجدران المكسوّة بالأزهار. لا أحتمل التجارة النزيهة والهادفة، الفوضى، الداعين لحماية الطبيعة، المواطَنة، القطط، الفئران، المشروبات غير الروحية، قرع الجرس غير المتوقّع، المكالمات المطوّلة. أكره مَن يقول إنّ كأساً واحدةً من النبيذ يومياً عادة صحّية. أكره مَن يتظاهر بنسيان اسمك. ومَن يصف نفسه بالمحترف؛ كي يدافع عن موقفه السخيف. لا أحتمل رفاق المدرسة الذين يلتقونك بعد ثلاثين عاماً، ويخاطبونك باسم الكنية. أكره الكهول الذين لا يفوّتون مناسبة؛ ليخبروك بأنهم شاركوا في المقاومة. الفتية المدلّلين الذين يفتتحون معرضا فنياً لملء حياتهم الفارغة، ليس إلا. لا أطيق الشيوعيين السابقين المولعين بالموسيقى البرازيلية. ولا المغفّلين السعداء الذين يقولون «حبّيت!»، المتأنّقين الذين يقولون «يا له من جميل! كم هو رائع!»، المتديّنين الذين ينادون الجميع «عزيزي»، بعض الفتيات الجميلات اللاتي يقلن «أعشقك»، المحظوظين الذين يعزفون سماعيّاً، أولئك الذين يتظاهرون بالشرود، ولا يصغون إليك حين تخاطبهم. المتعالين الذين يطلقون الأحكام. الناشطات في مجال حقوق المرأة. أولئك الذين يعيشون في مدينة، ويعملون في أخرى. المواد المنكّهة. مصمّمي الأزياء. المخرجين. راديو السيارة. الراقصين. السياسيين. جزمة التزلّج. المراهقين. نوّاب أمناء السّرّ. القوافي. مطربي الروك الذين يرتدون سراويل الجينز الأنيقة. الكتّاب المتكبرين والملتزمين. الأقارب. الورود. الرجال ذوي الشعر الأشقر. الرفوف. المفكّرين. عازفي الشوارع. السَّحَرَة. الشخصيات رفيعة المستوى. المغتصبين. مغتصبي الأطفال. كل المهرّجين. العاملين في المجال الثقافي. المساعدين الاجتماعيين. التسالي. عشّاق الحيوانات. ربطات العنق. الضحكة المصطنعة. أبناء الضواحي. اليخوت. هواة جمع المقتنيات النادرة. ولاسيّما هواة جمع الساعات. كل الهوايات.

الأطباء. المرضى. الجاز. الإعلانات. عمّال البناء. الأمّهات. متابعي كرة السلة. كل الممثّلين والممثّلات. الفن البصري. الملاهي. التجريبيين من كل الأنواع. الحساء. الرسم المعاصر. الحرفيين الطاعنين في السّنّ. هواة العزف على الجيتار. التماثيل في الساحات. تقبيل اليد. صالات التدليك. الفلاسفة ذوي المظهر اللائق. المسابح المليئة بالكلور. الطحالب. اللصوص. المصابات بمرض فقدان الشهية. الإجازات. رسائل الحب. الرهبان والفتية المتطوّعين في خدمة الكنيسة. موسيقى الشعوب. الثورجيين. حلزون البحر. دب الباندا. البثور. عازفي الإيقاع. زوايا الدوش المزوّدة بالستار. الرغبات. الجلد الميت. تحف الزينة. الشامات. النباتيين. رسّامي المناظر الطبيعية. مستحضرات التجميل. مغنّي الأوبرا. أهالي باريس. كنزات الصوف ذات العنق الطويل. الموسيقى في المطاعم. الأعياد. المؤتمرات. المنازل المشرفة على منظر أخّاذ. الألفاظ الإنكليزية. الألفاظ المستحدَثة. أبناء الأكابر. الفنانين. أبناء الفنانين. أبناء الأثرياء. أبناء الآخرين. المتاحف. عمدة البلدية. كل المستشارين. المحتجّين. الشِّعر. اللحوم المقدّدة. باعة المجوهرات. مضادّات الجلطة. أطواق الذهب الأصفر. الزعماء. الأتباع. العاهرات. الأشخاص طوال القامة، أو قصار القامة. الجنازات. الزغب. الهواتف المحمولة. البيروقراطية. ترتيبات الحفل. السيارات بسعة محرّك خارقة. حاملة المفاتيح. المطربين المؤلّفين. اليابانيين. المديرين. العنصريين والمتسامحين. العميان. تجليد الأثاث. النحاس. آلة النفخ. البامبو. الطبّاخين الذين يظهرون في التلفاز. الحشد الجماهيري. سائل البرونزاج. اللوبيات. الألفاظ الحديثة الغريبة. البقع. الجواري. رموز الوفرة. اللثغة. الشبان المتظاهرين بالنضج، والكهول المتصابين. المتعجرفين. اليساريين الأغنياء. الجراحة التجميلية. الطرق الدولية. النباتات. الأحذية المخملية. أعضاء جماعة سرّيّة. مقدّمي البرامج التلفزيونية. النبلاء. الخيوط الملتوية. الكوميديين. لاعبي الغولف. الخيال العلمي. الأطباء البيطريين. عارضات الأزياء. اللاجئين السياسيين. المتخلّفين عقلياً. السواحل ناصعة البياض.

الديانات المرتجلة وأتباعها. البلاط الرخامي سيّئ الجودة. العُنْد. الناقدين المحترفين. الثنائي الغرامي، إن كان هو شاباً، وهي متقدّمة في السن، أو العكس. الناضجين. كل الأشخاص الذين يرتدون القبّعات. كل الأشخاص الذين يرتدون النظّارات الشمسية. تغيير اللون كهربائياً. الحرائق. حليّ المعصم. المحسوبيات. العسكريين. لاعبي التنس المتهوّرين. المتحزّبين والمشجّعين. عطورات بائع التبغ. مراسم الزواج. النكات. المناولة الأولى. الماسونية. خطبة الكنيسة. التصفير. أولئك الذين يبدؤون بالغناء فجأة. التجشّؤ. المدمنين على الهيروين. أعضاء نادي الأسود. المدمنين على الكوكايين. أعضاء الروتري. السياحة الجنسية. السياحة بشكل عام. أولئك الذين يكرهون السياحة، ويعرّفون أنفسهم بأنهم "مسافرون". أولئك الذين يتحدّثون "عن سابق تجربة". أولئك الذين ليس لديهم تجربة، ويريدون أن يتحدّثوا رغم هذا. أولئك المتصالحين مع العالم. آنسات المرحلة الابتدائية. المرضى بحب الاجتماعات. المرضى بشكل عام. الممرضين الذين يرتدون الخفّ الأبيض. لماذا يرتدون ذلك الخفّ السخيف؟

لا أحتمل الخجولين. الثرثارين. المتظاهرين بالغموض. العاجزين. المغفّلين. العباقرة. أصحاب العادات السيئة. الفطاحل. الأبطال. الواثقين من أنفسهم. الصامتين. الشجعان. الغارقين في التأمّل. المدّعين. عديمي التربية. أصحاب الضمير الحي. المباغتين. المتفهّمين. الحذرين. المتواضعين. الخبراء. المولعين. المنتفخين. المندهشين دوماً. المعتدلين. أولئك الذين لا يصلون إلى نتيجة. الزاهدين. الطرفاء. المخيفين. المكتنزين. الجدليين. المتغطرسين. المتكاسلين. البارزين. النشيطين. المأسويين. الخمولين. عديمي الثقة بأنفسهم. المشكّكين. الواعين. المتعجّبين. المنتصرين. البخلاء. المستقيلين. المهمّشين. المتأنّقين. المشتكين. المتباكين. المشاكسين. الضوضائيين. المتملّقين. الجلفين. وجميع أولئك الذين يقيمون علاقات وديّة بسهولة نسبية.

لا أحتمل الحنين. الرتابة. الشر. النشاط المفرط. النهام العصبي. اللطف. الكآبة. التعاسة والذكاء والغباوة. التجبّر. الخضوع. الحياء. الدماثة. العمالة المزدوجة. اللامبالاة. استغلال السلطة. العجز. الروح الرياضية. طيبة القلب. التديّن. المباهاة. الفضولية، وعدم الاكتراث. المشهد التمثيليّ. الواقع. الخطيئة. تبسيط الحقائق. الاعتدال والتطرّف. العمومية. الزيف. المسؤولية. الاستهتار. التأجّج. الحكمة. المصير. الرضا بالنفس. عدم المسؤولية. النزاهة. القسوة. الجدّيّة والفكاهة. الاستعراض. الضرورة. البؤس البشري. التعاطف. الحزن. التوقّع. غياب الضمير. التضليل. السرعة. الغموض. العدمية. البطء. الوسطانية. التسرّع. الحتمية. حب الظهور. الحماس. عدم الإتقان. الموهبة. سباق السيارات. الاكتفاء الذاتي. التبعية. الأناقة والسعادة.

لا أحتمل شيئاً. لا أحتمل أحداً.

حتّى نفسي. بل لا أحتمل نفسي على وجه الخصوص.

لا أحتمل إلا شيئاً واحداً:

التباين.

كلّهم على حقّ

ملاحظة: استهل المؤلف جميع فصول روايته بجمل مأخوذة من أغاني لمطربين إيطاليين. المترجم.

-١-

"يا ملاّح الجندول خذني إلى نابولي"

فرانكو كاليفانو

لم نكن لنفطن إلى سبب ما جرى. بدأ كل شيء؛ لأن أحداً ما كان موهوباً. أنا مع الأسف!

ماذا بوسعي أن أضيف؟ نقضي حياتنا، ونحن نُطمئن أنفسنا بأنّ كل شيء سيمضي على ما يرام، فلا يمضي أي شيء على ما يرام. بودّي أن أتوقّف هنا، قبل أن أبدأ، لولا التفاهة المستفحلة التي تعصف وجداني، وتسبق خطاي.

بودّي لو كنتُ أكثر وضوحاً، لكنّ هذا لن ينفع في شيء. ثلاث محاولات للتقيّؤ وحبّات العرق البارد المائل للصفرة تنبت على جبيني المنحني، جبيني أنا طوني باغودا المشهور بطوني ب، والبالغ من العمر أربعة وأربعين سنة مشحونة بالضراوة والمخاطر. لا أعدّ سنوات عمري، وإذا فعلتُ، تألّمتُ، فنحن نحلم - دائماً - أن نبقى شبّاناً، والتقدّم في السنّ ليس أمراً هيّناً. أبداً. على أيّ حال، لابدّ أن نستعجل في مضيّ هذه الحياة، ولكنْ؛ على دفعاتٍ بطيئة.

لا شيء. إنني "مطرب في النوادي الليلية" بسبب قلّة التسميات المؤدّبة. لكنني لستُ مؤدباً. بل إنني إنسان.

ألم يكن من الأفضل أن أكون مؤدّباً؟

أحلّق سعيداً في قاعة الاستراحة الفاخرة، التي تعادل حجم صالة منزلي

في نابولي، والمزوّدة بجلود المخمل القرمزيّ الرائعة، بينما أنتظر أداء أهمّ حفلة خلال مسيرتي الفنية العظيمة. فالجميع يعلم أنني بنيتُ ذاتي من الصفر، وصعدتُ سلّم النجاح عتبةً عتبة. أجثم على ركبتيّ، وأحاول منع تلك المياه المتخبّطة عن الخروج من معدتي إلى الوعاء، أقوم بإشارة الصليب، أشبكُ يديّ الغليظتين والمحشوّتين بالخواتم الذهبية، والعرق يجذب كفّيّ كمغناطيس خارق. إنني ملوّث بقذارتي الآن.

أحاول أن أصلّي، فأنقّب بين الذكريات القديمة منذ المناولة الأولى، ولكنْ؛ هيهات. لا أستطيع حتّى أن أتذكّر "أبانا الذي في السماوات". ومن جانب آخر، فإنّ الكوكايين يدمّر الذاكرة، إذا أدمنت عليه لوقت طويل، وتجرّعته كل يوم. وأنا مدمن على الكوكايين بكل سرور منذ عشرين عاماً دون انقطاع. ثمّ تُطمئن نفسك بأنّ الأمر ليس كذلك، وينشغل دماغك في التبرير بأنّ الذاكرة تتمتّع بقوة مقاومة رهيبة، فتعتدي على المنطق، ويهبط الإيحاء؛ ليُسدل ستاراً من غبار أبيض. وحينها تنبري الدهشة مثل الومضات البطيئة، وتفوح رائحة كريهة على حين غرّة.

وهكذا تدخل في نوبة من الآلام الشرسة، تتنفّس بالكاد، وتسرح حتّى تصعد روحك أمام ناظريك، بكل ما أوتيتْ من وهن وخنوع. كأنها تمثالٌ، لا تراه العين.

ليس من السهل أن تتذكّر الأدعية أو الصلوات. تصوّر! لكنني أذكر عبارة، قلتُها لصحافيةٍ، لا بأس بنهديها.

«إن كان الله قد منح سيناترا تلك الحنجرة الذهبية، فإنّ صوتي المتواضع منحة من القدّيس جينارو النابوليتانيّ» هكذا أجبتُها. في تلك الآونة، لم يكن بمقدور أحد أن يضاهيني في التبجّح. وسأزداد تبجّحاً وغروراً اليوم إذا ما نجح الحفل.

أنهض مجدّداً، فينتابني التقيّؤ ثانية، كأنني أمتطي حصان الروديو الجامح.

أشعر بكأس الجين تونيك الثالثة تصعد حتّى حلقي. فأنا لا أتعاطى الكوكايين حين أغنّي؛ إذ إنّ هذا الأسلوب قد يناسب ميك جاغر الذي يصرخ ويركض ويرقّص مؤخّرته على خشبة المسرح. أما أنا؛ أغنّي وحسب، لابدّ أن أشعر بخلجات فؤادي الذي ينبض كالطنبور، وأن أتلمّس ذبذبات حبالي الصوتية التي أعدّها قيثارتي الخاصة. لكنّ ذلك الغثيان يعود لأسباب أخرى: خارج هذه القاعة، في الصفّ الأول من مقاعد مسرح راديو سيتي ميوزيك العظيم، هناك مَن ينتظرني لسماع صوتي. إنه هو، صاحب الحنجرة الذهبية، وقد تورّد خدّاه بفعل الكحول، وتجربته الغنيّة. جاء شخصياً؛ ليصغي إلى هذا المطرب النابوليتاني المغمور في الولايات المتحدة، لكنه أسر القلوب في إيطاليا وألمانيا وروسيا وإسبانيا وبلجيكا وهولندا والبرازيل والأرجنتين وفنزويلا، وحقّق نسبة مبيعات، لا بأس بها من أقراص الفونوغراف.

إنهم بانتظاري. إن كنتُ بارعاً في شيء ما، فهو أن أجعل الآخرين ينتظرونني. ومن جهة أخرى، أنا بارع في هذا الأمر، لدرجة أنني لا أصل أبداً. لكنّ هذه حكاية أخرى.

أسمع صوت تصفيق مشوباً بالحنين السخيف لأغنيات مثل «آه، يا شمسي» و«موناستيريو»، و«سانتا كيارا». غالبية الجمهور ممّن يناهزون الستين عاماً، أمريكيون من أصول إيطالية، يلهجون بهذه الأغنيات قبل الحفل، وهم ينظرون إلى الخشبة الفارغة، وينتظرون دخولي المظفّر!

أعرف هذا الجمهور، كما أعرف راحة يدي. إنهم يتغذّون على ما تلتقطه الهوائيات الموجّهة إلى محطة التلفزة الإيطالية، ويرضعون من خناجر الاكتئاب والتعاسة. أثق بهذا الجمهور جدّاً.

يطرق رينو بابالاردو، عازف البيانو التاريخي في فرقتي، باب القاعة بيده المدرّبة التي تحمل قلادة الحظ الحمراء. حانت الساعة.

«سآتي حالاً» أهمس بحبل صوتي واحد، بينما أعاين بطني المشوّهة

والمترهّلة والمليئة بالزغب. أحدّق في المرآة بغمز العين الذي لطالما حطّم بريقه قلوب الفتيات، وألاحظ - بقلق عابر - تلك التجاعيد الطفيفة التي تحيط بعينيّ البنيّتين. ربّاه! لماذا الآن؟! لكنها لا تؤثر كثيراً، فما تزال نظرتي مكّارة وجذّابة، شكّاكة ورومانسية في آن واحد. أحبس أنفاسي؛ كي أضغط الكرش المنفوخ، ولا أرضى عن النتائج. أرتّب القميص الحريريّ تحت البزّة الرسمية، ثمّ أنظر بتصميم إلى نفسي في المرآة المحاطة بالأضواء البيضاء. فتنعكس الأبّهة والثقة بالنفس كالعادة، وتنصهران بدوّامة من الأحاسيس الجيّاشة والخوف والقلق والهيجان.

رينو يلحّ، ويطرق من جديد.

«ها أنذا، يا إخوتي. سأصل حالاً» أقول، بينما أزدرد كأس الجين تونيك الرابعة برشفة واحدة.

نتقدم على طول الممرّ المضاء بالنيون، والذي يفضي إلى المسرح، كأنني العمدة أتوسّط رجالاتي، رينو بابالاردو، ليلو كوزا ضابط الإيقاع، جينو مارتيري عازف الجيتار الجهير، تيتا بالومبو عازف الجيتار. كلنا نرتدي البزّات الرسمية، خلافاً لعاداتنا، يفتك بنا التوتّر واليقين المرّ بأنّ هذه الحفلة أكبر من حجمنا.

إنني متأكد من أنّ تيتا، في سرّه، يفكّر بأننا لا نعرف قراءة أيّ علامة موسيقية. ومن جانب آخر، أن تبني نجاحك على حساسية الأذن السماعية، فهذا نجاح باهرٌ.

«إنني في حاجة إلى رشفة من مشروب بالانتاين» يهمس كوزا في أذن مارتيري.

«ربّما كان بين الجمهور» يسخر مارتيري مرتعداً.

«مَن؟» يسأله ليلو كوزا.

«بالانتاين، صاحب شركة الكحوليات» يجيبه جينو مارتيري.

«أغلقوا أفواهكم» أفرض عليهما أمري، فيخرسان.

«أربعة» ينطق ليلو كوزا بالكاد، ويفتتح الأغنية قرعاً على الطبول على وزن ٤/٤ أكثر بطئاً من المطلوب، لكنه يستعيد الإيقاع الصحيح بعد الدورة الثانية. أرمق كوزا بنظرة متجهّمة من خلف الكواليس، وفي أثناء أربعة وعشرين ثانية من المقدمة الطويلة؛ أفكّر بما يثير الشفقة أن هذه الصالة أكبر ممّا أذكرها، وأشعر باللعاب يتغلغل في فمي. بعد خمس عشرة ثانية عليّ أن أدخل إلى المشهد، عد إلى الخلف، أيها اللعاب الملعون، أو فاذهب إلى الجحيم.

استقرّ ضغط دمي على درجات ضغط السحليّة: ١١/٤٠. وطغى على وجهي شحوبٌ قادم من العصور الوسطى. ولكنْ؛ لا يهمّ، فلقد دخلتُ دخول الفهد إلى الحلبة، مصطنِعاً الشرود بطريقة مدروسة. إنني أستاذٌ في الدخول إلى خشبة المسرح، كالملاك الأسمى. بوسعي أن أكتب في هذا الموضوع منشورات ومجلدات ... يربكني التصفيق، فترتجف شفتاي، كذلك الانفعال الذي ينتاب بعضنا بعد فيلم رومانسيّ تافه. ولكنّ هذا، حمداً لله، يجفّف اللعاب في فمي. وبينما أمسك الميكروفون، أبتسم للجمهور المنتشي الذي يصفرّ ويتفاعل مع لحن أغنية "قطار إلى البحر".

وعند نهاية المقدمة، أباشر الغناء. وبعد كلمتين عن الحبّ يتصاعد التصفيق الهمجيّ لجمهور الأمريكان من أصول إيطالية. وما يزال اللعاب يجول في فمي، فأفكّر كالمغفّل بما تفعله العواطف في هذا الجمهور الذي يفقد رشده حين يسمع أغاني الحب دون أن يعرفوا أسبابها... ما يزال اللعاب يسيل، ما يزال اللعاب يسيل.

والآن تضرب جدران دماغي بعضها ببعض، كمصراع النافذة المفتوحة في وجه عاصفة الريح. أبحث بنظرتي عن سيناترا بين المدعوّين في الصف الأول، ولا أجده. أين هو؟ لعلّ هذا الحقير لم يأت!

أغنّي المقطع الثاني متأخراً نصف ثانية، لكنني أستعيد الإيقاع فوراً،

وتنتهي أغنية "قطار إلى البحر" بأداء متفاوت. أقول Grazie, Thank you ثمّ أحدّد مكان سيناترا ذي اللون الفاقع. هيّا، تقدّمْ، يا طوني! أقول لنفسي، فيتقدّم طوني حين تبدأ "نجمةٌ في القلب"، أغنية رومانسية تقضي على مشاعر الإنسان حتّى لو كان قاتلاً سويدياً متسلسلاً. وما هي إلا نقرتين على الجيتار حتّى أدمّر حصون العواطف.

ثمّ تستحوذ عليّ فكرة علمانية: إذا دمّرتَ حصون العواطف، استهلكتَ الحياة، وأصبحتْ بلا جدوى كهدايا أعياد الميلاد.

أتقدم ببسالة وطموح كالببغاء، وأصعد في طبقات صوتي عند نهاية الأغنية، بما لا تقوى عليه دياماندا جالاس شخصياً، فترتجّ جدران مسرح الراديو سيتي، ويستنزف الجمهور الأمريكي الإيطالي قواه بالتصفيق، وتنشغل النسوة الثرثارات بمسح دموعهنّ السخيّة. وتذوب ظلال الحاضرين كالسمن الفاسد حتّى تختفي معالمهم. أنت أمام حدثٍ، يرفع من نبض قلبك، مثلما حين تعشق لمرّة واحدة في حياتك. ومَن منا لم يعشق لمرّة واحدة في حياته، على الأقل؟

بل وحتّى فرانك سيانترا، في الصف الأول، يرتّب بنطاله المنسوج من قماش الغبردين، ويبتسم، ويستمتع بسماع هذه الطاقة الصوتية العجيبة. فرانك يستمتع باعتدال؛ لأنه معتاد على الوقار، وهو من صنف بشري مختلف. يرضي الكثير؛ لأدهش رجلاً مثل فرانك، فهو قد خبِر معترك الحياة طولاً وعرضاً. والآن تلتقي نظرتي بنظرته في حالة هستيرية من الإعجاب المتبادل بين الزملاء.

إنني في منتدى النخبة الراقية. يا إلهي! أو في محفل فرانك سيناترا، على الأقل. إنني قاب قوسين، أو أدنى من الجنة، أغنّي بعزيمة عالية، أشعر أنني إلهاً، حقاً، إلهاً يغنّي بعينين مغمضتين، ورأس مرفوع نحو الأعالي. ولو كنّا نستطيع رؤية الله، لوجدناه أغلب الظن يمسك الميكروفون لي، يمسكه للمطرب طوني باغودا، الشهير بطوني ب.

وهكذا أشعر أنني بمثابة شارلي شابلن في مجال الموسيقى الخفيفة، أشبك ذراع الله، ونرقص على خشبة الراديو سيتي، من العاشرة حتّى منتصف الليل، بحسب توقيت مدينة نيويورك.

فرانك سيناترا منتشياً لا يغفو، بل ولا ترفّ له عينٌ. وهذا ما نسمّيه في بلادي بالنتائج الواضحة والمُرضِية.

وبكل الأحوال، أشعر بزوبعة من الأفكار والنغمات والأغنيات تتناهى إلى ذهني المشغول، فإن لم أنغمس فيها الآن، فمتى إذنْ؟

يصدح صوتي بأغنية "ما بقي مني"، فأحسّ بخصيتيّ تنتفخان.

أتناثر في أغنية "ستفكّرين بي يوماً ما"، فأشعر بخصيتيّ تتحجّران.

أصفع الجمهور بأغنية "في الحب أكون أو لا أكون"، فأفكّر أن هذا النجاح سيدوم مدى الحياة، مدى الحياة، يا ربّاه... سأضاجع العاهرات هذه الليلة، إذنْ، العاهرات الأمريكيات. فنيويورك تغصّ بهنّ.

ثمّ أتألّق بأسلوبٍ منقطع النظير على نغمات أغنية "ليالٍ طويلة في الحانة"، وأغنّي وأنا أدخل يدي في جيب السترة، وأتلمّس بأصابعي كيس الكوكايين ذي الثلاثة غرامات. أمامي قرابة ألفي شخص، يراقبون رفّ رموشي، ورغم هذا لا يعلمون بأنني أتحسّس المخدرات بأصابعي الشريرة. هذه الليلة إلى العاهرات الأمريكيات. كل هذه الأفكار تمتزج في رأسي كحبّات الفواكه في الخلاط.

أتحايل بسهولة على جمهوري المكوّن من الأمريكيين الإيطاليين ذوي الستّين عاماً. إن ظننتُم أنني مجرّدٌ من المشاعر والنزاهة، ولا أفكّر إلا في شبّاك تذاكركم التي دفعتُم ثمنها غالياً، فأنتم مخطئون. لن تستطيعوا أن تعرفوا سرّي، مهما تهاوت عليّ نظراتكم الثاقبة. سرّ أصابعي التي تداعب المحظور، الممنوع. في النهاية ليس بمقدور أحد أن يحظى بمعرفةٍ تامّةٍ حول

الأشخاص والأشياء، لأننا - ببساطة - لا نستطيع أن نرى الشخص، أو الشيء من جميع زواياه. إن نظرت إلى وجه أحدهم، فليس بوسعك أن ترى كتفيه؛ لأن رؤيتك جزئية وتقريبية دوماً.

حيواتنا هي مجرّد محاولات، محاولات فاشلة علاوة على ذلك.

أجول بناظريّ على الحشد الغفير، فأرى عيوناً برّاقة، وأيادٍ تحنو على بعضها لعشّاق في أرذل العمر، تثبت جودة ثلاثين عاماً من الزواج. لم تكن هذه الحياة التي قضوها معاً غلطة، بل كانت حياة حقيقية، حياة صعبة، مليئة بالمكائد الليلية، ومهينة بارتداء ثوب الشجون والخيبات، لكنها تستحقّ أن تُعاش. أرى مؤخّرات مفلطحة لأمهات تتأثرن على مقاعدهنّ، وقد ارتكبن في حياتهنّ ما يشيب لسماعه شعر الرأس، ومع هذا ليس من الصواب فضحهنّ، كما أنّ الراهب تصرّف من عنده، وغفر أخطاءهنّ. أذوب في الهذيان. أرى عاداتٍ وتقاليدَ وآمالاً وإراداتٍ قويّةً، يا لهؤلاء الأمريكان ذوي الأصول الإيطالية، كم هم مميزون في عالمهم هذا! يحلّق السوبر طوني في الطبقات العليا من أغنية "ليالٍ طويلة في الحانة". الاستطلاعات تشير أننا ننتهك الحرمات بسهولة في أيامنا هذه. هراء. كلّ ما في الأمر أننا في الأمس لم نتحدث بهذا الخصوص، وها نحن نفتحه اليوم. يمتلئ رأسي باستطلاعات الرأي.

وفي الختام أعيد بعض الأغاني، بسخاء يضاهي سخاء الملصقات الإعلانية عند محطات المترو.

في قاعة الانتظار، يشعر تيتا بأنه أخفّ وزناً بعد أن فقد كيلوغرامين من التوتر، وها نحن نتبادل القبلات والتهاني، أنا وهو وليلو ورينو وجينو. إنهم يصيحون ويغنّون مبتهجين، كأنهم جوقة من المشجعين فازوا لتوّهم بالمراهنات. يتصبّبون عرقاً، فأنظر إليهم متأثراً، لكنني لا أشاركهم الغناء؛ لأنني الزعيم، وعليّ أن أتظاهر بأنني كنتُ على يقين مطلق بأن هذه الحفلة

النيويوركية ستنتهي بهذا النجاح الباهر. يدخل جيني أفروديت، مدير أعمالي، وقد بدا عليه الإعياء، بوجهه التافه المعطوب، وغرّة شعره التي تتدلّى آلياً على جبينه، والقرط المعلّق على أذنه اليسرى، والذي يعطيه ملامح المراهقين. يقطع غناء الجوقة بجملة تسقطُ مثل هزيم الرعد في أول النوم.

«فرانك سيناترا يودّ أن يهنّئكم، يا رفاق!»

يطبق علينا صمتٌ وجوديٌّ.

أمّا أنا؛ فألتفت إلى المرآة المضاءة، بسرعة نمر مرقّط يقفز على أزيز الرصاص. أصفّف شعري المصبوغ بالأصهب الداكن. يبدو كأنه شعر الساحر سيلفان المخبول. أرتّب التسريحة إلى الخلف بالمشط، وأضمّ أزرار السترة. أشير بيدي إلى جيني، إشارة دكتاتورية لا تُنسى. فيُفتح الباب. تيتا يرتجف، ويطلب السماح من ذاته، إن كان قد انتقدها، أو إن استخف بنفسه يوماً ما. نسمع وقع خطوات ناعمة ومضبوطة في الممر. خطوات لأكثر من شخص يمشون على البساط الأحمر. يتقدم الحرّاس الشخصيون، ثمّ يظهر فرانك بهيبة ناقصة ومشية متمايلة، محمرّ الوجه مثل بعض الفلاحين والقرويين في إيطاليا. فرانك يدنو مني، يمدّ يده التي يسبح في فلكها خاتمٌ، يساوي مائة واثنين وعشرين ألف دولار. إنه ذروةُ المجوهرات، وأجملها على الإطلاق. فأردّ عليه بخاتمٍ، يساوي ثلاثة عشر مليون ليرة إيطالية، اشتريتُه من صائغ أفّاق في شارع مارينا. تتصافح اليدان، فترتعش الآذان من صليل الخاتمين. الجادة النيويوركية الخامسة في مواجهة شارع مارينا النابوليتاني. سحقاً! هذه مبارزة مجحفة. ينظر تيتا إلى خاتم زفافه، وهو يشعر بالذلّ، وفي أهمّ لحظة في حياته، يفكّر في تركيب عقد نقص ودونية جديدة، لم يكتشفها أحد قبله. أما أنا؛ فأفكّر في نظريات ومنظومات إيديولوجية عن أشكال السخاء الحديثة. بودّي أن أعرض على فرانك سيناترا جولة من الكوكايين، ولكنني أضبط نفسي بصعوبة.

فرانك قصير القامة أكثر من كل التوقّعات المتشائمة، ينتعل حذاءً، يليق بالأباطرة، يتّجه؛ ليجلس على الكرسي المرتفع الخاص بي، الوحيد في هذه القاعة. أنا ومجموعتي، واقفين على أقدامنا بانتظار رأيه الذي يساوي كل مسيرتنا الفنية. وفي لحظة غير مناسبة مطلقاً، يتذكّر ليلو كوزا بأنه خفيف الظلّ، ناهيك عن كونه ضابط إيقاع محترم.

«يبدو كأنه نابليون» يقول ليلو، وهو يبحث عن رضى رفاقه عن هذه النكتة السخيفة. فأرميه بنظرة متجهّمة، توحي برغبتي في التنازل عن خدماته. وحمداً لله أن سيانترا لم يفهم ما قاله ذلك الأحمق. فرانك جالس على الكرسي، ولم يتكلّم بعد، يرتفع التوتّر، توتّرٌ لا يُوصف، لكنه أشبه بفظاعة الرطوبة. يُخرج سيناترا من جيبه علبة سجائر، ببطء يعجز عنه المدمنون على الهيروين. فتمتدّ أعناقنا لا إرادياً كالزرافات؛ كي نرى نوعية السجائر. لم نسمع باسم هذه النوعية من قبل: "سجائر سيناترا".

يضع فرانك السيجارة بين شفتيه، كأنه في مشهد سينمائي بطيء، ثمّ يُخرج ولاعة دوبون البلاتينية المصنوعة عام ١٩٥٨، ويتهيأ لنطق جملة بلغة إيطالية رديئة:

«هذه الولاعة، مارلين مونرو، أهدتني إياها.»

فارتفع حجم التوتّر، بما لا يُطاق.

«الأداء جيد جداً، ولكنْ؛ خذ في الحسبان - يا طوني - أنّ النجاح ... مهما بلغ الإنسان من نجاح، فإنه يبقى كيساً من البراز» يصرّح فرانك سيناترا، ويقهقه كالسكارى.

مهما بلغ الإنسان من نجاح، فإنه يبقى كيساً من البراز.

ها هو صاحبكم طوني يفكّر في هذه الكلمات، بينما يضطجع في المقعد الخلفي من سيارة الليموزين السوداء، ومَن يدري مَن دفع ثمن أجرتها. ليس

هو بالتأكيد. ها هو متوحّد مع ذاته، عيناه ترتفعان، وتهبطان في النظر إلى ناطحات السحاب في ميدتاون، منتشياً بكأس الجين تونيك السادسة. السائق لا يعيرني اهتماماً حتّى لو توسلتُ إليه، فأقول لنفسي إنّ لحظة الكوكايين حانت. أنحني لاستنشاق الغبار حتّى أشعر بأنّ الإمباير ستيت بيلدينغ يتهاوى فوق رأسي. لا شيء. حتّى السائق لا يسمع آهاتي، بسبب الزجاج العازل الذي يفصلني عنه، والذي لا يستخدمه عندنا سوى الموظّفون في المصارف. أجد نفسي وحيداً، وأنا الذي أملتُ بتناول العشاء مع سيناترا. لكنه انصرف بعيداً بإيحاء مَن يسدى لك معروفاً عظيماً، بمجرّد مجيئه إلى حفلتك. كنتُ متفائلاً، فمن المعلوم أنّ النجوم والمشاهير هم دائماً في مكان آخر، ولكنْ؛ ليس حيث أكون أنا. كنتُ أتخيل أنني أجالس فرانك سيناترا في سهرة لطيفة بعد العشاء داخل أحد تلك البيوت المؤثّثة على طريقة المخرج بيلي ويلدر، بينما أجد نفسي على طول طريق تايم سكوير المنفرد باستضافة العاهرات. هذه مملكتي. هنا لا أشعر بالغربة. أجوب بين الأعراق، وأشحن عاهرة زنجية في الليموزين، وأخرى من بورتوريكا، بينما تجرحني نظرة شقراء من عاهرة، أظنها ألمانية، أو هنغارية، وما أدراني، فلطالما خلطتُ الشرق بالشمال على نحوٍ غير مسبوق. إنني رجل لا تناسبني إلا الأبّهة الأمريكية، أو الإثارة الاستوائية، ثمّ إنني أشعر بنفسي كفرعون في إجازة. لقد تركتُ زملائي ينعمون بالدفء داخل حانة رديئة، فهؤلاء لا يستطيعون أن يطالبوا الحياة بأكثر من زجاجة بيرة يشربونها على طاولات حانة مظلمة. ويعجزون أن يفتحوا حديثاً حتّى مع النادل؛ إذ إنّ دكتاتورية اللغة الإنكليزية تنفيهم خارج أروع المحافل في هذه الحياة. أما جيني أفروديت؛ فلا أعلم أين يكون، لهذا الرجل أجواؤه الخاصة، ولا يبوح لأحد بشيء، يقول دائماً إنه ذاهب للعمل، ولعلّ كلامه صحيح، كما قد يكون صحيحاً أنه راح يبحث عن الهيروين، وما أدراني أنا؟!

وها أنا أعرض الكوكايين على العاهرات الثلاث، وألفظ بعض الكلمات الأمريكية التي تليق بالمهاجرين بداية القرن. فلا يتكلّفن عناء الإجابة،

لانغماسهنّ في المخدرات البيضاء. لكنني أحبّ التواصل، ولطالما أحببتُ التواصل. ولم أترفّع عن أيٍّ من مناهج التواصل. فليكن بوساطة الكلمات، اللكمات، الضحك أو البكاء، رسائل الحبّ، الجنس، الكحول أو الكوكايين، ليس عندي أي مشكلة. فهذا يسمّى "التواصل"، مهما كان شكله.

ندخل إلى غرفة الفندق، ونتجرّع المزيد من المخدرات، خطوطاً طويلة، ليست لها نهاية. أستلقي على السرير، كأنني أقول: ها أنذا هنا، افعلن بي ما شئتنّ.

للزنجية ثديان معتبران، يتمايلان يمنة وشمالاً، بما يلفت الأنظار، ربّما بسبب كثرة الأولاد، أو كثرة الأيادي التي داعبتهما. أعجبتني هذه الفكرة الأخيرة جداً، وزادت من هياجي! البورتوريكية فتاة مرتّبة، تنزع ثيابها في إحدى الزوايا، كأنها ستخلد للنوم بمفردها. تختار كرسياً شاغراً، وتضع ملابسها عليه، كأنها في امتحان للتشغيل في أحد محلات الثياب. إنها مجتهدة. يبدو لي أنها كانت مثابرة جداً في المدرسة، ولا تهدر وقتها باللعب مع إخوتها وأبناء عمومتها في البيت. هذه هي الفكرة التي أكوّنها عنها. ولكنّ الشقراء الباردة لا تشعرني بالارتياح. تستند بلا حركة إلى الخزانة، بكامل ثيابها، وتبدو كأنها محاسبة شريرة. كأنها تقول: لو كنتُ مدعوّة إلى مؤتمر عن طب الأسنان؛ لتصرفتُ بالطريقة نفسها. إنها تثير أعصابي، وتفسد عليّ اهتياجي بنهديّ الزنجية المستهلكين. وسرعان ما كانت الزنجية أولى الصاعدات إلى السرير، استلقت بقربي، والتصقت بي. أوّد أن أقبّلها، لكنها تتجنّب قبلتي.

ومَن يدري ما الذي أخرجني عن طوري:

«إنني مطرب» أقول لها هكذا بلا سبب. لم تتحدث أيّ واحدة منهنّ، فآثرتُ أن أبدأ الحديث. لكنهنّ لا يبدين أي ردّة فعل.

تطاردني البورتوريكيّة التي تتصنّع الإثارة. جاءتني من الخلف كالمجرمين، لكنها تداعبني من هنا وهناك، بينما تسلك الزنجية درب الروتين، وتفرج ساقيها. فأدخل بها، وأنا أشعر بأنني لا أحلّ أي مشكلة. إنني مهتاج، لكن

قضيبي ليس منتصباً بما فيه الكفاية. ربمّا جعل مني الكوكايين مازوشياً. ثمّ إنّ الشقراء تربكني بنظراتها المحايدة، متسمّرة عند الخزانة دون أن تخلع ثيابها. ما الذي يجبرني أن أدفع لها أجرها؟ بعد قليل سأستشيط غضباً، فألقّنها درساً لن تنساه. أتحرّك نحو السوداء، ولكنْ؛ بلا شبق. فالوحدة تنقضّ عليّ، وتعصر خصيتيّ، وتقلبني رأساً على عقب.

علينا أن نتحلّى بالقوة، يا طوني.

أتشجع، فأتقدّم مفرّغاً كل شقاء الحياة وإرهاق العمل والقلق. فهذه الأمور لها ما يبرّرها في لحظات كهذه. أن تنكح ثلاث نساء مختلفات، لكل واحدة منهنّ قصة مختلفة ووالدين مختلفين. على أي حال، ها أنا أتقدّم وأسرِع وألهث وأذوب في التحليلات، أُخرج قضيبي من فرجها قبل أن أبلغ الذروة. وحينها - فقط - أدرك سرّ الشقراء، فها هي تنقضّ عليّ بسرعة ذئب أخرس، تقرفص تحتي بكامل ثيابها، وتضع قضيبي في فمها، فأصل إلى غايتي. بوسعي أن أموت سعيداً الآن. فتلك التي ظلمتُها قدّمت لي أجمل هدية في أعياد الميلاد، يا للروعة! يا لعظمة هذا المشهد الصامت! أغرب ما يصعقك في الجنس هو الصمت الذي يطغى حين تظن أنك ستُحدث ضجيجاً، والعكس صحيح. هذه إحدى الحالات القليلة التي تُدهشني. ما أزال تحت التأثير، ألقي بآخر المني؛ فإذ بهاتف الغرفة يرنّ. إنها ماريا، زوجتي.

«مرحباً، يا حبيبتي» أقول بينما أنسحب من بين فخذي الزنجية، ولكنْ؛ على مهل. فالله - بجلالة شأنه - يعجز أن يُشعرني بالذنب أو الندم. لقد دفعتُ سلفاً للعاهرات الثلاث، ولذا؛ أراقب ارتداءهنّ الصامت لملابسهنّ، بينما أقول بضحكة قاهرة إنّ الحفل كان ناجحاً جداً. وأسمع زوجتي تقفز من الفرح في بيتنا، مثل الكنغر. إنها تشاركني أفراحي وآلامي. لا أرى الشقراء، لابدّ أنها قد خرجت من الغرفة، فهي لم تنزع ثيابها بالأصل، ماذا جاءت لتفعل - هنا - إذنْ؟ زوجتي تقول لي إن ابنتي تريد أن تكلّمني. فأسمع صوتها البريء يقول لي: «بابا، بابا» بينما تفلت الزنجية ورفيقتها إلى الخارج دون

أن يشرن إليّ بتحية الوداع على الأقل. ابنتي تقول إنها مشتاقة لي، فأفكّر أنني لطالما غبتُ عنها.

«اسمعي، يا عزيزتي. سآتي لك بهدية حين أعود. والآن فلنغلق السمّاعة؛ لأن الوقت متأخّر عندي، ألم تخبرك أمك بذلك؟ هنالك فارقٌ في التوقيت، وبابا متعب جداً؛ لأنني عملتُ هذا المساء»

أشعر أنني مستعجل، ولا أدري لماذا.

أُغلق السماعة، ولا أشعر بأنني على ما يرام. معدتي تؤلمني. ليس بسبب القرحة، بل لفارق التوقيت. هنالك بقايا المني على يدي، أرتجف، هنالك شيء ما ليس في يدي. الخاتم ذو ثلاثة عشر مليون ليرة. كان في إصبعي منذ قليل. يا إلهي! أصرخ كالنوارس الصائمة. تلك القحبة الشقراء سرقت مني الخاتم. لماذا لا تحدث مثل هذه الأمور مع فرانك سيناترا أبداً؟ ربمّا لأنه لا يتردّد إلى عاهرات تايمز سكوير. وهذا ما أتأكد منه حين أبحث عن المحفظة عند المدخل. لقد سرقن الدولارات أيضاً، يا للعاهرات بنات العاهرات! هذا كلّه بسبب زوجتي البغلة. على مدى عشرين عاماً، تتصل بي حين لا يجدر بها الاتصال بي. تلك المرأة عبارةٌ عن أيقونة من المآزق والعثرات.

إنني على وشك البكاء.

اليوم ٢٧ ديسمبر عام ١٩٧٩، وأشعر أنّ البشر - منذ بضعة أيام - تحوّلوا جميعهم إلى أشرار.

لا أبكي. لكنني أشعر بالعناء الشديد من الولايات المتحدة، وأريد العودة إلى إيطاليا. وبينما أغفو أصرخ بصوتٍ عالٍ من شدّة الألم الذي يوقظني بحمّام من العرق:

«يا ملاح الجندول، خذني إلى نابولي»

ما معنى هذا الهراء؟!

٢

بثيابي الزرقاء ... أرتدي الصبر

تشارلز آزنافور

إن كان لأحد أن يفرض عليّ سوء المزاج، فهو - بلا شكّ - تيتا بالومبو، عازف الجيتار في فرقتي، وزميلي الأحمق، والسفيه في لعبة التنس المزدوجة.

نحن في وقت الظهيرة، وأشعر بألم في فخذيّ. كنتُ غاضباً جداً في الأمس بعد أن سرقنني العاهراتِ الثلاث، وكي أواجه الأمر، تجرّعت ما لا يقلّ عن ثلاثة أو أربعة غرامات من الكوكايين. فاستيقظتُ اليوم على تداعيات ذلك في ألم في الفخذين.

كنا مستلقين نحن الستّة في أحد بارات المطار، بانتظار الرحلة. أنا أشرب كأس تيكيلا براون، ولا يهمّني ما يزدرده الآخرون. بل أشعر بالإزعاج حين يكدّر تيتا مزاجي في حديثه لساعاتٍ، عن أمور تافهة. ويعثر على ضالّته في ذلك الغبيّ جينو مارتيري المتأهّب دوماً على مشاطرته الترّهات. والآن يتناقشان في الطعام: لماذا شطيرة الريبينو ألذّ من بيتزا المارغريتا؟! ويتجادلان حتّى المشاجرة. وهما ليسا إلا أبلهين من نابولي. أنت لديك رغبة في العمل كالحمار؛ كي تُشهر تراثك الغنائيّ خارج الأطر المحلية، وهذان الأحمقان لا يتوانيان عن التصرف كعارضات الأزياء في السبعينيات داخل الأماكن العامة، ويحسبن أنهن بعيدات عن الأنظار. هؤلاء النابوليتانيون هم الروّاد في الحديث عن البيتزا والمكرونة وغياب الشمس وأشجار الصنوبر في شارع

أوراسيو وبركان الفيزوف وجزيرة كابري وأشباه الجزر السورنتينية السخيفة. مثل هذين الأحمقين اللذين أصطحبهما معي كعازفين.

في دفاعه عن شطيرة الريبينو، يستلهم تيتا من كاتب بولنديّ، لا أستطيع أن أذكره لكم حتّى لو حاولتُ ألف مرّة، اسمه شنيعٌ من تلك الأسماء المكوّنة من الأحرف الساكنة فقط. تيتا رجلٌ مثقّف، يتعامل مع الآخرين بفوقيّة، ويصدمهم بالصفات والأسماء المركّبة، ولكنه لا يخيفني أبداً. حتّى لو رمى فوقي الموسوعة البريطانية كلّها، لا يخيفني. أحيطك علماً، يا عزيزي تيتا، أنا لديّ الموسوعة البريطانية في المنزل، وبعض المجلّدات ما تزال محفوظة بالسيلوفان. أنا أقضي على تيتا دائماً، وهو لا يجرؤ حتّى على الردّ. تتحدث الكُتُب نيابة عنه، أما أنا؛ فأترك المجال لخبرتي العظيمة تتحدث عنها وعني، خبرة لا يحلم بها تيتا، وهو الأبله الذي يقضي السهرة في شقّته عند تلّة آميني مع زوجته شبيهة الفأر وأبنائه الثلاثة. يقول عنهم إنهم يتمتّعون بكامل صحّتهم، ولطالما شعرتُ أنهم ثلاثة منغوليين، ليس إلا.

يدّعي تيتا أنه مرهف الحسّ، وأنه رجل التحوّلات، لكنّه في الحقيقة ليس إلا حماراً. حمارٌ يبكي، هذا هو في الواقع. لن يجدي نفعاً، يا تيتا. لاسيّما أنك لا تخرج في المساء، وتبقى في البيت أسيراً للقراءة. في المساء، لابدّ أن نخرج، ونطوف، ونأكل في الليل، ونتوه في سراب الضواحي الخرائية، وندرك أن الليل خير معلّم بأوزانه وأنغامه المرتجلة. الليل هو الذي يرغمك على نزالٍ بين حياتك وكل الحياة الأخرى. تلك الحياة التي ليس بوسعنا أن نرويها. لا تقلقوا، سأرويها لكم، تحلّوا بالصبر. سأروي لكم - أيضاً - عن تلك الليلة من شهر أغسطس حين ذهبتُ لأكل الراغو في الرابعة فجراً في حيّ البرج اليوناني عند ثلاثة أشخاص مرعبين للغاية.

عموماً لستُ إلا شاهداً على هذه المأساة التي وقعت لتوّها في المطار. إليكم...

... النقاش الشهير عن البيتزا ...

تيتا يحاول أن يكون اجتماعياً: «ما إن أعود لن أهتمّ لفارق التوقيت، ولا لتعب الرحلة، ولن يمنعني أحد من الذهاب لتناول الريبينو عند أنجلو.»

أنا، في غاية الانطوائية: «فارق التوقيت يسبّب لي ألماً في المعدة.»

حلّ صمت ثقيل. لم يعرني أحد انتباهاً مع أني الزعيم، وهذا ما أزعجني.

انطلق جينو مارتيري بكامل طاقته، وقال متحمّساً: «الريبينو التي يحضّرها أنجلو لا تُؤكَل. كأن تتناول طبقاً من الباستا مع جبن الموزاريلا في كاراكاس.»

انزويتُ في صمت حادّ، من شأنه أن يلفت الأنظار. لا شيء. شعرتُ بالإهانة أكثر من قبل.

ردّ تيتا كالصاروخ: «قبل كل شيء، أنجلو صديقي، فانتبه على ألفاظك. ثمّ إنّه يحضّر الريبينو في غاية الروعة.»

جينو يدافع عن موقفه: «أنا أهاجم الشطيرة، وليس الرجل.»

تيتا متفاصحاً: «أنجلو يعيش بفضل ما يحضّره من الريبينو، فأنت تسيء للرجل وفقاً لأبسط قوانين المنطق.»

جينو مستسلماً: «لم أكن أقصد. أنجلو يحضّر المرغريتا أفضل من الريبينو»

تيتا يشعر بالاستياء: «يا لك من غبيّ. أنجلو لا يحبّ حتّى أن يتكلّم عن المرغريتا، يحضّرها على مضض. وحين يطلبها أحد الزبائن ترتسم ملامح القاتل على وجهه. وذات مرّة، قال لي رأيه عن المرغريتا، وكدتُ أبكي لعمق ملاحظته: "كانت تلك الملكة الوطنية الحمقاء تظن أننا شعب بسيط، لذا؛ قدّمت لنا بيتزا بسيطة. مَن تحسب نفسها؟ نحن لدينا الريبينو بكلّ تركيباته وتعقيداته الصاخبة. لكن الزمان كان كفيلاً بمعاقبة تلك المرأة، بما تستحقّ، فالمملكة التي تنشغل في سنّ القوانين عن كيفية الطعام ليس

لها مستقبل"(*). والآن قل لي أنت، بعد هذه المضاربة الغذائية وهذا النقد السياسي اللاذع، قل لي إن كان أنجلو يحضّر المرغريتا بكل سرور.»

جينو كأنه مصاب بالجدري جلداً وروحاً: «أردتُ - فقط - أن أقول إنه من غير المنطقي أن تربط بين جودة التحضير وميول الرجل. بل إنّ أنجلو برهان على ما أقول. لا يفضّل المرغريتا، ومع هذا يحضّرها بأفضل ما يمكن.»

تيتا حزيناً وعاجزاً: «أنجلو يذهب شخصياً إلى موندراغوني؛ ليأتي بجبن الريكوتا...»

جينو يناور: «إنها مسألة موهبة، وجودة المقادير لا شأن لها في الموضوع. ثمّ إنني لم أقل إن أنجلو لا يعرف تحضير الريبينو بشكل جيد.»

تيتا في الرمق الأخير: «سأذكر لك كاتباً بولندياً (لا أستطيع إعادة اسمه) حين قدم إلى نابولي للمرّة الأولى؛ إذ قال عنها: "نابولي تتغذّى على الطبقات، طبقات أرضها متعدّدة، فترى التنوع فوق الأرض أيضاً. هنا لا وجود للوجه الواحد، فالعنصر المجوّف يتكوّن على نفس قياس العنصر المحدّب، وهما لا يتجزّءان. بعبارة أخرى، لا يوجد مكان للمساحة المسطّحة، إنما للمساحة المدوّرة المجوّفة والمحدّبة فقط". هل فهمتَ، أيها الأحمق؟ لا وجود للمساحة المسطّحة؛ أي بيتزا المرغريتا، فقط المجوّفة والمحدّبة؛ أي شطيرة الريبينو. هل فهمتَ، أيها الأحمق؟» يزجر تيتا، فتلتفت نادلتان أمريكيتان مرتعدتان.

جينو دون شعور بالذنب يفقأ عيني تيتا قائلاً: «اسمع، يا تيتا، إنني لا أمسح دبري بكلمات هذا الكاتب البولندي. الريبينو التي يحضّرها أنجلو خرائية.»

فيضرب تيتا بقبضته على الطاولة. يحاول رينو أن يهدّئ من روعه، فينظر

---

*) حين قدمت مارغريتا ملكة إيطاليا إلى نابولي، حضّر لها الطبّاخ طبقاً من البيتزا وفقاً لألوان العلم الإيطالي: الأبيض من الجبن، الأحمر من الطماطم، والأخضر من الحبق. وهكذا سُميّت هذه البيزا على اسم الملكة مارغريتا. المترجم.

تيتا إلى البعيد شاحب الوجه. ويبتسم جينو بلؤم متلذّذاً بالنصر كالنمس التايلنديّ حين يقضي على الأفعى.

أجل، فأنا زرتُ بانكوك ثلاث مرّات.

على أي حال، قولوا لي أنتم كيف استطعتُ برفقة هذين الأحمقين أن أقيم حفلة أمام صاحب الحنجرة الذهبية شخصياً؟! إنها معجزة. التباس. ضربة حظّ. ماذا عساني أقول؟!

لقد ضقتُ ذرعاً بهذه المناقشة الحادّة حول البيتزا، أكاد لا أصدّق كيف يقضي هذان عمرهما في تناول البيتزا والحديث عن البيتزا. أمّا أنا؛ فعندي مشاريع أخرى دائماً، أكثر كلفة، وأكبر نبلاً. أبتعد عن المغفلين وأحاديثهم المزرية، أمشي عن غير هدىً في صالة الانتظار متأبّطاً بعض الجرائد الإيطالية حتّى أرى الحمّامات. أدخل، فأجد بقرة شرقية تنظّف الأرض، ثمّ أمسح سفل حذائي المتّسخ بممسحتها المليئة بالصابون، وأقول: «أعتذر، أعتذر.»

تترفّع تلك المفلطحة، ذات العينين اللوزيتين، عن النظر إليّ. فأندم؛ لأنني اعتذرتُ منها، في حين تخطر في ذهني إحدى الذكريات السخيفة، هكذا بلا سبب، أتذكّر آنستي في المرحلة الإعدادية تؤنّبني على كثرة الأخطاء النحوية في كتابتي الإنشائية. تجتاحني نوبة غضب ونقمة، لا مبرر لها، إن كانت ما تزال على قيد الحياة، سأذهب لزيارتها في بيتها القديم النتن، وأضع تحت عينيها الغائرتين شهادتي الفخرية التي منحتني إياها كلية الآداب في جامعة الكيبيك العام الماضي، والتي كُتب عليها بالخطّ العريض: الشاعر طوني باغودا. ما رأيك، أيتها العاهرة؟ هل الشاعر يخطئ نحويّاً؟ أجلس على المرحاض، وأتصفح جريدة البانوراما. تظهر تحت عينيّ مقابلة نادرة مع المطربة الألمانية مارلين ديتريخ. أقرؤها على مضض، لكنني أرتجف، وأتصبب عرقاً حين تقول: «ليس من الصواب أن نخلط بين المطربين وأغنياتهم. فرانك سيناترا مثلاً، صاحب الصوت العظيم، يحلّق بغنائه دوماً فوق كل مشاكل الأرض! ألا تعلم ذلك؟»

أحسستُ أنّ سؤالها الموجّه إلى الصحفيّ «ألا تعلم ذلك؟» موجّه لي أيضاً. هذه الفكرة دوّختني، باختصار. تضيق أنفاسي، وأفكّر بأنني أنا - أيضاً - أحلّق عاليا بغنائي فوق كلّ مشاكل الأرض. ولا يهمّ إن كنتُ لا أعي ماهيّة هذه المشاكل. أرتجف متأثّراً، وأشتهي شمّ القليل من الكوكايين، بينما أقلّب صحيفة الكوريري ديلا سيراً بحثاً عن أخبار الفن. أخبار تافهة، فالمقالات التي ستتحدّث عن حفلتي في نيويورك لن تصدر قبل صباح الغد.

٣

انقضى الليل

ولا أزال أشعر بك

يا نكهة الحياة،

كم أنت رائعة!

رائعة!

رائعة!

دومينيكو مودونيو

من المستحيل أن تقاوم الليل عندما يقبض عليك حقاً، كأنك تصارع قطيعاً أسود، أو عناكب عملاقة. تقول لنفسك: سأعود إلى البيت حالاً. ثمّ تصادف شيئاً ما يقذفك بعيداً. شيء ما يشبه تيار الرياح، أو إعصاراً رهيباً من الرعب. وحينما يبزغ الفجر تستردّ قليلاً من الطمأنينة، لا غير. فالمسدسات لا تتقيّد بتوقيت معيّن، إنما بوجهة معيّنة. تتساءل إن كنتَ أنت ذاتك مَن يهيم في هذه الزوبعة، وربّما مررتَ بها مراراً، ولم تلحظ ذلك.

لقد ولدتُ في زقاق سبيرانزيلا، وإن كنتُم تجهلون أين يقع هذا المكان، فهذا شأنكم. بإيجاز، هنا في سبيرانزيلا يعدّ البراز البشري أمراً طبيعياً في الطريق، كأنها قطع أثاث منزليّ. وفي بعض الأحيان، يتدفّق البراز حتّى يفيض الحيّ، ويرتفع مستواه حتّى يغرق بيتك، وتجده يزحف على السلالم الضيّقة الرطبة والمظلمة. أجل مظلمة، لدرجةٍ تُرغمك على الإيمان بكلّ الأرواح المقدّسة، وبكلّ الأشباح، وبكل الأموات الذين يأتون لزيارتك. تؤمن قسراً بكل الذين انتحروا من الحبّ. لكنه براز فلكلوريّ بالمحصّلة، وسرعان

ما يتسنّى لك أن تطرده، وترميه ثانية إلى الطريق. كان البراز لعبة شعبية في الماضي، أما الآن؛ فلا. تغيّرت الأمور، وأصبحوا أكثر جدّيّة. يموتون دون أن يعوا هذا. ليس بوسعهم أن يعوا؛ لأنهم منشغلون في التفكير بالموت اللاحق. يفكّرون بالمستقبل. بمستقبل الموت تحديداً. وهذا ما يخيفني حقاً؛ لأنني لطالما كنتُ مولعاً بالحياة، وأتعلق بها كمصّاص الدماء، كالأخطبوط على صخور البحار. كنتُ دائماً مثل تلك الأسماك الماكرة التي تسخر من الطُّعم المقنّع بلبّ الخبز، وتظلّ تسبح بعيداً عنه. إذنْ؛ فالأمر مختلف حين تجد نفسك داخل الشبكة التي لا تعرف حتّى أنت كيف انتهيتَ فيها. لا أتمنى هذه النهاية لأحد.

أدخلني ماوريتسيو دي سانتيس، الأحمق المجنون، في تلك المأساة. لا أكاد أنزل من سلّم الطائرة حتّى يأخذني على حين غرّة: «هذا المساء سنذهب إلى الميناء، فالكولومبيون سيرسون اليوم. وهناك نأخذ البضاعة الجيدة مباشرة من المنهل، وأنتَ خصيصاً تحصل على أجود البضاعة، فحفلة رأس السنة بانتظارك.»

والحقّ يقالُ إنني أتسرّع بالموافقة، بطريقة بطوم سوير حين ينطلق لمغامراته في الريف مع أصدقائه المشاكسين.

ماوريتسيو يعشق سيارته ألفا روميو الصغيرة. يبلغ من العمر ستّة وثلاثين عاماً، قضاها كيفما تأتي الرياح. لا أعرف ماذا يفعل خلال النهار، وليس بوسعي أن أتخيّل، يبدو لي أنه يتشكّل في الليل فقط، مثل سالفيتي المسؤول عن الكرنفال الكحولي، يظهر في الصيف حصراً، ويعلم الله وحده أين يقضي فصل الشتاء. ربّما يختفي كلّيّاً، أو يتبخّر مثل قنفذ البحر. هذه المقدمة مفيدة؛ كي تعلموا أنني لا أعرف دي سانتيس حقّ المعرفة، لكنه غالباً ما يخطر على بالي. إنه من النوع الليليّ الخارج عن المألوف، تاجر مخدّرات صغير، ولا يثلج الصدر، يثقلك بمجاملاته الصادقة، والتي ليس لها معنى. مدمن على الكوكايين. ويثرثر إلى ما لا نهاية دون أن يقول شيئاً مفيداً

أبداً. كما أنه يتقيّأ كثيراً من أسماء رجال، لا يعرفهم أحد غيره، وبرامج تلفزيونية تقتله من الضحك، والتي لم أتابعها يوماً، ولا حتّى عن طريق المصادفة.

الساعة الآن الثانية والنصف ليلاً، ودي سانتيس يقود السيارة على المنعطف الذي يفضي إلى رصيف كارلو بيزاكاني الساحليّ. تفصيلٌ صغير: هذا المعتوه لم يفهم جيداً عند أي رصيف يرسو الكولومبيون. يقود السيارة على هذا المنعطف السريع والمخيف الذي يوازي البحر على بُعد شبر، وإذا فقدتَ سيطرتك عن السرعة، تقضي نحبك هكذا... كأي عصفور ضعيف. وأنا أعاني من الرهبة من الأماكن المرتفعة، أو الخطيرة، ولا أخفيكم أنني أغمض عينيّ من شدّة الهلع. وأنا متأكد من أنه تجرّع كمية، تجعلني أشكّ بمهارته في القيادة. أمّا هو؛ ينعم بطمأنينة عالية، وبينما يلامس عوارض الميناء، يحدّثني عن مقدّم برامج تلفزيوني يعجبه كثيراً: كلاوديو ليبّي.

«لا أعرفه» أقول بينما أسند يديّ فطريّاً على منضدة السيارة؛ كي لا أرتمي في البحر.

«إنه خفيف الظلّ» يقول «لديه تقنية في الفكاهة.»

«هل هو من الشمال؟!» أسأله وأستغرب من سؤالي هذا.

«يبدو لي ذلك» يجيبني.

«لابدّ أن تكون مؤخرته ناعمة، إذنْ» أعبّر بطريقة مبتذلة، بينما أحيد نظري عن مواجهة الآخرة.

لاشكّ أن الحياة عجيبة، ولكنْ؛ هلا أخبرتموني عن السبب الذي يدفع الناس غالباً إلى الحماقة؟! لقد قلتُ نكتة، ليس لها معنى، وأجزم أنني لم أفهمها. فإذا بماوريتسيو يفتح فمه كسمك القرش المصاب بالدودة الشريطية، ويقهقه خلف المقود، بما يطرش أذنيّ، فيغمض عينيه القبيحتين حتّى يكاد ينسى أننا قد نغرق بثيابنا، إن فقد السيطرة. لعلّ هذا الصعلوك،

بفمه المفتوح وعينيه المغمضتين، تناسى أننا مضطرون لمتابعة حياتنا. وبفضل الله، أنتبه أننا على شفير الهاوية، وأسمع لوهلة دويّ الموت ينهش أحشائي، فأتمالك نفسي في الرمق الأخير، وأطيل ذراعي؛ لأمسك بالمقود، ونتفادى الوقوع في البحر.

«يا لك من غبيّ!» أزأر غاضباً.

«لا تقلق، كل شيء تحت السيطرة» يجيبني بوجه مصفرّ، وقد توقّف فجأة عن الضحك، وأدرك فعلاً أنه غبيّ.

وليت الكارثة مرّت هكذا. بل كانت آتية على موعدها. الكوارث لا تصل متأخرةً أبداً.

«لقد تذكّرتُ الآن. كان علينا الذهاب إلى رصيف مارتيللو» يقول اللعين، وتتسارع نبضات قلبه. ينطلق بلا ضحك هذه المرّة، وينظر إلى الأمام بتركيز. لطالما أصابني المركّزون بالهمّ والغمّ ضعاف ما تسبّب به الشاردون. كنتُ أرى نذير الشؤم في كلّ مكان، لكنّ الشرود يسدّد خطاي دوماً.

«العملاق من المعجبين بك. أكد لي أنه سيبيعنا أربعين غراماً مناصفة بيننا نحن الاثنين. وبسعر مقنع جداً. بضاعته نقيّة للغاية، وليست كذلك البراز الأبيض الذي يتكرّم به علينا صاحبنا الدجاجة» يقول ماوريتسيو دفعة واحدة. الآن يعجبني. أصابُ بصعقة كهربائية، أشعل سيجارة روثمان خفيفة، وترتبك الأسئلة في ذهني، بينما كان يركن السيارة بعناية خلف إحدى الحاويات، لكنني لا أفطن لهذا إلا بعد حين. يتكلّم بنبرة جدّيّة، ولا يضحك حتّى لو قفز ماكاريو عارياً على زجاج السيارة.

«ومَن هو العملاق؟!» أسأل بفضول، وهرمون السعادة ينفجر في أنحاء جسدي.

«إنه رجل سيغيّر وجه هذه المدينة. يستحقّ أن يصبح عمدة نابولي. إنه صديقي، وهو الرجل الأقرب إلى روكوكو.»

ماذا؟ ماذا؟ روكوكو؟ يا ويلتاه! روكوكو زعيم أشرس عصابة مافيا في هذه المدينة الخرائية، وأنحائها.

«لا تقحمْني بما لا أقوى على الخروج منه، يا ماوريتسيو» أقول متلعثماً «إنني شخصية عامة، والله أعلم كم يودّون أن يربطوا بيني وبين أحد رجالات الكامورا. وأنت تعلم أنهم حاولوا مسبقاً أن يلصقوا بي هذه التهمة الساقطة. سيقولون إنني أتاجر بالحشيش، على أقلّ تقدير.»

«وهل تحسبني أجهل هذا؟» يُطمئنني ماوريتسيو «ستبقى هنا بانتظاري. أنا أذهب، أدفع، آتي بالمواد، ويا دار، ما دخلك شرّ.»

لا تدوم طمأنينتي طويلاً، وسرعان ما ينتابني شكّ مخيف، كأنني طرزانٌ مصابٌ بشلل الأطفال، وأهيم على وجهي في الغابة الظلماء بلا سلاح.

«ولكن إن كان العملاق من المعجبين بي فأراه توّاقاً لمعرفتي شخصياً.»

«لا تتفوّه بالترّهات، يا طوني» يقول، وهو يقهقه كمواطن من الدرجة الثانية «العملاق مشغول بسحب خمسين كيلوغراماً من الباخرة لصالح روكوكو، أتحسبه متفرّغاً لهذه السخافات في هذا المرفأ البغيض؟... العملاق في هذه اللحظات محاطٌ من الراقصات اللواتي جئن من جزر الهاواي.»

يبدو كلامه مقنعاً. أشعر بالطمأنينة والإهانة في آنٍ واحد.

«حسناً، اذهب» أقول له.

«حسناً، اذهب؟... ألن تعطيني النقود، يا طوني؟» يعلّق بشفافية، لا أقوى على احتمالها.

«كم يريد؟»

«خمسون ألف ليرة لكلّ جرام. لا تقل لي إنه سعر باهظ» يبتسم مظهراً لثّتيه.

«سعر جيد فعلاً. هل قلتَ إنه يعطينا عشرين غراماً؟»

يومئ ماوريتسيو راضياً: «أي مليون ليرة للعشرين غراماً.»

أرفع مؤخرتي من على المقعد الجلدي، وأُخرج من جيبي الخلفي رزمة من المال. أعدّ مليون ليرة بإصبعي الجافّ، وأعطي النقود لصاحبي الأبله. يأخذ النقود، ويضعها في جيب سترته الداخلي. لم أر في حياتي سترة مخطّطة أقبح من هذه إلا في الضواحي الأمريكية والبريطانية.

ينزل من سيارة الألفا روميو، ويختفي في ظلام رطب، لا يتخلّله إلا عويل النوارس التي تغنّي نشازاً هذا المساء.

أنا وحيدٌ الآن. لا أطيق صحبة الصمت، إذا أطبق. قبالتي، على بعد شبر من السيارة، هنالك قطعة معدنية داكنة اللون، وتافهة المعنى: الحاوية. ناهيك عن وجود المرفأ بكامل قبحه وملامحه الصناعية العاجزة عن فهم هذا العالم. وهذه هي الحالة المثالية؛ ليصادفك كلب شارد، يطوف بحثاً عن فضلات الطعام، لكنّ الكلب غائبٌ عن المشهد. حتّى الفئران والصراصير غير موجودة. وهذه ليست بشرىً سارّة. لا وجود للأمراض، لا وجود إلا لرائحة الموت. وما أسهل الكلام عن مثل هذا الوضع، الجميع بارعون في الكلام، بمَن فيهم السماسرة، كما قال أوسكار وايلد الذي قرأتُه ذات مرّة عن طريق الخطأ.

أقضي نصف ساعة داخل السيارة حتّى تكاد عيناي تدمعان من الضجر. أنظر إلى حذائي المخمليّ الجديد. أدخّن ثلاث سجائر. ومسخّن الحرارة يجعلني أصاب بالإعياء القاتل، كأنه نهرٌ يتدفّق على مهل. لا أثر لماوريتسيو، ولا حتّى لسترته المخطّطة. تخطر في بالي فكرة: ذات يوم سأكتب سيرتي الذاتية. وعليّ أن أذكر فيها كم كنتُ طيب القلب. تجوب عيناي يمنة وشمالاً حتّى تقع على المقود، فألاحظ أمراً من شأنه أن يدمّر جهازي العصبيّ: لا وجود لمفاتيح السيارة. ماذا يعني هذا؟ ينصرف الضجر باحترام، ويحلّ القلق

محلّه. أعصابي تحترق. ماذا لو كان دي سانتيس قد فرّ بالمليون ليرة التي تساوي أكثر من ثمن سيارته السخيفة هذه؟ ماذا لو كان الأمر برمّته ملفّقاً؟ منذ نصف ساعة، وأنا أنتظر بلا جدوى. يجتاح أذنيّ طنين معدنيّ لا يُوصف.

لا بأس، فالميناء غالباً ما يضجّ بهذه الأصوات، ووحده المخبول يربطها بأبشع الصفات السلبية لهذه الدنيا. ولكنّ الصوت يبدو مرتفعاً. هنالك شيء لا أستطيبه أبداً.

أتخّذ أسوأ قرار في حياتي: أنزل من السيارة.

تصفعني الريح على وجهي، وتلكمني، وترفسني. البرد قارصٌ وهائج، كأنه يسعى لإسقاط النظام. والرياح من النوع الذي يناسب البحّارة الروس. أتقدّم على طول ممرّ بين الحاويات المتشابهة. أجد نفسي في متاهة، لا أستطيع رؤية رصيف مارتيللو من خلالها. وما تزال الريح تجلد وجهي، وتبهرني. وفي فمي يسود طعم معجون الأسنان. وأخيراً أخرج من هذه المتاهة المعدنية؛ ليظهر أمامي رصيف مارتيللو عكس الضوء.

المدينة كلها خلفي، لكنها لا تراني.

الباخرة الكولومبية حمراء اللون راسية هناك تتمايل، وتراقب شقاء الحياة بغير اكتراث. وشقاء الحياة ليس تعبيراً إنشائياً، إنما هو الحقيقة بعينها: هنالك بعض الملامح البشرية تتهامس ما بينها، وأحدهم يتظاهر بتفريغ الحمولات محرّكاً يديه بطريقة لا تخفى على أحد حتّى لو كان الظلام بليغاً. مجموعهم لا يتجاوز العشرة رجال. والريح تعصف خارج تلك المتاهة حتّى تظن أن الجليد يبتلعك. أقترب من تلك الأطياف الغليظة بحثاً عن ماوريتسيو. أتظاهر بالبلادة، وأتجه إلى أصغرهم سناً، يبدو لي حمّالاً مسالماً، وأفترض أنه لن يضنيني بالأسئلة.

«هل ماوريتسيو هنا؟»

ينظر إليّ بوجه يشبه الجمبريّ، لا معنى له.

وينسلّ خيط من اللعاب على يمين فمه المنفوخ. لا أفهم شيئاً. لا يجيبني، فأشعر بالراحة، هكذا دون سبب، حتّى أرى ملامح جسده، وألاحظ سكينّ الغطّاس في غمده على جنبه الأيمن. ترتجف ساقيّ. لا أقوى على مضغ ريقي، لأنني أرى في تقاسيم هذا الشابّ سكرة الموت. أشعر به يقع عليّ، فأستعدّ لاستلقائه، فإذا بشبح عدائيّ يتمركز بيننا، ويدفعني إلى الخلف، فأسقط أرضاً. وتفلت مفاتيح البيت من جيبي. ما يخيفني أنّ الدفعة كانت شريرة ومتعمّدة، تشعر أنّ منفّذها رجلٌ قد اعتاد على العراك. كما حين يسرقون الساعة من معصمك، وتبقى متسمراً ومندهشاً؛ لتتساءل كيف استطاعوا سرقتها، لكنك تدرك - في الوقت نفسه - أنهم محترفون ومعتادون على هذا النوع من السرقة. فالمجرم لديه تقنياتٌ، وينفّذ مهامّه بخبرة. لكنني أود تأجيل التفكير بهذه الملاحظات الذكية، فالآن... الآن أشعر أنني في الجحيم. جحيم مكوّنٌ من صرخات، لا أستطيع فكّ طلاسمها، أضواء سيارات تصل لتوّها باتجاه مفرّغي المخدّرات، فتحوّل ليلهم نهاراً، وأسمع ضرب المسدسات تدوّي بصمتٍ قاتل من كلي الجانبين، إلا أنّ ما يثقب دماغك في هذه اللحظات هو صراخ الخوف.

لستُ في حاجة إلى صحفيّ ذكي كإينزو بياجي؛ كي يحلّل لي ما يحدث. العصابة المناوئة لعصابة العملاق جاءت كي تشارك في حفلة الرعب هذه، وتلوي ذراع مَن يتمادى في شراهته، ويبتلع الكعكة كلّها. وأنا أجد نفسي وسط هذه المعركة، بقدرة خيالية على مواكبة الأحداث، لم أكن أشكّ بامتلاكها يوماً، وأكرر كالمصابين بالصرع بعد كل عيارٍ ناريّ: «يا الله. يا الله.» ومستغرباً بأنني ما أزال حيّاً كأنني في قصة خيالية.

أعرج بشكل هزليّ حتّى ألتقط المفاتيح تحت وابلٍ من الرصاص، وأختبئ خلف عارضة قصيرة. غير أنني أستنتج بوضوحٍ الآن أننا جميعاً تحت رحمة الرشّاش. لا أعرف مَن يحمله، ولا أريد أن أنظر أيضاً. لا أريد أن أموت، أنا رجل يتغوّط من الخوف حقاً. ناهيك عن تزايد العويل الكثيف والمنبثق من عدة مواضع، لا أفهم ما يصرخون، وأشعر بالفزع فعلاً.

لن أقول شيئاً بعد. فالخوف هو نفسه حتّى لو كانت مرحلة الخطر متقدمة إلى هذه الدرجة. الخوف عينه ينتابك حين تجد نفسك بين مجانين يطلقون، النار على حامل رشّاش، تماماً كما ينتابك حين تستيقظ مكدّر المزاج، وتشعر بألم في الحلق.

إنه الخوف من الموت.

الخوف من الفرار بعيداً عن هذه الأرض المهجورة، وويلٌ لكلّ مَن يدخل هذه الأرض المهجورة.

أمّا ما يجمّد الدماء في عروقك؛ فهو تنوّع الحالات التي يصنعها البشر، ليرسلوك إلى عناق يسوع المسيح. وأقسم لكم برأس ابنتي أنّ تلك الحالة التي أجد نفسي فيها هي الأشنع من كل الحالات الأخرى. أشرد بهذه الفكرة، وتحيد عيناي عن هذه الحفلة الكمبودية مسافة سنتمترين؛ لأشاهد على الهواء مباشرة واقعةً فظيعة، تسلب مني حواسّي. أرى صديقي ماوريتسيو ثانية يركض، هارباً عن غير هدىً، باتجاهي. لعلّه كان يفكّر بالقفز في البحر، كما كان سيفعل بنا في السيارة بكل سرور، لكنّ الوقت يداهمه، وتغربل ظهره سلسلة من طلقات الرشاش، فينزلق على الأرض كمهاجمٍ يسقط في منطقة جزاء الخصم. ينزلق على نحوٍ خطير حتّى يصل إلى العارضة التي أختبئ خلفها، فيصطدم رأسه بهذه العارضة الحديدية الثخينة التي يستخدمونها لإرساء السفن المحمّلة بالأطنان. فتخيّلوا!.

يلفظ روحه أمام عينيّ.

يموت بسترته المخطّطة التي اتسخت بالوحل. لا أقوى على فتح فمي، حتّى لو طلبت أمي مني ذلك، وهي على وشك الموت. لا أتنفس. لا أفعل شيئاً. يُسدل حول أذنيّ ستارٌ من الطرش الثقيل، فلا أسمع شيئاً بينما أحدّق في جثة صديقي ماوريتسيو. وهكذا تلتهمني لجّة الفراغ والعدم.

روحي هي التي تتحدث، تهمس في أذنيّ قائلةً: «هذا يكفي!»

لكنني لا أقوى على تجاوز الحالة. ليتني قادر على ذلك. فما يزال إطلاق الرصاص حاضراً بقوّة. انفجر رأس السنة اللعين قبل أوانه. ما يزال الصراخ يشتدّ حولي، لكنني أفهم ماذا يقولون هذه المرّة. إنهم يرتبّون أنفسهم، انخفض توتّرهم قليلاً، وزال تأثير المفاجأة. ما إن تمرّ بعض الدقائق حتّى يتعايشون مع صوت الرصاص، ويطربون به. ويتصرفون كأنهم في حربٍ ضروس، بثقة الأقوياء، فكل واحد من هؤلاء الأوباش يعلم علم اليقين أنه سيخرج منها سالماً غانماً، فهذه لعبتُهم المفضلّة التي مارسوها غير مرّة. وماوريتسيو يدفع الفاتورة، فهو مغفّل مثلياً. دخل في مشكلة أكبر منه بكثير. كان يعبد كلاوديو ليبّي، حسب طاقته!

ورغم كل ما يحدث في هذا المشهد الصادم، الأسوأ الذي مررتُ به في حياتي، فإنّني لا أجد بدّاً في تقليب فكرة ما، أشبه بالرؤية: أرى جنازة ماوريستيو والصفّ الأول خلف عربة النعش؛ حيث لا وجود لأكثر من ستة أشخاص تقريباً، من بينهم امرأتان في أرذل العمر من أولئك اللواتي يلهجن بأخبار الأموات والأحياء، تتبعان نعش ماوريتسيو، وهما لا تعرفانه أصلاً. يا للحزن! أكثر ما يحزن في الأمر أنني لا أراني بين الأشخاص في الصف الأول خلف عربة النعش.

وفجأة أشعر بذراع تنقضّ عليّ من الخلف، بقوة رافعةٍ جبّارة، فتسحبني من خلف العارضة إلى الوراء. ها قد حان دوري - إذنْ - لإمضاء حضوري التعيس، لستُ أفضل من ماوريتسيو بالنتيجة. لكنّ ذراع هذا الرجل المكتنز تسحبني برفقٍ ودود، ولا أستنفد وقتي بالتخيّل حتّى أسمعه يقول لي: «تعال، يا طوني. سنذهب بالزورق السريع».

ناداني باسمي. فهو يعرفني إذنْ. يا له من نزيه. إنه العملاق. إنه العملاق بعينه. يقذفني لأنزل سلّماً صغيراً، ثمّ يقذفني لأصعد زورقاً آلياً أزرق اللون، يستخدمه المهرّبون. كان الزورق قرب الباخرة، لكنني لم ألحظ وجوده. يصعد

العملاق على متن الزورق بصحبة رجلين، لا تُوصف بشاعتهما. وننطلق بسرعة جنونية، كأننا نحلّق عالياً. والبرد يتغلغل في جسدي حتّى تمنيتُ أن أموت على الفور. لديّ حدسٌ بأننا لسنا متّجهين إلى كابري. نعبر رصيف المرفأ الواسع، فنبتعد عنه كثيراً؛ لندخل في ظلامٍ دامسٍ ومهيب. هنالك تمثال حجريّ للسيدة العذراء منصوبٌ عند مدخل الميناء، تتراءى لي لوهلة ويبدو أنها لا تودّ مساعدتنا. لم أر أضواء المدينة بعيدة كل هذه المسافة. وما همّني إن أنارت المدينة أضواءها، فهذه الليلة صافية ومتناقضة. أسمع نوعين من الضجيج، الأول صوت المحرّك الذي يدفع الزورق بجهد كبير، والثاني اصطدام رأس ماوريتسيو بتلك العارضة الحديدية.

وبعد خمس دقائق، يبدو أن الحياة عادت إلى طبيعتها. الزورق يتقدم على طول الساحل، بسرعة شيطانية. ونحن نبتعد عن براثن الأعداء. أجلس في مؤخّرة السفينة قرب العملاق، بينما ينشغل الرجلان بالقيادة. لا أحد يتكلّم. العملاق مستغرقٌ في التفكير. أرى الرجلين متوتّرين، لكنهما يبدوان خبيرين، بما يفعلان، يتبادلان جُملاً موجزة بين حين وآخر، لا أستطيع أن أسمعها.

أما أنا؛ فأفكّر: ما الذي أفعله هنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟ مَن يعرف هؤلاء؟ وبالأخص، أين نحن ذاهبون، حبّاً بالله؟ لكنني لا أجرؤ على السؤال جهراً. يختلس العملاق فرصة؛ ليخرج من أفكاره الإجرامية، فينظر إلي، ويبتسم ابتسامة منهكة وحقيقية ومتألمة، ثمّ يقول لي:

«أنا من المعجبين بك».

أوّد أن أجيبه: وهل تعلم كم يسعدني هذا الآن، يا رأس قضيبي!

ولكنني أستسلم لابتسامة، لا أفهم القصد منها، وحتّى لو اجتمع كل أذكياء الكون، فإنهم لن يعرفوا معناها. قد يفكّر بعضهم أنها دلالة على الخنوع، لكنها ليست كذلك، فأنا لا أخنع أبداً.

وكما يفاجئك أخطبوط قادماً من العالم الآخر، هكذا يتناهى إلى مسامعي حفيفٌ بعيدٌ، لا يشبه صوت زورقنا الفولفو الأزرق. لكنه يقترب رويداً رويداً، بشكل لا لبس فيه حتّى إنّ العملاق يلتفت مرتبكاً، ويحاول تقصّي الأمر. لا نرى سوى شاشة سوداء، تفوح منها رائحة الذئاب الضارية. ألتفت أنا أيضاً، وأسبر النظر، فلا أجد شيئاً.

«ادخل في مغارة شينيتو دون أن تُشعل الأضواء» يأمر العملاقُ ربّانَ الزورق.

يقترب ذلك الصوت أكثر. وعلى حين غرّة، نتعرّض لإطلاق رصاص مرّة أخرى، في خضمّ هذا البحر المتجمّد، دون أن تخطر في البال أي فكرة خيالية عن الهروب، وهذا ما لا أحتمله أبداً. يتغلغل ذلك الصوت الغريب حتّى أعماق قدميّ اللتين ترتجفان برداً، ولا أبصر وجه عدوّنا، وهذا أسوأ ما في الأمر. أدرك - الآن - أنّ ما مررت به خلال تبادل النيران على رصيف مارتيللو، لم يكن الخوف، بل كان تأثير الصدمة. أما ما أمرّ به لتويّ؛ فهذا هو الخوف النقيّ الحقيقيّ، هذا هو الخوف الذي فكّر فيه الله حين كان يتهيّأ لخلق الديناصورات. ويتجلّى هذا الفزع الوحشي واللزج بصورة دقيقة جداً. أشعر أن طيور النحام توخز مؤخّرتي بمناقيرها.

أشعر بألم في البروستاتا.

ها نحن ذا!

صديقنا سائق الزورق ينعطف يميناً، ويتجه مستقيماً صوب الصخور الضخمة بسرعة متزايدة. ثبّت العملاق بين أسنانه مخزناً. يعلم الله كم عدد الطلقات فيه، وأمسك بيديه مسدساً نظيفاً كبيراً أسود اللون، وباهظ الثمن. وأنا أفحص الأفق، وأشكّ في أي بقعة أكثر اسوداداً من المألوف، على أنها أحد ظلال أعدائنا، وأتخيل أنني سأموت على هذا الزورق في عرض خليج نابولي. ولكنني لم أعد أميّز ممّا أخاف حقاً؛ لأن زورقنا ما يزال

يتقدّم في الظلام، وأنا أرى - بوضوح - أننا نكاد نلامس الصخور والأعماق المضمحلّة، وأفكّر في أنني - بعد لحظة - سأرمي بنفسي في المياه الباردة حين يغرق الزورق. إلا أنّ زورقنا ينساب بأعجوبة بين ظلمات الصخور، كأننا في وضح النهار، وفجأة يستبدل جسدي البرد بحمّام من الرطوبة، لا يحتملها البشر. فأفهم أننا دخلنا في مغارة شينيتو، مخبأنا، أو مأزقنا، هذا ما سنعرفه لاحقاً. العملاق يُطفئ المحرك، فيهيمن صمت مملكة الأموات. وسرعان ما يختفي حين يظْهر صوت المحرك الآخر الذي كنتُ لا أميزه من صوت محركنا. أسمعه الآن أكثر قرباً وضجيجاً. أنظر في وجوه رفاقي، أراهم متوتّرين والمسدسات بين أيديهم، مستعدين لإطلاق النار، بما يهزّ أركان هذه المغارة الرطبة والغرائبية. ينتظرون الفرصة لمباغتة العدو، كما يقال. لكن العدو لا يقرر الدخول، ويظلّ يطوف في الخارج، ينتظرنا هو أيضاً. ويضعني في حيرة من أمري، إن كان عليّ أن أموت داخل المغارة بسبب التوتر، أو الرطوبة، أو رصاص الرشاش، كما حدث لماوريتسيو. لا أبتّ في الأمر حالياً. لكنني - خلال هذا الاحتضار الطويل - أعبّر عن رغبة ما: أوّد أن أغنّي "ليالٍ طويلة في الحانة".

ثمّ يمرّ وقتٌ غير محدد، لكنه طويل، أكتفي في أثنائه بإسناد وجهي بين يديّ. أحاول أن أتجرد عن هذه الحالة كلّيّاً، وأنجح حين أنغمس في فكرة وحيدة، وكلمة واحدة: بياتريشا.

لا أستيقظ إلا حين يحنو العملاق بيده على كتفي، وحينها يتغيّر المشهد رأساً على عقب: محرك قارب الأعداء ما يزال صوته هداراً، ولكنه يبتعد، يتراجع القهقرى؛ ليتسلل خيط الشمس من منفذ المغارة الضيّق.

بزغ الفجر، إذنْ.

وكم عايشتُ من شروق الشمس في حياتي، لكنّ هذا الفجر أكثرها فتنة على الإطلاق. فجرٌ برّاق وتاريخيّ. فجرٌ متوسطيّ. يعيد إليك الحياة. لم تكن

هذه الشمس، التي لطالما اختبأتْ خلف بركان الفيزوف، أكثر رمزية ومعنوية، كما هي عليه الآن. شمسٌ توقظك من الغيبوبة.

وفجأة يتنفّس صدرك هواء المستقبل.

أتبادل الابتسامة مع رفاقي الأشرار.

يوصلونني إلى مرفأ ماريكيارو الصغير؛ حيث ما يزال الأغنياء نائمين في منازلهم المترفة. في هذه اللحظة، أشعر أنني قادر على كتابة رواية، فما أنا - الآن - سوى زوبعة من السعادة والخبرة. قبل أن أنصرف، عانقني العملاق، وقال لي بنزاهة صافية، حرّكت مشاعري:

«إنني متأسف، يا طوني، على إقحامك في هذه المعضلة. أنت فنان حقيقيّ.»

أعتقد أنا - أيضاً - أنّ العملاق يستحقّ أن يكون عمدة نابولي. قبل أن يسمح لي بالذهاب، سلّمني ثناءً مهماً: عشرون غراماً من الكوكايين، في كيس صغير.

أصعد جادة ماريكيارو الهادئة والخالية من الناس، وألقي نظرة خاطفة على المنازل الرائعة يميناً وشمالاً. كم جميلٌ أن أسكن هنا. أتوقّف عند شارع بوزيليبو، وأركب سيارة أجرة. أكاد أستلقي على المقعد الخلفيّ، أتحسّس مفاتيح البيت في جيبي، ألتقط نَفَساً عميقاً، ثمّ تخرج من فمي هذه العبارة، بشكل لا إراديّ:

«صباح الخير، أيها السائق. صباح الخير، أيتها الحياة.»

- ٤ -

وقعتُ في غرامكِ
إذ لم يكن لديّ ما أقوم به
لويجي تينكو

الصدق فوق أيّ اعتبار.

خلال مسيرتي الفنية الباهرة، ألّفتُ ما يقارب مائتين وثلاثين أغنية. ماذا أضيف؟ استلهمتُ مائة أغنية على الأقل من قصتي بها، بياتريشا.

لكنها لا تعرف هذا. اسمها لا يظهر في أي أغنية. هذا هو سرّي. هذا هو المخبأ الذي يعشش في صدري كالجرح النازف. كالورم الملتهب.

ها قد أخبرتكم بسرّي. ولم يكن الأمر سهلاً. لاسيّما صدق المشاعر اللعين، يبدو كالدرس البسيط الذي يسرّ به أولئك الطلاب المجتهدون الذين يتفاخرون بقدرتهم على استخدام الدماغ.

ارتفعت أبراجٌ من الأسى في روحي، لا تنهار أبداً. ولا تريد أن تنهار أيضاً. منذ أن هجرتني بياتريشا. ولا أحدّثكم عن الأمس، بل عن زمنٍ مضى. ولا أبالغ إن قلتُ لكم بأنّ الكرب الذي أعانيه يهدّ الجبال، إذا نزل عليها. ولهذا السبب أصرخ حين أغنّي.

أصرخ آلاف الكلمات التي لا تعني سوى بياتريشا. إنها دائي ودوائي. أجل، فعندما أعتلي تلك الخشبة المنيوكة أرى الجميع يختبئون كاللصوص الخجولين، كلٌّ خلف خليله؛ كي لا يلاحظ الآخرون دموعهم، ويحدث هذا؛

لأنني أفكّر بها حين أغنّي، فيعتصرني الألم، والجمهور اللعين يعرف جيداً أنني أعاني. إذنْ؛ فأنا لا أكذب. ولا أقول أشياء، لا معنى لها. إنني أذرف الأغنيات، وأستجدي الخوف. طبعاً، أخاف أنني لم أعد قادراً على الإخلاص في حبّ مَن أحببتُ. هكذا تجري الأمور تماماً. أقف شامخاً على الخشبة، أقتلع مشاعركم من جذورها، أعبث بها، أحولّكم إلى أشلاء بدقّة القنبلة الموقوتة، أرسلكم إلى مستشفى المجانين، فأفخر بالقدرة على التلاعب بالقلوب الضعيفة، عدا قلب واحد: قلبي، الذي يستجدي تلك المرأة التي هجرتني، ولا يهمّها أن تعرف أيّ شيء عني.

لماذا؟ لماذا؟ إنني رجلٌ متّقد.

ولكن قصص الحبّ غالباً ما تجري على هذا الشكل. تهجرك حبيبتك، تلطم على صدرك كالغوريلا، تشعر بالإعياء، تضيق أنفاسك، وتزلزل الأرض من تحت قدميك، وها أنت تشعر بالوحدة كنموذج مصغّر عن الموت. ثمّ يمضي الوقت، وينسى الجميع ما كان.

أما أنا؛ لا أنسى. سحقاً! لا أقوى على النسيان! ولكنْ؛ لماذا؟ لماذا؟ أحمل على عاتقي ذكرى تلك المرأة كأننا في اليوم الأول، وما تحتويه من ودّ وعتاب وتعاسة وغضب وجنس ومحبة وآلام وأفراح ومعاناة. هكذا منذ سنوات!

حبّذا لو توقّفتُ عن البوح قبل أن يصل خبري إلى ريكاردو كوتشانتي، فيدمّرنا بأغنية جديدة.

لكنني لا أكفّ عن التفكير بها. أقف على قدميّ كأنني ملقيٌّ على الأرض، أرتجف، أرتعش، أتألم، أتجرع الكوكايين والنبيذ والبيرة والمشروبات الكحولية المكثفة والكوكتيلات والمقبلات والسجائر والدهون النباتية والحيوانية، لكن الألم يتضاعف حتّى يدفعني إلى حمل الصليب، والسير في درب الآلام، وأسأل نفسي أين هي الآن؟! لم أعد أعرف عنها شيئاً منذ وقت طويل.

وما الذي تعرفونه أنتم عنها؟ أيقونة الإغراء، دمية الفتنة، عذراء الزوابع الأبدية. كانت تجتاح روحي، فأشعر أنني مجرّد مهرّج بقربها. متوتّر وصامتٌ كالحمقى.

قبل أن تهبط على شواطئ جزيرة كابري، استطاعت على متن السفينة أن تدمّر أسطورة ريتا هايوورث التي باتت في الخمسينات رمز الأنثى المستبدّة بين ساحة البلدة ورأس تراغارا.

كانت بياتريشا كالملاك المجنّح، تطوف بخفّة وشرود وهي تنتعل حذاءها المنخفض. طول قامتها دقيق للغاية، كأنّ بيكاسو بنفسه قد رسم تقاسيمها قبل أن يفقد عقله. كانت تغيّر وجهتها بسرعة، وخطواتها رشيقة وشفّافة. وكنّا على طاولات الحانة نتبعها بنظراتنا حتّى آخر لحظة، ونشعر بتخبّط داخليّ خانق، ونودّ لو استطعنا أن نرمي بحبل رعاة البقر؛ كي نقبض عليها إلى الأبد، رغم يقيننا القاطع بأنها ستتملّص من الحبل بسلاسة متقنة، لتتابع سيرها المنساب على دروبها المتشابكة التي لم نكن نفهمها، فتتوسّع هالة الغموض حول وجهاتها.

لم نصادفها أكثر من ثلاث مرّات.

كلّ واحد منا كان ينتظر ظهور تلك الرؤية؛ كي يحظى بها، ويعرض عليها شيئاً ما في المقهى، أو زهرة، أو ابتسامة راجية، لكنها لا تظهر أبداً. لم نكن نراها على شاطئ البحر، أو في الحفلات، أو خلال سهرات العشاء الخارجية، ولم يجرؤ أحد منا على الاقتراب منها.

وسرعان ما أغشتني سطوة التفكير بها، وانعزلتُ في صمت كئيب ومزمن.

أمّا بيبينو دي كابري؛ أخذ يقفز من التوتّر، وراح يبكي ويقحم نفسه في مسالك خطيرة، لم تؤتِ أكلها، نظراً إلى أنه لم يكن يعرف الفتاة هو أيضاً. لكنه كان يكرّر على مسامعنا مراراً أنه أول مَن رآها، وأنه من مواليد جزيرة

كابري وأنبل نبلائها، لذا؛ فهو يستحقّها من حيث المبدأ. قرر أن يبحث عنها؛ لينتصر في منافسة، لم تكن موجودة أصلاً، لأنها كانت تجهلنا ببساطة رغم الحقيقة الراسخة بأننا، أنا وبيبينو وديمتري وآلدو وباتريسيو، المجموعة الأكثر شهرة في الجزيرة بأسرها، وكان بوسعنا اختيار أية فتاة نريد، عداها.

في ذلك الصيف، انغمس بيبينو قلباً وقالباً، جسداً وروحاً، في محيطٍ من التوتر والارتباك. كان يسرف في إعداد سهرات العشاء، ومواعيد الكوكتيل، والحفلات الموسيقية، وأعياد الميلاد، والسباحة على الشاطئ ليلاً، وسهرات الكشّافة، وتناول السباغيتي في السادسة صباحاً، والمكالمات العابرة للقارّات، وعقد روابط اجتماعية مع جميع الطبقات. كلّ هذا سعياً لمصادفة بياتريشا، لكنها لم تكن تأت إلى أيّ من تلك السهرات السخيفة، أبداً، كأنها منفية في قمّة جبل شاهق وعر السفوح. وكان يبدو أن سكان الجزيرة لا يعرفونها. فَنَمَت اللوثة في عقولنا إثر استحالة اللقاء بها. وبدأت الأساطير تُنسج حول بياتريشا لصعوبة منالها. وكي تفهموا مستوى الجنون الذي وصل إليه رفاقي، يكفي أن تعرفوا أننا لم نستغرب أبداً حين قال باتريسيو بأنها قد تكون مخلوقاً فضائياً. أخذنا رأيه على محمل الجدّ، ولم يخطر في بال أيّ منا أن يضحك، بل بدت فرضيّته واردة ومعقولة.

في أثناء تلك الأوقات، كنا في العشرين من أغسطس، وبيبينو يتراجع في الغناء، ووضعه يزداد سوءاً. وهي كانت في الجزيرة؛ لأن أحد الأشخاص كان يراها من حين لآخر، ويحدّثنا هذا الشخص عنها بنبرةٍ، تضخّم الأمور كما حين نتحدث همساً عن قصص الأشباح، أو مؤامرات الحب المفقود، وبتْنا عاجزين عن تصديق أحد.

راح بيبينو يهدّدنا بأنه سينتحر قفزاً من قمة الصخرة الشاهقة إن لم يتسنّ له، ليس الحصول عليها، بل معرفتها على الأقل. كان يريد أن يعرف اسمها في أقرب وقت ممكن. وهكذا خفّض بيبينو دي كابري من سقف توقّعاته. ووصل به الأمر إلى الهذيان بها، أقسم لكم بالمسيح! وأمسى يجوب محلات

اللحوم قائلاً إنها إنسان في النهاية لابدّ أن تجوع، فتبحث عن الطعام. لكنّ أحداً لم يرها تدخل أي محلّ. فاستنتج باتريسيو: «هذه المرأة لا تحتاج إلى الطعام. إنها تتلذّذ بتعذيبنا.»

لا ننطق إلا عبارات فصيحة حين نتحدث عن تلك المرأة. نتحول جميعاً إلى شعراء على حين غرة. لم نتفوّه يوماً بكلمات نابية، لم نعبّر يوماً عن رغبة جنسية، كما لو كانت هي الجنة بعينها، تلك التي نروم إليها، ما إن تصعد أرواحنا.

خلال الليل، كانوا يؤدون المشهد نفسه: يجوبون المراقص والنوادي بأجساد متهالكة، كأنهم نجوا من حادث جويّ، أعينهم جاحظة، ليس بحثاً عن مواد غذائية، بل عن تلك الإلهة الكابريّة التي ليس لها اسم ولا تاريخ.

شرع بيبينو، كأي عاهرة نفد صبرها، يُبحر على متن زورق كبير، ويندسّ في كل اليخوت التي يصادفها، وهو على يقين بأنها تختبئ هناكٍ بصحبة ملياردير بارز. وبسبب هذا الهوس الشديد، غارت على جلده عاصفة من الأمراض الجلدية كالطفح وغيرها. كان بحثه بلا جدوى، بل فقد بيبينو صوته؛ لأنه كلّما حلّ بيختٍ ما، أرغمه مستأجر اليخت على أداء أربع أغنيات على الأقل. وهو كان يغنّي ويغنّي؛ كي لا يظهر بمظهر التائه الولهان، وما إن تسنح له الفرصة يبحث عنها في كل مكان، حتّى في غرف البحّارة وطابق المحرّكات، متوهّماً بأنه سيعثر فجأة على الفتاة ذات التناغم الساحر، عارية ونائمة كالملائكة على سرير، تفوح منه رائحة الحبّ. لا شيء!

أمّا أنا؛ فكنت أُذبَح بصمت. وأحياناً أترنّح من الألم. استحلتُ كالطوق المتأرجح. أصبحتُ كحمّالة مفاتيح، تهتزّ على خصر حارس ليلي. غطس فيّ عجزُ الحب، كما يغطس المجازفون من قمة الصخور الشاهقة، لكنني كنتُ أتجنّب استعراض الجنونِ، كما يفعل بيبينو، والذي كما هو معلوم كان يخوض معركة للحفاظ على لقب زير النساء في الجزيرة. أما أنا؛ فكنتُ

مشدوهاً بها منذ الرؤية الأولى، وأقلعتُ باكراً عن البحث عنها؛ لأتسمّر في مكاني أعاني ما يكابده السجين المؤبد.

وفي يومٍ ما، أطلق الوغد ليلو دي كريشنسو، صاحب مطعم "صحن الصخرة" الشهير إشاعة ملفقة وقذرة، مفادها أنّه تعرّف إلى تلك المرأة، وأسماها آغاتا. أخبرته بأنها لا تفضّل الخروج أينما كان؛ لأنها كانت مدمنة على لعب القمار، فتقضي الأيام بلياليها في منازل الأثرياء الألمان، تلعب البوكر، وتربح دائماً، وكانت تدخّر مليار ليرة على الأقل.

لم يكن ينقص بيبينو إلا خبراً من هذا النوع! اللهم ارحمنا!

أرغمني على مدى ليلتين أن أعلّمه كل قواعد البوكر. وما إن انتهى حتّى شعر بنفسه على أهبّة الاستعداد، واستطاع بمعرفة أحدهم أن يُدعى إلى تلك القلاع الحصينة المكوّنة من طاولات خضراء، يجلس على مدارها ألمانٌ متعجرفون، أثرياءٌ ومدمنون على الكحول. لكن الألمان لا يقيمون اعتباراً لشهرة بيبينو في الجزيرة، ولا يمسحون مؤخراتهم بوجهه حتّى لو عن طريق الصدفة. كانت طاولاتهم الخضراء دوائر مغلقة، وينظرون إلى أيّ أحد لا ينتمي إليهم على أنه محتال، بغضّ النظر عن أصله وفصله. وكان الخدم يلقون به عند الباب بدقة متناهية. عرفنا لاحقاً ما الذي دفع ليلو دي كريشنسو للقيام بذلك. كان يحاول أن يتخلص من شلّتنا؛ كي يتحرك بحرّية في الجزيرة بحثاً عن تلك المرأة السماوية هو أيضاً. لكن بيبينو رشى بعض الخدم العاملين في منازل الألمان، ونكح بعض الخادمات أيضاً؛ ليستفسر عن هوية الأشخاص الذين يترددون إلى طاولات القمار في تلك القصور. لم يرشح عن التحقيقات أي إلهة بمواصفات بشرية. غزت البثور وجه بيبينو، واتجه إلى مطعم "صحن الصخرة"، وهاجم ليلو بشكل مريع أمام جميع الزبائن، وانتهى به الأمر في مستوصف طبي. إلا أنّه حال خروجه، عرج إلى بيت العمدة، وحصل منه على أمر بالطرد بحقّ ليلو دي كريشينسو. وهكذا حدث. طُرد ليلو من الجزيرة. فعلياً. إنني لا أتفوّه بالترهات لإضحاككم. يقال إن بيبينو، خلال نوبة غضب

عارمة، هدّد العمدة بأنه سيغيّر كنيته ما لم يوقّع على تلك الورقة الملعونة، وأنه سيكنّى باسم جزيرة بروشيدا، وسيشتري بيتاً هناك، وينتقل؛ ليعيش فيه. خذوا بالحسبان أنّ بيبينو في تلك الآونة كان نجماً ساطعاً في الجزيرة، وأنّ ثلث السياح يقصدون كابري فقط؛ ليشاهدوه يتبختر في الساحة، وفي يديه مشروبٌ كحوليٌّ، وبعض حبّات الفستق.

أصابني هذا الحجم من السخافات بالإرهاق العجيب. واتخذتُ قراراً كشف عن ذكائي الحاد، وحدسي الرهيب. انتقلتُ إلى فندق في حيّ آناكابري؛ حيث لا وجود للملذّات الدنيوية. لا وجود إلا لقليل من الأموات جوعاً الذين يذهبون إلى هناك، بقصد التوفير، أولئك الذين يتظاهرون بالنجاح على الصعيد الجنسي، ينتظرون مغيب الشمس بنفاد الصبر؛ كي يرتدوا الصنادل القبيحة والستر القميئة، ويتوجهوا إلى ساحة كابري لاهثين إلى مواعيد مصطنعة. ثمّ يعودون إلى آناكابري بيدين فارغتين، واحدهم يواسي الآخر، وينظّمون مشاريع جديدة للغد، يتضح فشلها في الغد، وهكذا دواليك حتّى نهاية الإجازة، حينها يصعدون على ظهر السفينة، ويقولون بوجوه خائبة، تنظر إلى الزبد: «في الصيف القادم سنذهب إلى مكان آخر.»

أدركتُ في تلك المناسبة أن بيبينو مصاب بتخلّف عقلي في ما يخصّ الحبّ. لقد قام ببحث مجنون عن بياتريشا مستنداً إلى مُسَلّمة خاطئة كلّيّاً، وهي أنّ فتاة بهذا القْدر من الجمال لابدّ أنها تتردّد إلى أجواءَ رفيعة المستوى، ولم يخطر في ذهنه أن يبحث عنها في آناكابري. وهكذا وجدتُ نفسي قبالة بياتريشا ببساطة لا مثيل لنزاهتها، ولو علم بها بيبينو، لسعى لطردي، ليس من كابري فحسب، بل من المجرّة كلّها.

كانت جالسة بارتياح في إحدى مقاهي أزقّة آناكابري، تقرأ الجريدة بهدوء، وتحتسي مشروباً ما. كانت مسترخية وصافية الذهن، بعيدة كل البُعد عن الخزعبلات التي ضيّع بيبينو والآخرون وقتهم من أجلها. وهذا ما جعلني أحترمها جداً؛ لترتقي بنظري إلى أعلى مرتبة إنسانية. أعلى من كل التكهّنات

والتوقّعات. رفرف قلبي، وتسارعت نبضاته. نبح كلبٌ خجولٌ في أحشائي. أذكر تلك اللحظة جيداً. كان المساء يدنو، والنسيم يُدلّك رئتيّ من عذاب كل السجائر التي دخّنتها حتّى ذلك اليوم. وكانت هي أمامي. منذ ذلك اليوم، وكلما هبط المساء، وأظلمت السماء انتظرت جواباً من نفسي، أو من أحد ما. كل يوم. ولا تصل الإجابة بالمقابل. لأنّ بحر الأسئلة ليس له حدود، ويضيّق الخناق أكثر فأكثر على يابسة الجواب حتّى يُغرقها. عدم التساوي بين الأسئلة والأجوبة هو ما يجعل كل خلية فينا تهرم وتتلف. إني متأكد من ذلك.

كانت أمامي، فراودني الحدس اليقينيّ بأنها ستكون لي، ثمّ راودتني سلسلة طويلة من الأحاسيس الدقيقة بكل مجريات الحياة. ستستحوذ عليّ التعاسة حتّى أحسبها حالة صحية، ثمّ تتلاشى التعاسة؛ لأن المجريات تفرض أن تكون التعاسة هدفاً بعيداً، وصعب المنال. تغادرك التعاسة فجأة، تلوّح بيدها كطفل صغير. لابدّ لنا من سلام داخليّ؛ كي تترسّخ التعاسة. لكن السلام الداخلي نفقده بغمضة عين عند إشارات المرور، أو في أحد المحلات. بقي صاحبكم المهرّج واقفاً هناك ينظر إليها. لم ترفع أنظارها إليّ. لكنني ظننتُ أن الصدفة تمنعها من النظر إلى جانبي، أو ربّما كانت مصابة بتصلّب العنق. ولعلّه تصلّب وراثي. نهضتُ عن الطاولة بطريقة طبيعية جداً، عبرتُ الشارع، ودخلتُ في باب صغير مطوّق بالأزهار ومزوّد بالجرس الصوتيّ. كان الجمال يعيش هناك إذنْ. كأنّها أكثر الأمور بديهية في العالم. وكان كذلك حقاً. حملتْ معها الجريدة؛ لتكمل قراءتها أمام النافذة.

رأيتُ كل هذا، وأحسستُ حقاً بأنّ قلبي هبط من صدري، ومشى على قدميه حتى وصل إلى بابها. لكنه لم يستطع أن يرفع صوته. ولم يعرف استخدام الجرس الصوتيّ. لأن القلب قصير القامة جداً. لا يصل حتّى إلى مستوى الزرّ.

فعلتُ ما قد يفعله أي رجل شجاع. جلستُ أنتظرها في مقهى الأمنيات، ذاك الذي تعدّه هي مقهى الإجازة المستحقّة.

ومشكلة الأناس الذين مثلي أنهم حين ينتظرون شيئاً ما لا يعرفون القيام بأي شيء سوى الانتظار. لا يستطيعون أن ينسوا الأمر. وهكذا فإنني لم أشرب شيئاً، لم أنظر حولي، ولم آكل، ولم أفكّر، إنما كنتُ أركّز النظر في ذلك الباب المزهر حصراً، بنبضات قلب متسارعة. كنتُ أنتظر أن تخرج بكل بساطة، كأنني إحدى النبيلات في سنّ الثامنة عشر، تنتظر مَن يدعوها إلى الرقص. كان عطري ينساب من عَرقي دون أن أعي ذلك، فكنتُ منشغلاً بالتفكير في عطرها... كانت قادرةً دون شكّ أن تُبطل مفعول أيّ لغم، قادرةً أن تفرض أوامر حاسمة على كوكبة الأحاسيس التي تراود الرجال، قادرة أن تضع النقاط على الحروف بعطرها، عطرها الذي كنتُ أتخيّله، ولم أكن أعرفه حينها. كنتُ على يقين بأن الإحباط غير موجود في قاموسها. أنا مَن عليه أن يرتّب أوراقه؛ كي لا أحبطها، لكنني لم أكن قادراً على وضع الخطط، لشدة التيه المحتم من ذلك الانتظار الذي لم يكن محبطاً في نهاية المطاف.

تجلّت أمامي، وكانت روحي تخوض غمار بحر هائج. لم نكن نعرف بعضنا، لكن ذلك اللقاء كان كالفصل الأول المنشود بعد أن تقضي وقتاً طويلاً في جمع الملاحظات. كانت الكلمة حاسمة: انطلاق. رحلة لا تعرف أنت وجهتها، إنما الإحساس بوجود دربين عليك أن تباشر واحداً منهما: إمّا الموت، وإمّا الحياة.

اتجهت نحوي دون هواجس خاصة تعصف بها. لم تكن تعرف أن مصيرها في طريقه لمواجهة مصيري. أما أنا؛ فكنتُ أعرف، ووحده الأحمق مَن يظنّ أن هذه نقطة، تُحسب لصالحي. عندما تتحسّس جراح الحب، فما من إيجابيات، لا غالب، ولا مغلوب. إنما حياة وارتباط أو موت وانفصال. وباقي ما تبقى لا طائل من ورائه سوى لتمضية الوقت، يجعل منك عقيماً فارغ اليدين في عالم من الأفراد الذين يريدون دائماً حيازة شيء بين أيديهم، والله أعلم لماذا!

جلست إلى طاولتها، ونظرت إليّ. ما يُربكك حتّى الاستفزاز في اللقاءات

الحاسمة هو أنك تفكّر دوماً في عدم قدرتك على الحسم. عدم الثقة المزمنة التي يزرعها أي شخص منا داخل ذاته تتحوّل إلى سرطان قاتل. وهكذا يحدث أنك لا تصدّق، ولا تقوى على التصديق. كانت هي تنظر إليّ كأنني الرجل الوحيد الذي يرغب في عناقها، كأنني الرجل الوحيد على وجه الأرض. وهذا ما جعلني كالغصن اليابس بعد مرور العاصفة. نظراتها الرقيقة والحازمة تقول لي إنني الضروريُّ في كونٍ مليء بالنمل الذي لا لزوم له. كانت سمات الخجل والوحدة تظهر في إجازتها، وتحترق بانتظار أن يملأ أحدٌ فراغها، وبسبب سذاجتها، لم تكن تعلم أن ما من رجل في أرض كابري، ولا في سمائها، لا يحلم أن يملئ فراغها. بل دخلوا من أجلها في صراعٍ أشدّ فظاعة من الحرب العالمية الثالثة، سوى أنهم لم يُحسنوا التصرف، أما أنا: فبلى.

كانت هذه ميزتي الوحيدة عن بيبينو وبقية الأصدقاء الذين أشعر الآن أنهم ثلّة من الغرباء والأغبياء المساكين. لم يكن عليهم سوى أن يصعدوا التلّة على بعد مائتي متر فقط؛ كي يحلّوا تلك المعضلة.

«لا أدري لماذا أجد من المستحسن أن أشاركك الجلوس على الطاولة نفسها».

هذه هي الجملة! الجملة المفيدة! تحسبون أنني أنا الذي تفوّه بها، وأنني كرّرتُها في ذهني مراراً خلال فترة الانتظار الشاقّة. ولكنْ: حمداً لله، كان هذا التحوّل الخطير، الذي يصعب سرده، بمثابة ترياق، يعالج كل تردّدي ومعاناتي. لقد كانت الحسناء مَن قال تلك الجملة.

لا يهمّ إن كنتَ شريراً، ربمّا ارتكبتَ مجزرة بحقّ أولادك، ولكنْ: حين تقول لك هكذا فتاة بمستوى جمالها، تشعر بأنك طيّب القلب وعظيم الشأن وفريد الصفات. ليست مجاملة بسيطة، بل كأن الله في يوم الحساب يغفر لك ذنوبك كلها، ويعيد لك الاعتبار قائلاً: «ها قد كتبت لك حياة جديدة». كنتُ أشعر بنفسي هكذا تماماً. أما في الواقع: فقد كان عقلي مخدّراً.

أصبتُ بالخرس جراء هذه الجملة، لم أعرف كيف أردّ، أنا الذي كنتُ ناجحاً نوعاً ما بلفظ الترّهات أو المجاملات أو بدء المحادثات التافهة. تحجّرتُ كلّيّاً مثل السحلية التي تتسمّر على جدار أبيض تحت الضوء. سلبتني الدهشة شخصيتي وتعبير وجهي. أصبحت مهرّجاً سخيفاً، لا معنى لوجوده. كنتُ أحسّ برائحة الإجازة فقط. هل تذكرون رائحة الأماكن البحرية والريفية؟ أو رائحة اقتراب هطول المطر آخر الصيف؟ تتذكرون بالتأكيد، فجميعنا يتذكر هذه الروائح. هذا ما كنتُ أحسّ به. عطرٌ زكيّ من بين العطور. رائحة عشق بين اثنين، يرتبطان إلى الأبد. كانت ترمقني بنظرة بدائية، تنتظر مني جواباً على دعوتها، وتعطيني الإحساس بأنني أستطيع أخذ كل الوقت الكافي للتفكير، فالوقت كان في كفّتنا، الزمن يخضع دوماً لصالح العاشقين. لكنني كنتُ متسمّراً من هول السعادة، لم أكن أريد لتلك اللحظة أن تنتهي، أبداً. باختصار، كنتُ واقعاً في غرامها، وكانت تلك المرّة الأولى التي أعشق فيها بشكل جدّي.

لا تتركوني أستمرّ في قصّ هذه الذكريات، أرجوكم! أشعر بالموت يعربد في حلقي. تلك الذكريات هي الموت بالنسبة إليّ، ومع ذلك لا أستطيع نسيانها. حُكم عليّ بالإعدام شنقاً بهذه الذكريات منذ وقت طويل.

كلّما مرّت الأيام، كثرت مناسبات عُرْينا. وهكذا تعرّت هي أيضاً، كي تذبح رغبتي في الجنس تحديداً. شعوري بالرغبة عميق جداً، لدرجة أنني أتصبّب عرقاً بارداً، وتصيبني القشعريرة حتّى لو كنتُ تحت حرارة، تفوق الثلاثة مائة وستين درجة مئوية، كأنني شفرات لولب مجنون. كان عليّ أن أتزوّد بالأملاح المعدنية والكربونية؛ كي يتسنّى لي الوقوف على قدميّ مجدداً؛ إذ إنّ ما تجلّى أمام عينيّ كان يفوق طاقة رجل واحد، وبالأحرى كان فوق طاقة كل رجال هذا الكوكب. ورغم أنني محظوظ ومميّز، كان عليّ أن أعتاد على ممارسة الجنس مع ذلك الجسد الذي لا تعطيه الصفات حقّه. واعتدتُ.

وكانت النشوة الكبرى.

قضينا أياماً نمارس الجنس، ونحتسي كؤوس الهناء والغرام، بما يملأ روايات عاطفية لألف سنة قادمة.

كانت بياتريشا تعمل مدرِّبة للرياضة البدنية الخفيفة، والقفز بالزانة. لا أريد أن أكون عنصرياً، أو مسيئاً، بحقّ أحد، إنما أودّ أن أكون واقعياً. كاذبٌ مَن يقول بأنّ ممارسة الحبّ مع النساء الجميلات والمثيرات يشبه ملامسة سقف السماء، فمَن لم ينكح رياضية محترفة، لم يمارس الجنس في حياته كلها. وفي هذه الحالة، بوسعنا أن نتجاهل التقييمات، ونعدّ مغامراتنا الجنسية ما هي إلا قبلات بريئة، نتبادلها مع أفراد العائلة. إن المرأة الرياضية لا تمارس، بل ترقص الحب بما يتعدّى حدود مخيّلتنا الغضة، ويرمي بنا في هوّة اللذّة المطلقة التي لا قرار لها. هذه هي الحقيقة. وفي أثناء الأيام العشرة الأولى، ربّاه لا ينبغي أن أبوح بهذه الذكريات، عموماً، في الأيام العشرة الأولى، كنتُ أبكي حين أبلغ الذروة. أمر شنيعٌ حقاً. وكانت تضحك من بكائي، وسرعان ما تشاركني البكاء هي أيضاً. دموع الفرح. هذا ما نسمّيه بالحميمية، الموسومة بالعاطفة والقرف التي يتقاسمها الجميع عدا أولئك الذين يهدرون عمرهم في أداء دور البطولة.

فلنكن صادقين! مَن جرّب هذا النوع من العلاقات في الكون برمّته؟ لا أحد تقريباً.

كنتُ رجلاً محظوظاً بكل المقاييس.

كانت بياتريشا قادرة على تعريتي، دون بذل أدنى جهد، وأنا الذي كنتُ مدرّعاً بكل زيف هذه الحياة التي أعرفها جيداً، وأتهكّم من أي شيء حتّى تلك اللحظة، أستخفّ بقيمة المشاعر الثاقبة. حين تبكي أمام المرأة لا يمكنك الرجوع إلى الخلف بعد ذلك. تحكم قبضتها عليك إلى الأبد، لتجد نفسك في براثن الخطر. لا يمكنك المناورة، وتفقد قدرتك على تصنّع ما لا يمتّ لطباعك الحقيقية بصلة. تتهاوى هيبتك. تسقط الأقنعة. ويصبح الحبّ كالصليب المؤلم الفتّاك.

إلا أنّ كلّ هذا كان مآله الفشل حمداً لله. ووقعتُ في الفخ هي أيضاً. أجل لقد كنا عاشقين، ولكننا نزلنا السلالم مكرهين حتّى وصلنا إلى الدرك الأسفل من مساوئ الحياة اليومية. وإنني في هذا الدرك الأسفل أصبح كارثة كبرى، ورجلاً قذراً ووقحاً بلا معنى. لكنها - أيضاً - ارتكبت الذنوب. ولم أسامحها على ما ارتكبت. خانتني. نظراً إلى كونها تفوق طاقة رجل واحد. خانتني؛ لتثبت صحة نظريات ريكاردو كوتشانتي، هذا المطرب الذي فتح ما لا يقلّ عن اثني عشر حساباً جارياً، وادّخر المليارات في أكثر من مصرف في العالم، بفضل موضوع الخيانة الحاضر دوماً في أغنياته كلها. ثمّ أرادت أن تعود إليّ، وعيناها تغرورقان بالدموع، وكان لون هذه الدموع مختلفاً عن تلك التي كنا نذرفها سويّاً حين نبلغ النشوة في الأيام الأولى. كانت دموع عودتها تُطمئن الندم في كلامها. وحينها تظهر عزّة النفس فجأة؛ لتلعب دورها، بأسوأ ما يمكن، بأداء رديء، تحسبه حقيقياً، فتفسد كل شيء. يا لعزّة النفس، ما أفظعها! يا لها من ستار أسود وشفّاف يغشي بصرك، ويعمي بصيرتك! أنت تبحث عن البحر، وعزّة النفس تجرّك إلى المستنقع.

بإيجاز، وبأسهل ممّا نتصوّر، سقطنا من السماء؛ لندردش مع حارس البناية، ونتقاسم معه الحياة والاشمئزاز من رائحة القرنبيط المطبوخ. أنا تصرفتُ، كما تصرفت، ثمّ حدث ما حدث، حدث ما لا يُقال، لا تدعوني أتكلّم... لا تجعلوني أحسّ بالألم. فأنا لا أستحقّ ذلك، منذ ذلك الحين، وأنا أتساءل أين بياتريشا؟

«أين أنت، يا بياتريشا؟»

أود أن أصرخ بهذا السؤال على الملأ. ولكنني أرجوكم أن لا تدعوني أتكلّم.

أنا - بالتحديد - لا أقوى على قول ما لا يُقال.

-٥-

كلّهم يصبحون أبطالاً، حين يبتغون شيئاً ما

باتي برافو

يصفعني رينو بابالاردو بهذا الخبر، عن قرب، وهكذا دون مقدمات، بأن ابنه توفيّ بين فخذي زوجته. لقد وُلد ميتاً. يقول لي هذا، ويبكي. وبينما يبكي، أنا لا أبكي.

نحن جالسان على الحشائش السخيفة، بجانب السيارة مفتوحة الأبواب، نرتدي المعطف الثقيل، والصقيع يجمّد الدماء في العروق، ونمسك قنينة شمبانيا، وكأسين نصف ممتلئين من ذلك المشروب المذهّب؛ كي نحتسي النخب.

فإذا برينو يطعنني بهذا الخبر الصاعق في بطني. وما الذي يجعلنا نحتسي النخب، يا رينو؟ أسألك دون أن أوجّه كلامي إلى أحد، ولا إليك أيضاً.

الساعة الآن الثانية عشرة وعشرين دقيقة. ٣١ ديسمبر من عام ١٩٧٩ يقلب هذا اليوم صفحته بمفرده؛ ليفسح المجال لأول يوم من عام ١٩٨٠. نحن في شارع الضاحية ٢٣، على بُعد مائة متر من الطريق السريع. آ ١٤ للدقة. مَخرج سان بينيديتّو دل ترونتو. كنا قد أحيينا حفلاً حتّى الحادية عشر والنصف في أحد محلات شيفيتانوفا ماركه. ونحن الآن في طريقنا إلى آسكولي بيشينو؛ لنغنّي في الساحة. نحن نعمل بالمحصّلة. منذ عشرين عاماً، وأنا وفرقتي نعمل في سهرة رأس السنة، وفي كل مرّة، نحتفل بأول دقيقة من العام الجديد هكذا، في السيارة، بين حفلة وأخرى.

هنالك غابة صنوبر بقرب الشارع، لكنّ هذا لا يهمّني نهائياً، فصديقي رينو باباالاردو يعاني. أعرض عليه واحدة من سجائر الروثمان الخفيفة، فيأخذها، وأشعلها له بالولاعة. ويكرّر على مسامعي بصوت خافتٍ منهار:

«هل فهمتَ، يا طوني؟ لقد وُلد ميتاً». يتفوّه بهذه العبارة للمرّة الثانية، هامساً، وتتضاعف شهقاته. وأنا لا أقوى على أن أحيد نظري عن كأس الشمبانيا التي يحملها بيده.

لقد وُلد ميتاً. التناقض في أعتى أشكاله. حقاً إنّ لكل إنسان آلامه. الجميع يتألمون. حتّى أسخف البشر وأشدّهم غباء وإثارة للاشمئزاز لهم آلامهم. وهذا ما يكفي لينال احترامك. تنتابك رغبة باحترام جميع البشر حين يقصّون عليك آلامهم. لكنك لا تحتمل نوبة الاحترام هذه طويلاً، وسرعان ما ينقضّ عليك اللؤم، ويستحوذ على ذهنك، كصوت المكنسة الكهربائية، كتتريّ يتجرّع الكوكايين. اللؤم يحضّر لك الكمائن الليلية، يسطو عليك، يعتدي عليك، ويغتصبك، وينهب أثاث روحك؛ ليترك لك مزيداً من الفراغ، مزيداً من الفراغ الملوّث بالإحساس بالذنب.

وأحياناً بإمكانك أن ترى إحساسك بالذنب، يرقد متيقّظاً على الدُرج قرب سريرك، كل ليلة تقريباً، مغلّفاً بأفخر الطرود ذات اللون الأسود والقشرة الفضية.

كم كنتُ لئيماً في بعض الأحيان!

«وكيف حال ريناتا؟» يبدو لي هذا أفضل ما أقول في هذه اللحظة.

«بلا حولٍ أو قوة» يجيبني بما قلّ ودلّ. كأنه يوجّه إليّ لكمة قاضية. أكاد أموت من فرط التأثّر والشفقة. عائلةٌ مسكينة تحلم بطفل، فيحلّ بها هذا العذاب. يا إلهي! لا أحتمل هذه المشاعر. من أين تتدفّق عليّ كلّ هذه الإنسانية؟

طغى صمت طويل، يتخلّله وميض أضواء السيارات، ثمّ يقول رينو:

«هل فهمت؟ تفكّر في معنى الحياة. ما معنى الحياة؟ تفعل كل هذا، وتتعب، وتكدح، وتنشغل قلباً وقالباً، بمفردك، أو بصحبة أحد آخر، وقد يأتيك الموت في أرذل العمر قبل أن تجد إجابة عن هذا السؤال. وبإمكانك أن تجد إجابة في قول مأثور، كما يفعل تيتا. بودّي لو أفعل مثله، لكنني لا أصدّق الأمر كلّيّاً. وأعود - دوماً - إلى نقطة الصفر. ربّما كان الإيمان هو الحلّ...»

«هراء» أقاطعه «وهل لديك الوقت للإيمان في هذه الحياة التي نعيشها؟... الإيمان هواية لقضاء الوقت، يزاولها أناسٌ، لديهم وقتٌ فارغ.»

لا يجيبني. يتمعّن في الأمر. لا يبكي. الجوّ بارد.

ثمّ يهزّ رأسه، لكنه يفكّر في زوجته. أعرف. أشعر بذلك.

«هل تريد أن تشمّ؟»

«أريد أن أموت» يقول.

عيناه جاحظتان. يحدّق في الفراغ. إنه عمليّ مع نفسه. يدرس الخيارات. يفكّر في الاستراتيجيات. إنه يفكّر في الحياة، وليس في الموت.

يظهر جيني أفروديت، مدير أعمالنا، من غابة الصنوبر المظلمة، مسترخياً، كفلاح متيقّظ، يعرف الحقل جيداً. أنظر إليه، يتجه نحونا.

«أين كنتَ؟» أسأله.

«كنتُ أتغوّط» يجيبني بنبرة ماكرة وابتسامة، متّجهاً نحو السيارة. لكنني لا أصدّقه. أعتقد أنّ هذا الرجل مدمن على الهيروين، ولهذا السبب اختفى في الغابة. رينو لم ينتبه لوجود جيني مطلقاً، منشغلاً بأفكاره. لابدّ أنه عمليٌّ مع نفسه، كما كنتُ أقول. ولكن جميع أعضاء الفرقة شبه متأكدين منذ أشهر بأن جيني متعلّق بالهيروين. إلا أنّ أحداً لا يتحدث بالموضوع. ومَن يدري

لماذا؟ فنحن نتعامل معه بجدّيّة ونزاهة في كل الشؤون الأخرى، وهو أصغرنا سنّاً وأكثرنا تكتّماً وخصوصية. يعيش معنا أربعة وعشرين ساعة في اليوم، ولا يبوح لنا بشيء أبداً، لا نعرف ماذا يفعل، يمارس الجنس، أم لا يمارس... لا شيء! ولكننا لا نطالبه بتوضيحات عن شكوكنا بالهيروين تحديداً، ومَن يدري السبب؟! وإن كان يتجرّع الهيروين حقاً، فتُحنى له القبعة لبراعته في إخفاء سرّه، فهو دائم اليقظة، دائم الحضور، لا يشرد في شؤون العمل أبداً، إنه محاسب ماهر، وعيناه لا تخطئان أبداً. وهكذا يستغلّ اطمئناننا؛ ليختفي من حين لآخر، بلا سبب. وحيال مشكلته، اتخذنا شكلاً غريباً من أشكال التحفّظ، متذرّعين بأنها مشكلته الخاصة، شؤونه الخاصة.

حسناً، فلنمضِ إلى الأمام.

استلقى الصديقان اللدودان، تيتا وجينو، على مقعد السيارة الخلفي مثل سنجابين شقيّين، ينظّمان مشروعاً لهذه السهرة. هذا الثنائي، سنجب وسنجوب، بالتجاعيد المبكّرة على وجهيهما، لا يتحابّان إلا في رأس السنة، ولا يتجرعان الكوكايين إلا في هذه المناسبة، ويضحكان كالمهابيل في انتهاك واضح لأعرافهما الشخصية. منظرهما يزعجني. وبالطبع أنا الذي أجود عليهما بالغبار الأبيض. فالزعيم ذو السلطة المطلقة يُحسن على أتباعه بين الفينة والأخرى، فيذلّهم بكيس أبيض صغير، ويرسّخ المراتب بينه وبينهم. لكنهما لا ينتبهان إلى أنني أذلّهم. يا لهما من أحمقين!

يصل المرء إلى ساحة آسكولي بيشينو الصغيرة المشيدة خلال العصور الوسطى، ويقول: «يا للروعة!». ما هذا الكذب والتزلّف؟! هذه الساحة لا تترك لديّ أي انطباع. إيطاليا بلدٌ كئيب وغارقٌ في الرتابة. والعصور الوسطى تُشعرني بالغثيان. كل الساحات متشابهة، الشوارع متشابهة. والأرصفة تحت الأقواس اللعينة في هذه المدينة الباهتة، لا تميّز بين قوس وآخر، تمرّ من تحتها، فلا ترى ماذا يحدث على الجانب الآخر. وبينما ينعم الناس بالتنزّه في ظلالها، أُصاب برهاب الاحتجاز.

ما الذي يحدث في الخارج؟ لا شيء، على الأرجح.

والمتاحف التي تعرض اللوحات التافهة تُكئبني حتّى التفكير بالانتحار. لا شيء يُكئبني عملياً، كما تفعل المتاحف السخيفة في إيطاليا. ورؤساء البلديات المتخلّفون عقلياً، الذين يستقبلونك واللعاب يسيل من أفواههم، يفرّغونني من حسّ التمييز، كلّهم متشابهون، يحرصون على سمعتهم المحلية، وفي أوقات فراغهم يعملون كأطباء بيطريين وأطباء متخصصين ومديري فروع مصارف مشكوك بنزاهتها، لدى جميعهم طفلان صغيران، ويرتدون ربطة العنق غير المناسبة. اسمعوني، أليس من الأفضل لكم أن تموتوا؟

وحدها مدينتي ما تزال تحافظ على أبسط معاني الجمال بإطلالتها الفريدة على البحر الواسع. تعطيك الإحساس بأنك تستطيع الهرب منها، إن أردتَ، ثمّ لا تهرب منها أبداً. ولكنْ؛ بإمكانك أن تجرّب، فإفريقيا تقع على جنوبك، واليونان على يمينك، وجبل طارق على يسارك بكل ما تحتويه أسواقه من السلاح والمخدرات والعاهرات. جبل طارق عبارة عن جنّة حقيقية. قلّة من الناس يعلمون هذا. لقد زرتُ جبل طارق لأسباب شخصية، ورأيتُ فيه العجب.

ماذا كنتُ أقول؟ آه، تذكّرتُ. كنتُ أتحدث عن تلك الهاوية العميقة المليئة بالتفاهات، أو ما يسمّى بساحة آسكولي بيشينو. هنا حيث المواطنون جميعهم مراءون، يلبسون الثياب التي يجدونها على واجهات المحلات، بتلك المجوهرات الرخيصة والبزّات الرديئة التي تصنعها الخياطة أم ماريا.

الحياة في ضاحية نائية يشبه السجن المؤبّد في زنزانة مظلمة. فكيفما قلّبتَ وجهك ارتطمت دوماً بالوجوه ذاتها التي تعرفها منذ ولادتك. لابدّ أن الحياة صعبة على الأهالي هنا، وفظيعة أيضاً. ولا أحد يخبرك بالحقيقة: الأطفال في الساحة في غاية البشاعة حقاً، مشاكسون ومجانين، يركضون كمَن تلبّسه الجنّ، فيعلو صراخ الأمهات كأنهنّ في جلسة لطرد الأرواح

الشريرة، ولكن هؤلاء الممسوسين في حاجة إلى أسقف قادر على قهر إبليس الذي يدفعهم على اللعب والركض كالشياطين. ولابدّ أنّهم اختاروا أغبى الأبالسة على الإطلاق. ولكنْ؛ لا بأس بالأمهات، أوافق على هذا، فالنساء في آسكولي أقل عهراً من نساء البندقية، وأكثر منهنّ ضياعاً وجمالاً. لا تاريخ لهنّ، فلا تستطيع أن تتكهّن بما يمرّ في رؤوسهنّ. ومن جهة أخرى، فإنّ العفّة تخفي دوماً إفراطاً في العهر، لا يُكبح له جماح. وهذا ما يهمّني؛ إذ لا أسوأ من رجل عفيف، وامرأة طاهرة.

إنني نادم على المجيء إلى هنا، اللعنة! أنا لا أستحقّ هذا السقوط الحرّ من نيويورك إلى آسكولي بيشينو مباشرة. لكننا ملتزمون بهذه الحفلة منذ وقت طويل، قولوا عني ما تشاءون، لكنني مطرب محترف. ولطالما احترمتُ مهنتي.

وها نحن ذا نفرقع على مسرح هذه القرية النائية. أخجل أن أسمّي ما نقوم به بالحفلة الغنائية في الواقع، إنما خليط قذر من النشاز والعثرات، بسبب الأحمقين جيتو وتيتا اللذين ما انفكّا يقهقهان من خلف آلاتهم الموسيقية. كيف من الممكن أن يؤثّر فيهما الكوكايين هكذا؟ لعلّهما يحسبان الكوكا كالماكونيا، الحشيش البرازيلي، الذي يحفّز فعلاً على الضحك حتّى الإغماء، ويسمح لك بهلوسات طريفة. وأنا - بدوري - لا أشعر بصوتي، وكلّما أردتُ أن أتفادى الخطأ، أقول في نفسي: «إلى جهنّم!»

إلى الجحيم بالفعل. لا ينقصني الآن سوى أن يستمتع هذا القطيع التافه، فيعبّروا عن رأيهم أيضاً. ثمّ إنهم لا يجرؤون على انتقادي حتّى لو أرادوا؛ لأنني أقف أمامهم بشموخ، يُلزمهم باحترامي. فأصداء حفلة نيويورك وصلت إلى هنا أيضاً.

تحدثت الجرائد عني في أكثر من ثماني زوايا، كأنهم يتحدثون عن أميريغو فيسبوتشي.

إنهم منشغلون في الإصغاء، ولكنني - فجأة - أصاب بسهام الوحدة القاتلة من رأسي حتّى أخمص قدميّ. أكتشف أنهم لا ينظرون إليّ، بل ينظرون إلى العرض.

والآن أتمنى أن ينتهي هذا العذاب مبكراً؛ كي أذهب لتناول العشاء. فقد حدّدت موعداً مع الثنائي "كينغ سينغر" في مطعم، يحضّر السمك، ويبدو مطعماً محترماً. الثنائي هنا أيضاً، غنّيتا قبلي. وأنا أهيم ولعاً بهاتين المغنيّتين الخلاسيتين وجمالهما الفتّان فوق العادة، وإنني أجدهما غايةً في خفّة الظل أيضاً.

فالمزاج الصافي له متطلّباته. دوماً.

إنهما أنثيان رهيبتان، ويجعلانك تضحك من قلبك. إنهما عبارة عن كوكتيل عجائبيّ مفعوله أقوى من أنقى أنواع الكوكايين الفنزويلية.

أنطونيلا تضع في فمي صَدَفة بمرحٍ وشهوانية، وتهمس في أذني: «ما رأيك؟»

«لذيذة جداً، ولكنك ألذّ منها وأشهى.»

«يا لك من خنزير قذر!» تقول بصوت مرتفع، وهي تضحك.

ضحكة أنطونيلا رهيبة، تبدو كأنها بافاروتيّ حين يغضب من زوجته؛ لأنه لا يجد السروال النظيف. ضحكة أنطونيلا ذات بأس وسطوة.

هند، أم أنطونيلا، تغنّي في كل مكان بعصبية شبقية، تغنّي كأنها في حالة مخاض، ولكثرة ما غنّت، على امتداد خمسة عشر عاماً، أنجبت أنطونيلا كثمرة جماعٍ قصير خلف مضخّمات الصوت في سالرنو. وإن كنت لا تعرفهما تحسبهما أختين. يرافقهما الحسّ الجنسيّ والإهمال المصطنع في كل مكان، فيجذبان كل نظرات العالم النشيط.

هند وجيني يجلسان على الطرف الآخر من الطاولة، يتكلّمان بتركيز وصوت معتدل عن العمل والمشاريع. يفكّران في المستقبل. ولهذا أنا وأنطونيلا نتجنّب الحديث معهما، فنحن نريد أن نستمتع، ونلهو. فالليلة رأس السنة، اللعنة!

«أرغب أن أتعاون معك في تحضير قرص غنائي، يا أنطونيلا، ثمّ نقوم - بعدها - بجولة من الحفلات، لا لشيء سوى لتبقي بقربي لأيام وأيام» أقول بين الجدّيّة والمزاح.

«وماذا نغنّي معاً، يا طوني؟ أنا مغنّية روك.»

«وما العيب في هذا؟ هل أنا خرائيٌّ لهذه الدرجة؟» أصرخ بودّ.

فتضحك طويلاً، وتضع يدها بأخوية على فخذي. آخذ سمكة من طبقي، وأضعها في فمها.

«التهمي هذه السمكة»

أنطونيلا تضحك من أي شيء، وتبتلع السمكة بمرحٍ، ثمّ تتبعها بتنهيدة إباحيّة مصطنعة، لكنها تثيرني كثيراً. تنظر إلينا هند من الطرف المقابل، وتكلم جيني ممازحة:

«انظر إلى هذين الأبلهين. كأنّ واحدهما خُلق للآخر»

يرفع جيني كتفيه، ويبتسم باستعلاء يعجبني، ولستُ أدري لماذا.

«هل سمعتِ ما تقوله أمك الغالية» أقول لأنطونيلا «تقول إنّ واحدنا خُلق للآخر. تزوّجيني، يا أنطونيلا العزيزة، ولن تندمي. وكلّ خيرات الله هذه التي ترينها ستكون لك مجاناً.»

«لكنك متزوج أصلاً!»

«لا تذكّريني بهذا حبّاً بالله. ليس في رأس السنة، على الأقل.»

يمرّ النادل قربنا، فأمسك بياقة قميصه.

«لم أفهم» أقول له بعدوانية «متى تأتوننا بالزيتون الآسكولاني؟»

«نحن لا نقدّم الزيتون الآسكولاني، يا سيدي.»

«لا تقدمّون الطعام التقليدي، ها؟ هكذا ستفلسون. مَن تظنون أنفسكم؟»

تضحك أنطونيلا بشدة؛ ليصاب جارنا على الطاولة الأخرى بالطرش. يأتي نادلٌ آخر؛ ليضع قنّينة النبيذ الأبيض الحادية عشرة على طاولتنا. أسكب في كأسي، وأرفعه للنخب.

«بصحّتك، يا أنطونيلا، وبصحة نهديك اللذين أتحدث عنهما باستمرار مع أصدقائي. نهداك يجعلان أيامنا أقلّ ضجراً وإرهاقاً»

تنفجر أنطونيلا ضاحكة؛ لتثقب آذان الجميع، وتعدّل نهديها بيديها قصداً. فأسقط من الشغف، وألثم الشقّ الذي يغفو بين نهديها المنتفخين، شقٌّ يبدو كشلالات نياغارا. وادٍ بعمق مائة متر. نتعانق وأعيننا تغرورق بدموع الضحك، ونشرب برشفة واحدة الكأس رقم ١٢٠ من نبيذ هذه السهرة. أترنّح بين أنهار الخمر وجنّات العنب، بصحبة صديقتي.

«ألا تريد التبول، يا طوني؟» تسألني.

«بل كأنك سرقتِ الكلمات من فمي.»

ننهض، ونذهب إلى الحمّام. أتأرجح وسط المطعم، وأصطدم ببعض الناجين من عشاء رأس السنة وطعام القائمة الطويلة المخيبة للآمال. لكنني لا أعتذر من أحد، لا يحلو لي بصراحة. نمسك أنا وأنطونيلا بباب الحمّام كأننا غريقان. وتلقائياً أتجه إلى مراحيض الرجال، وهي إلى مراحيض السيدات.

أغسل يديّ على المغاسل المشتركة حين تخرج أنطونيلا أكثر خفة ورضا. وقبل أن ألتفت إليها، ويداي مبلّلتان، أقول لها بنبرة جدية للمرّة الأولى:

«لا تعيري اهتماماً بالمكان، يا أنطونيلا. فكل الأماكن ملائمة.»

تفهم أنطونيلا الرسالة. تسكت. ألتفتُ إليها. فترنو إليّ بنظرة مختلفة، ترفع سبّابتها بتهديد مزيف نحوي، وتهمس: «لا تجعلني أرتكب حماقة، يا طوني.»

قُضي الأمر! من البديهي أنني لو ترددتُ لحظة واحدة، لما كان اسمي طوني باغودا غاوي النساء بلا منازع. أحيط بجسد أنطونيلا بدون أي انفعال، فترتخي بين ذراعيّ. يرتبط لساني بلسانها، وأقبض على نهديها بيديّ المبلّلتين بشراهة سوقية، كما ينقضّ أطفال العالم الثالث على حساء الخضار. تنفصل عني بعد قليل، وتكرر على مسامعي وهي ترفع سبّابتها:

«لا تجعلني أرتكب حماقة، يا طوني، فأنا مرتبطة.»

وتنصرف بسرعة من الحمّام وآثار البلل ما تزال على منطقة الصدر في فستانها. ارتكبت الحماقة بأي حال، وصار بوسعي أن أنشّف يديّ أيضاً. أنظر إلى نفسي في المرآة بجسارة، ها أنا مستعدّ لإعطاء الدرس رَقْم واحد عن الإغواء.

الدرس رَقْم واحد عن الإغواء

الإيقاع

أتوجّه بالحديث إليكم، أنتم الذين مثلي لا تتمتّعون بالوسامة، والذين تمرّ الأنثى بجانبكم، فلا تهيم على وجهها في حبّكم، وربّما لا تنتبه إلى وجودكم أصلاً. من الواضح - يا أعزّائي - أنه لا يسعكم إلا الاستعانة بسلاح واحد، لكنه فتّاك يهدّ الجبال: الكلمة.

بإمكان الرجال الوسيمين أن يعفوا أنفسهم من هذا الدرس، فهم في منأىً عنا، اللهم لا غيرة ولا حسداً! تراهم يقفون متسمّرين، فتركض النساء خلفهم، لا يترتّب عليهم القيام بشيء، ينعمون بالسلام، ويتغذّون على صفة الوسامة، لا غير. ولا أنكر أنكم تتمتّعون بالملامح الجميلة، ولكنْ: ما الذي يحدث حين لا تطوّرون الهبات الأخرى مرغمين؟ يحدث أنكم تتحوّلون إلى رجال تفّه، وبلا معنى، ليس لديكم حسّ الفكاهة؛ لأنكم لا تضطرون إلى استعماله أبداً، ولا تشغلون عقولكم بهاجس الاستحواذ، وهذا ما يجعلكم شيئاً فشيئاً أشباه رجال، بلا همة وعزيمة. أبعد ما يمكن أن يصل إليه نشاطكم هو تلك النظرة الضبابية المصطنعة. إنكم تثيرون الشفقة، ولا أعلم إن كان عليّ أن أضحك أم أبكي عليكم. أنتم لا تهمّوننا، فاذهبوا إلى ضبابيتكم الخرائية.

هنالك بعض الاستثناءات، لا أخفي ذلك نظراً إلى أنني أعمل فيلسوفاً في هذه اللحظة. الاستثناء هو أستاذي المايسترو ميمو ريبيتو الذي لم يتوقّف عند حدوده وسامته الفتّانة، وراح يطور بجهد حثيث قدرته على الإثارة والإغراء، بدهائه الحادّ وأغنياته الرائعة. إن ميمو ريبيتو رجل قد تكبّد الصعاب، ولا يعتمد على وسامته بالدرجة الأولى. لكنه استثناء.

فلنعد إلى موضوعنا.

لا يكفي أن نتكلّم بطريقة جيدة.

قد نلتقي أستاذاً جامعياً، وهذا نوع من الرجال يحترفون الكلام، وكيف لا، لكن الدردشة معهم أقرب إلى الغوص تحت الماء، حديثهم يضيّق الأنفاس، يخلو من أي طلاوة، ويستحوذون على النقاش مثل سلاسل القديس أنطوان الذي يمسك بها بمفرده؛ أي أنهم لا يمرّرون الكلمة، تماماً مثل الأطفال الوحيدين حين يلعبون بالكرة. ويحدث أنّ المرأة، بعد الفصل الثاني من خطاب الأستاذ، وحتّى لو كان الموضوع يهمّها، تحتار ما بين الموت من العذاب أم الضجر. يظهر توتّرها على ساقيها، تحرّكهما بعصبية المصابين باضطرابات الصرع، كالمحاصر في وسط مدرّجات السينما، لمتابعة فيلم سخيف للغاية. وفي تلك اللحظة لا يشغل بالها إلا التفكير في أمر واحد: كم الساعة. اطمئنوا، أيها الأذكياء المتعجرفين، فهي تود أن تنظر إلى ساعة معصمها، لكنها تشعر بالإحراج منكم. فترمي بأبصارها إلى ساعاتكم، ولسوء حظها تكون الساعة مقلوبة على الجانب الآخر ممّا يزيد اضطرابها. وإنني أعلم أنكم في تلك اللحظة تشعرون بالفخر ظناً أنها تمعن النظر في أياديكم، وتتمنى أن تداعبوها بتلك الأيادي الجميلة والثخينة المليئة بالزغب والحكمة. وهي في الحقيقة تشعر بالغثيان من أصواتكم القبيحة ونبراتكم البطيئة والمحزنة، تارةً تبدو لغول المغارة، وتارة أخرى للوطيّ منيوك، حتّى تتملّك القليل من الشجاعة، وتسألكم: «هلا قلت لي كم الساعة؟»

وأنتم لا تعترفون بهذا أبداً؛ لأن نفوسكم حقيرة، يا متصنّعي الذكاء، لكنها الحقيقة.

كلّ هذه المقدمة كي أقول لكم إن كلامي ليس موجهاً لا للرجال الوسيمين، ولا لأولئك المفكّرين من الدرجة الثالثة. ماذا يبقى؟ القليل من الخطط والقليل من الحظ.

في البداية، أن تتفوهوا بأعظم فكرة سخيفة قيلت خلال هذه الألفية خيرٌ من الخضوع للقواسم المشتركة. إياك أن تتكلم بالقواسم المشتركة. تبدو ملاحظة تافهة، لكنها ليست كذلك، نظراً إلى أننا حين نُعجب بامرأة ما؛ تحلّق مشاعرُنا فوق الأثير، وحين نتصرّف بهذه الطريقة لا يسع العقل إلا أن يفكّر بالعبارات الجاهزة. وكلما تفوهت بعبارات جاهزة، حكمتْ عليك هي بنظرة سلبية، وأربكتك أكثر، واستولى عليك الإحباط، وشارفتَ على الاستسلام، واقتنصك الفشل، والتجأت إلى النفاق؛ كي تبرّر ضرورة الأكاذيب في الحياة الوحدانية. كلا. تجنّبوا هذه الخاتمة. لا تتراجعوا. عليكم أن تصقلوا هذه الموهبة، وتُحسّنوا الأداء بوتيرة متصاعدة كالعبيد. علينا أن نتحلّى بمواصفات المطّاط المرن العنيد، كأننا أعظم الفاشلين على وجه الأرض.

يحقّ للشاب الوسيم وحده أن يقول:

«يا له من مطعم جميل!»

أما أنت؛ فعليك أن تقول:

«اخترتُ هذا المطعم؛ لأنه يناسب الغجر»

«ماذا تقصد؟» ستسألك باندهاش.

الدهشة جيدة، فهي تغطّي قلق الأنثى، بعدم فهمها للموضوع؛ لأنها لا تعتقد أنها لم تفهم جيداً، بل تفضّل - دوماً - أن يكون الرجل عاجزاً عن التعبير عمّا يجول في ذهنه.

«أقصد أننا أنا وأنت أحرار كالغجر، أنا لديّ بيت، والحمد لله، إضافة إلى مقطورة السفر».

لابدّ أن تنطقوا هذه الجملة بصوت هامس، وليس كما لو أنها تبدو نكتة القرن. ستُدهش أكثر، وتهزمها الحيرة، بل سيكون لديها هدف معيّن: اكتشاف عوالمك، وربّما ستبتسم أيضاً. ثمّ تغيّر الموضوع بسرعة البرق. السرّ

الحقيقي هو أنك لا تعطيها الوقت للتفكير مطوّلاً. فنحن لا نتمتّع بالوسامة، وإذا تركنا الفتاة تفكّر، ربمّا تتوصل إلى نتيجة منطقية، بعدم البقاء معك.

وبشكل عام، تنزل الفتاة من البيت باقتناع تام أنه لن يحدث شيء، حتّى لو كنتَ تعجبها مسبقاً، فإنها تفكّر - دوماً - بأن شيئاً لن يحدث بينكما. يتوجّب عليك هدم الجدار، يتوجّب عليك أنت أن تعدلها عن قرارها الحازم مسبق الصنع. في العلاقات الغرامية، يبدو لي أن النساء لديهم خمول داخليّ. وثمّة ما يزجر ذهنها من الداخل بشكل مستمر، مثل: «كلا. لا أريد. ليس الآن. لا شكراً». لقد دربتهنّ الأمهات المحترفات، كأنهنّ يحضّرن لاعبات قوى للأولمبياد باتخاذ مواقف رافضة ولعينة. استعمرن عقول بناتهنّ؛ لأنهنّ يكرهوننا نحن الرجال الغرباء، الغوغائيين المفترسين للجنس اللطيف.

ولطالما يبدأن بالنفي دوماً. وكل «لا» تتحوّل إلى «نعم» بلطفٍ، يتماهى على وقع طرفتك القادمة. ولكنْ؛ اسمعني جيداً.

علينا أن نهزم الأمهات، وهذه ليست مسألة بسيطة. فالأم تستولي على عقول بناتها حتّى مماتهنّ. علينا أن نسحق ذلك الودّ الذي يحجّر قلوب البنات. علينا أن نوفّر لهنّ وجهة نظر أخرى إلى الحياة، مشهد آخر تعتمدن عليه في كل مرّة. أن نأخذ بيدهنّ لمواجهة العالم، كأننا نحن الذين صنعنا العالم. التصنّع هي محرّك الإغواء. لكنه تصنّعٌ بنكهة الحقيقة. وليس مثل الغريندايزر والتفاهات الأخرى.

عليكم ألا تدعوا المرأة تفكّر، ولو للحظة واحدة. بل يجب أن تتقدموا في كل لحظة. أكثروا من الضحك. إن كنتم لا تتحلّون بميزة الطرفة، فهذا لا يعني أنكم خسرتم المعركة. ولكنْ؛ لا تهدروا الوقت بالنكات، حباً بالله. ولا تتحوّلوا إلى مهرّجين، إن لم تكونوا بارعين في نسج الدعابة. وحين تطلقون خمسين بالمائة من طلقاتكم، أعطوها هدنة باستراحة صامتة، تفكّر هي في أثنائها، بما كنتم تقولون، ربمّا تذهبون إلى الحمّام، وتفسحون لها مزيداً من الراحة في التفكير. ولكنْ؛ عليكم أن تذهبوا إلى الحمّام في حال قلتُم جملة

مهمّة، أو فكرة لاذعة. كنتُ أقول إنكم لا تخسرون المعركة، إن كنتُم لا تتحلّون بميزة الطرفة. ثمّة حيلة بدائية لمواجهة نقص الدعابة، وهي الإيقاع. عليكم أن تجعلوا حديثكم يمضي على إيقاع متذبذب ومفاجئ ومتوتر، ولكنْ؛ دون مبالغة، وإلا أصبح مضنياً وعصبياً، وبلا معنى. تصاب الفتاة بالشقيقة، وترغب بشدة أن تبتلعكم كحبّة مضادّة للصداع. لكنكم لستُم مثل طوني بيناريلي، وليس بوسعكم التحوّل إلى حبّة دواء. عليكم أن تقفزوا بين موضوع وآخر برشاقة؛ لتثبتوا عظمتكم بعشر جمل عن كل قضية، أو موضوع أو أي أمر سخيف. ليس أكثر من عشر جمل إلا إذا كان الموضوع هو المفضّل لديكم. ومن جهة أخرى، فإن عشر جمل هو أقصى ما يمكنكم قوله، فأنتم لستُم بفلاسفة التنوير، بلا شكّ.

كنتُ أتحدث عن الإيقاع. كل أحاسيس الحياة تنبثق من هذا السرّ: إيقاع الأشياء. وقد تتداعى أركان الحب ببساطة إذا جرت الأمور أبطأ أو أسرع من المعتاد.

إن كان حديثكم مبنياً على مخفف السرعة، فمن الأفضل أن تبقوا في منازلكم. ستنعدم الآمال أمامكم، أو ربّما تهاجمكم لوثة عصبية، تؤدي بكم إلى المستشفى، وستمكثون في أحد ممرّاتها، فالغرف الخاصة تتطلّب الكثير من الأموال، وأنتم لستُم بأغنياء.

إن البطء في حديثكم يتناسب طرداً مع دخولها نادي الأشخاص الذين لا يودّون رؤيتكم في حياتهم كلها.

إنْ بدأتُم بالترّهات مثل: «هل تعلمين بما أفكّر...؟» أو «إنني أعتقد أننا في هذه الآونة...» فبوسعكم أن تلوّحوا بمنديلكم الأبيض، وتنظروا بأعينكم إلى حبيباتكم، وهنّ يبتعدن على متن سفينة، تحمل كل رجال العالم ما عداكم؛ لأنكم أكثرهم غباوة، وستبقون دوماً على رصيف الميناء.

الإغواء مثل كتابة أغنية جميلة، تعتمد على التّقنية والإيقاع، تقنية وإيقاع.

موهبة الدعابة بمثابة سهم إضافي، قد لا يكون مناسباً لقوسكم على الدوام. في هذه الحالة أنتم في حاجة إلى الإيقاع. نبضات مدروسة تتّخذ من الصفات سحرها. مربكة ومقنعة، جامحة ودقيقة. وإن كانت نادرة وقليلة الاستخدام في اللغة، فهذا أفضل بكثير، وستنالون إعجاب المرأة بالتأكيد. فالنساء لا تغويها المجاملات، ولا الأزهار، ولا تلك النظرات الغبية. هذه سخافات مثل سكاكر كوفانيتو سبيرلاري. الجميع يتحدث بشأنها، الجميع يريدها، لكنّ أحداً لا يشتري تلك السكاكر القميئة.

الصفات تغوي، أما الأسماء؛ مملّة. هذا هو السرّ العظيم. عليكم أن تُبذّروا باستخدام الصفات بسخاء، دون حساب، على إيقاع متوازن، وسترون كيف تطارحون الغرام أي امرأة تريدونها، إلا إذا كنتُم أمام امرأة مصابة بخلل خطير في دماغها، لا يسمح لها حتّى بفهم اسمها. هذه الحالة لا تستحقّ منكم العناء. فأنتم تستحقّون امرأة ذكية. لأن الجنس، في نهاية المطاف، ليس ذا أهمّيّة تُذكر. اسمعوا مني، فأنا خبير بهذه الأمور. الإغواء أكبر تأثيراً. دعوا الحمقاوات يضاجعن الحمقى. فأنتم لا تتمتّعون بالوسامة، وبالتالي لستم بحمقى.

ختاماً، أذكّر بأهمّيّة الإيقاع، وضرورة أن يكون كهربائياً صاعقاً، لا يتباطأ كصوت المعلّقين على الأفلام الوثائقية عن الحيوانات عديمة الجدوى التي تتسكّع في سهول التندرا، أو في البراري.

يحق لكم تخفيض سرعة الإيقاع في حالة واحدة فقط، عندما تلفظون الكلمة السحرية، أو «الهابركاتابرا» في المشهد الأخير، تهبط كالصاعقة بقوة وإتقان؛ أي حين تقولون لها بأنكم تحبونها، أو ترغبون بها، أو تشتهونها، أو تودّون النوم معها. لكن «الهابراكاتابرا» ليس لها صيغة ثابتة، بل يتوجّب عليكم إيجادها بأنفسكم، بما يتناسب مع المرأة التي أمامكم. ما يهمّ أن تقولوا تلك الكلمة السحريّة بطريقة حسنة: ربّما يكون الحديث عن جبن الجاموس وفجأة، تخفضون السرعة، تبرق أعينكم بنظرة خاطفة، تهمسون بنبرة مؤثرة: «كم تعجبينني، يا فتاة!» ثمّ تنتظرون آملين خيراً.

ومن البديهي أنكم لن تختاروا مضامين الكلمة من لون المظاهر، بمعنى أنه إذا كنتم أمام قحبة كبرى، فلا ينبغي أن تقولوا لها: «تعالي؛ لأنكحك». إن قمتم بهذه الخطوة، فهذا يعني أنكم مجانين، لن يشتريكم أحد حتّى خلال التنزيلات. المرأة وترٌ مشدودٌ إلى حدوده القصوى، وليس بوسعكم أن تشدوّه أكثر من ذلك. عليكم أن تقلّصوا مستوى التوتر، هذه وظيفتكم. إذنْ؛ تقولون للعاهرة: «إني أحبك»، وللرومانسية الحالمة: «سأشدّ وثاقك على مسند السرير، ولن تستطيعي أن تتحرّري... فهو من نحاس ثخين.»

بمَ أخبركم؟ إنهنّ ينزلن من البيت، يمشين على طول الممر المضاء بالنيون القبيح، يفتحن بوابة المبنى، ويأتين للقائكم، ولا يُظهرن - أبداً - ما هنّ عليه في الحقيقة. بل إنهنّ على نقيض ما يكشفن. بوسعكم أن تطمئنوا من هذه الناحية. إنها مسألة رياضية، أساسها المنطق. هكذا تجري الأمور عند الأجناس المتناقضة.

ترتدي ثوباً رقيقاً مزداناً بالأزاهير؟ ثقوا بأنها تتوق أن يجرّها أحد من شعرها، ويخبط رأسها سبع مرّات بجدار إسمنتي.

وضعت خمسة أضعاف من أحمر الشفاه؛ كي يظهر فمها كدائرة تامة، كما في لوحات جوتو؟ ثقوا بأنكم مضطرون للتسول على بساط من الحمّص، يباركه كل الرهبان الساديين؛ كي تلعق لكم قضيبكم.

نادراً جداً ما تأخذ الأمور منحىً مختلفاً وغير متوقّع، لعلّكم في حالة كهذه تكونون أمام امرأة من عِرْق متفوّق. ربمّا تكون المرأة التي لطالما حلمتُم بها. وهذا ملفّ آخر. قد تفكّرون بخوض معركة عنيفة، تدوم طويلاً؛ كي تتزوّجوها، وتنجبوا منها أطفالاً. ولكنكم - مع الوقت - ستشعرون بالأسى، أنا على ثقة بذلك. بل ستشعرون بالعذاب المرير.

القاعدة الأخيرة: إن كنتَ تقوم بعمل مثير للاهتمام، عملٌ فنيٌّ ما، الغناء مثلي، أو الرسم أو التمثيل أو العزف، فعليك أن تخبرها بمهنتك في اللقاء

الأول، ولكنْ؛ يستحسن ألا تطيل الحديث في عملك متوغّلاً في التفاصيل. عليك أن تجعلها تتلهّف لمعرفة مزاياك المهنية. تألّقْ في مواضيع أخرى؛ كي تغرقها بالأفكار كأن تقول لنفسها مثلاً: «يا إلهي، إن كان هذا الرجل ملمّ بكل هذه المعلومات حول كيفية تحضير صلصة الباذنجان مع الجبن والطماطم، فكم سيدهشني حين يخبرني عن عرضه المسرحي الأخير الذي أدّى فيه دور هاملت، وقد رأيت كيف حفظ دوره عن ظهر قلب... مممم... عليّ أن أسأله كيف يستطيع أن يتذكّر كل هذا.»

إن فكّرت بشيء كهذا، فستكون أسهل من هضم المكرونة الطازجة. إنها جاهزة!

وها قد أنهينا الدرس رَقْم واحد. لا تفزعوا، هيا، بوسعكم أنتُم - أيضاً - أن تغووا مَن تشاؤون. ما هذه الوجوه الشاحبة؟ تحلّوا بالشجاعة، وابتسموا، واعلموا أنني في حالة حداد على ابتساماتكم منذ الآن.

هبّوا.

إلى الإغواء!

* * *

عمّ كنتُ أتحدث؟ عن أنطونيلا التي عادت لتجلس إلى الطاولة، تشبك ذراعيها ببعض؛ كي لا تظهر بقع الماء الشهوانية التي تسبّبت بها يداي على صدرها؟ نعم، على الأرجح.

والتمساح يتبعها. أنا التمساح طبعاً.

«عذراً، يا أنطونيلا، لم أكن أعرف مطلقاً أنك مرتبطة.»

تُظهر لي تفهّمها المصطنع والخفيّ في عينيها كأنها البابا الذي يجلس على عرش الفاتيكان. بدا أن توترها انخفض. تشعر بالذنب من قبلة اللسان

التي أعطتني إياها، ذنبٌ يسرح على عمودها الفقري كالشاحنات الممتلئة على الطريق السريع.

«لا عليك، يا طوني، أنت تعجبني أيضاً، ولكنْ؛ فلننس الأمر!»

فلنعترف بأنها ليست خسارة. إنها تستعطفني قليلاً. فأهزّ رأسي باستياء طفيف، لكنني أتظاهر أفضل من بيلموندو في أروع أفلامه، وأرتشف القليل من النبيذ؛ كي أضاعف عندها الشعور بالذنب، أكاد أشبه مَن يتقبل أسوأ الحقائق، ورغم هذا يبدو محبطاً من هذه السنة التي بدأت بداية سيئة. وأرتجل، لأن أنطونيلا الآن تراقبني بأسف واضح. تحمرّ عيناي.

ما الذي سيحدث برأيكم؟ يحدث أن بعض الأوباش الحمقى يظنون أنني سأتابع على هذا المنوال لكسب نقاط جديدة، أي أن يكفهرّ وجهي طيلة السهرة؛ لأضاعف شعورها بالذنب، فأجعلها تغيّر موقفها. وهذا خطأ فادحٌ وقاتل. من صفات الشعور بالذنب عند النساء أنه لا يدوم طويلاً، يكثّف حالته لدقائق معدودة، وسرعان ما يتحوّل إلى كدرٍ، يتحلّل بسهولة في اللامبالاة. وحين تجيء تلك اللحظة، ومازلتم تصرّون على التجهّم، تكون المرأة قد أرشفتكم مسبقاً بأعمق أعماق أعماقها؛ أي عند دبرها تحديداً.

أما المفاجأة العبقرية، التي أقوم بها فعلياً؛ هي أنني أتصرف وكأن شيئاً لم يحدث. وهكذا أنقضّ بمرح وحسّ طرفة لا يضاهيني به أحد، وتعود أنطونيلا لضحكتها المعهودة، الخلاعية والهائجة. أنطونيلا تقهقه كأنها نابليون.

أرفع رأسي نحو هند التي لا تكف عن الاعتراف على أيدي جيني، وأصرخ بحزم وشدّة:

«يا هند... إنك آسيا»

فتنفجر أنطونيلا بالضحك عالياً على هذه الطرفة التافهة. يتجاهلني جيني وهند أيضاً بطريقة محترمة. ولكنْ؛ بهذه الصيحة السوقية رسّختُ الخطوات نحو غايتي الأساسية: ليلة مع أنطونيلا.

بأي حال، أنا وأنطونيلا نبدأ من الصفر، المزيد من النبيذ الأبيض البارد، وبعد السمك نتذوّق الكالاماري، إهداءً من الشيف، بينما يستمرّ جيني وهند بحديثهما الهامس كأنهما في طقس ديني.

«السمك هنا لذيذ حقاً» تقول مغنية الروك «لماذا، يا تُرى؟» تهوي أنطونيلا من بين غيوم السُّكْر؛ لتسأل الخبير بالسمك، أنا.

«نحن لسنا في روكارازو، يا عزيزتي. البحر على مرمى حجر من هنا» أجيبها.

تخور قوانا، لكننا لا نستسلم، وبكل رضا عن قرارنا الجديد، نطلب بجسارة طبقاً من إيمبيباتا الصدف. الشيف لا يعلم كيف يحضّر الإيمبيباتا. سحقاً! بوسعي الآن أن أخرج دون دفع الحساب، ولكنني آمر النادل بجرّه إلى حضرتي. أنظر إليه بحزم. يبدو الطبّاخ نادماً عن جهله لهذا الطبق، كأنه ماضٍ نحو المقصلة. فأشرح له، بطريقة موزونة واحتراف عالي المستوى، كيف يحضّر الصدف المحمّص بأدقّ التفاصيل. ينصرف الطباخ شارد الذهن؛ ليحضّر الوجبة، وأعتقد أن ما فعلته به كان أسوأ ما واجهه في هذا اليوم، أنا وهو نعلم ذلك جيداً. كانت أنطونيلا تتابع استعراضي بدهشة وتركيز. لقد أحسّت بأنها زوجة الزعيم خلال تلك الدقائق.

والزعيم هو أنا بطبيعة الحال.

وبعد أن سقط الصدف في قِدر الطباخ أولاً، ثمّ بين فمي وفم أنطونيلا، نقرر أن نطلب الحلوى. لكنني لم أعد أحتمل البقاء على الطاولة، أشعر كأنني هنا منذ زمن بعيد. أشعر مثلما حين كنتُ في سنّ العاشرة أجلس لوقت طويل على الطاولة في عذاب لا ينتهي، يجعلني أسقط على رأسي لبكاء ما قبل النوم، أو للركض بين الطاولات.

كنتُ وسيماً في طفولتي. وأمي كانت جميلة أيضاً، في طفولتها وشبابها.

أعجّل من نهاية العشاء. جيني يدفع الحساب عنا نحن الأربعة. والساعة الخامسة فجراً. نخرج إلى الجوّ البارد، منتشين ومرتجفين من الوهلة الأولى. ثمّ أقصّ على أنطونيلا كيف غنيّتُ في الهواء الطلق في لندن. وكان المطر ينهمر بشدة، وكنتُ أنتعل صندلاً. فيضحك كلٌّ من جيني وهند أيضاً. ويعرب الجميع عن أسفهم في هذا الجو المتجمّد. نعرف جميعنا هذا النوع من التعاطف، وهو أمر اعتيادي، وأراه في غاية اللطف. ننظر حولنا بحثاً عن بار صغير؛ لنحتسي المشروب الأخير في مطلع السنة، ولكن آسكولي بيشينو عبارة عن كهف مظلم، وسكانها ينامون حتّى في أيام العيد. نعوّل على بار الفندق، فنجده مغلقاً أيضاً. ما العمل؟ جيني وهند يقولان إنهما سيبقيان بعض الوقت في الصالة؛ ليستكملا الدردشة. أنطونيلا تقول إنها تريد الذهاب إلى غرفتها. وأنا، تلقائياً، لم أكن أنتظر إلا هذا، فأتبع خطاها بعد أن أهنّئ جيني وهند بليلة سعيدة.

والآن يطبق الصمت على السلالم. إنها لحظة اتخاذ القرارات. لحظة حصاد ما قمت بزرعه. أنطونيلا تسبقني، وأنا خلفها. نفكّر في الأمر ذاته. أرافق جسدها كله على عتبة غرفتها.

ودون مقدمات، لا طائل من ورائها الآن، أقول بنبرة جدّيّة:

«أريد أن أدخل معك، يا أنطونيلا»

«فكّرْ بغيرها، يا طوني. أرجوك.»

«أريد أن أدخل. وأجزم أنك تريدين الشيء نفسه.»

«ليست هذه المشكلة» تقول لي بنفس النبرة.

«وما المشكلة، إذنْ؟»

«لقد عاودتني الدورة الشهرية، يا طوني.»

«لا أريد سوى أن أسند رأسي على صدرك، يا أنطونيلا.» أقول في غاية الصدق. فتنظر نحوي بصدق وأسىً.

«لا، يا طوني. لقد مللت من القيام بأمور لا معنى لها.»

«إذا فكّرتِ في منح معنىً للأمور، فهذا يعني أنك تتقدّمين في السن، يا أنطونيلا.»

«لطالما كنتُ متقدمة في السن، يا طوني.» تخيفني النبرة الجدّيّة والواعية التي تنطق بها أنطونيلا هذه الجملة، كما لو أنها عاشت حياتها كلها بانتظار أن تقول هذه الجملة. وهذا ما يجرّدني من كل أسلحتي.

أداعب بخفة شعرها المعقود والمنفوح بروائح المطعم. ثمّ أقوى على قول جملة واحدة:

«سنة حلوة، يا أنطونيلا!»

«ليلة سعيدة، يا طوني!»

ويُغلق الباب من الداخل.

لا أريد سوى أن أسند رأسي على صدرك. لفظتُ الجملة بشكل عفويّ.

أستدير مائة وثمانين درجة. أرى ممر الفندق أمامي بكل وضوح. زال السُّكْر بلحظة واحدة. أرى البساط الأزرق على الأرض. هنالك مقاعد مرتبة على الجانبين. ومرايا وأبواب كثيرة. على كل باب ثمّة رَقْم مختلف. أخطو باتجاه غرفتي. ثمّ أتسمّر في مكاني. أشرع في البكاء. بكاء حقيقيّ. وأشهق بقوة، وأذرف الكثير من الدموع، وأفكّر في جمال أمي الباهر في صباها وفي رغبتي العارمة بالبقاء مع أنطونيلا، وأفكّر في صديقي رينو بابالاردو الذي لم يستطع أن يرى ابنه يخرج حيّاً من رحم زوجته. أتوه بين هذه الأفكار الكثيرة، فأجهد نفسي، وأحاول أن أستعيد توازن دماغي بمفردي، في ممرّ، لا أعرفه.

أنجح في هذا، فأبكي بقوة أكبر، وتخرج الأمور عن السيطرة؛ لأنني أبكي كثيراً، وأعجز في التوقّف عن هذا. لا أفكّر في شيء الآن، ولا أحتاج إلى أي جهد؛ كي أبكي. أرى هند وجيني يتوسّطان دموعي، ويتحركان بالقرب مني، بشكل مائل، كأنهما يحاولان الرجوع إلى الخلف. ينظران إليّ، بينما أجهش بالبكاء، تغلبهما الدهشة، ولكنْ؛ ليس إلى حدّ بعيد. لا يبدو أنهما مذهولان من أنني أبكي حتّى أوقظ الفندق كله. لا يرتبكان، لا يقتربان مني، كأنهما على علم منذ وقت طويل أنني سأبكي حتّى الإحباط عاجلاً أم آجلاً. ينظران إليّ مزيداً من الوقت، ثمّ يدخل كلاهما إلى غرفة هند. أراهما بينما يدخلان، وأعلم أنهما سيتكلّمان بشأني قليلاً، عن بكائي الانفرادي، في ممرّ، لا أعرفه. ثمّ يمارسان الجنس، لأنني حين كنتُ أتغزل بأنطونيلا، كنتُ أبكي من الداخل حقاً، بينما كانا يتحادثان بهمس طوال الوقت، وربّما كانا يقعان في الغرام، والآن سيتعانقان بقوة، كأنهما أبطال أغنية رائعة. ثمّ يلتقطان الصور، صوراً جميلة، وهما متعانقين على المروج وقرب الآثار. وبعدها ينظران إلى الصور معاً، ويضحكان، وربّما يختاران واحدة لوضعها في إطار يليق بها. وأنا ما أزال تحت رحمة البكاء، ولا أريد لهذي اللحظة أن تنتهي أبداً، لأنها لحظة حقيقية بالنسبة إليّ. أو ربّما كانت كذلك.

أتمنى أن أكون أكثر دقة، صدّقوني، ليس من السهل أن نتحلّى بالدقة حين نذرف الدموع.

-٦-

إنني وحيدة في المنزل
أرافق نفسي
فأنا ليس لديّ أصدقاء

لوريدانا بيرتيه

منذ خمسة عشر عاماً، كنتُ أمارس الجنس مع زوجتي دون هوادة، كالجواميس.

أما الآن؛ باتت هي قطعة أثاث بالية.

لديّ في المنزل بيانو أبيض كبير، وقناديل، وأرائك من الجلد الأسود، وطاولات خشبية عتيقة وأخرى زجاجية من الكريستال، وعدّة نجفات وتحف خزفية أعشقها، وتوجد زوجتي أيضاً. كقطعة أثاث زائدة.

أحياناً تتذمّر، وتقول: «ألا ترى أنه لابدّ من رمي بعض الأشياء من هذا البيت، يا طوني؟ ألا تعتقد أن هذا الأثاث زائد؟»

«أجل، أنت، يا حبيبتي.» أجيبها.

ثمّ أفتعل ابتسامة، فتنطلي عليها، وتظن أنني أمزح. أليس واضحاً أنني أتكلم جدّيّاً؟

الفرق الوحيد بين زوجتي والبيانو الأبيض، طراز ستاينوي عام ١٩٦٩، أنها

تمشي والبيانو لا. هي تتكلم والبيانو لا. أحياناً تحاول أن تشتكي، ولكنْ؛ مع الوقت اعتادت على الشكوى وحيدة، كأنها تناجي الله، تتمتم وتلوم نفسها على خياراتها، وتوشك على الانهيار العصبي بنكهة الاكتئاب.

أصبحت هذه المرأة تشكّل لي هاجساً من الهمّ. وما لبثت تسلك درب آلامها بمفردها، دون أن يطلب منها أحد ذلك.

حين عرفتها، أعجبتني كثيراً؛ لأنها كانت شبه خرساء. وعلى السرير كانت تقوم بكل ما أمليه عليها، بسلبيّة مطلقة، كانت تثيرني حتّى الموت. بدت لي أفضل حلّ لنسيان بياتريشا. فتزوجتها. وأخذت الأمور منحىً سيئاً حين بدأت تتكلم. حين أخذت على عاتقها أن تحقّق طموحاتها العجيبة في حقول التواصل والنقاش. إنني رجل يحبّ التسلية مع الجميع، بما فيهم الكلاب المسعورة، أو كرات الساحر، ولكنْ؛ حاول أن تدردش قليلاً مع زوجتي، وسترى بأم العين كيف تنهار أعصابك بالمعنى الحرفي للكلمة. تشعر بالانهيار حقاً. تشعر أنك تحت أنقاض أعصابك، وإن كُتب لك عمر جديد ستحتاج إلى مهندس بارع؛ كي يعيد بناء أعصابك، والحيلولة دون انهيارها ثانية. جاول، ثمّ أخبرني بالنتيجة. ستكون في حاجة إلى جلسة تدليك طويلة، وزوجتي ماريا لا تتقن التدليك أبداً. لها طريقة بطيئة في الكلام، متملقة ومسطّحة، تجمّد حواسك. لا يصلح وصفها، إنها تجربة عليك أن تمرّ بها بنفسك، وقد كُتب عليّ هذا النوع من الأسى. الحديث معها يشبه تحليل الدم، تشعر بالفزع والهلع، ثمّ تحسّ بنفسك فارغاً، والإعياء يهيمن عليك. كأنك لا تتناول الفطور، فتعوضه في البار، وسرعان ما تفتك بك الهواجس. حتّى القهوة تفقد مذاقها. يصبح طعمها مختلفاً.

حاولوا أن تذهبوا إلى المطعم مع زوجتي، وشاهدوا بأنفسكم كيف يفقد الطعام نكهته، بينما تصغون إلى حديثها. وعلاوة على ذلك، فإنها لا تُتقن الطبخ، تبذل جهدها، تسرف في المقادير، ولا أحد يفهم نقاط ضعفها في حساء الخضروات أو البيض المخفوق أو الرز أو اللحوم البيضاء التعيسة

وسمك القدّ. أطباق تضاهي الموت، وهي تدير ظهرها للحياة. وهكذا، بروح قوية وشجاعة قلب، رفعتُ أكمامي، وأرغمتها ألا تدخل إلى المطبخ أبداً. ومنذئذ لا أحد يطبخ في البيت غيري، فأجهّز كرنفالات السمك والأخطبوط والمشاوي المنكهة والكالاماري بجميع الصلصات وطرائق التحضير. أشيع في البيت جواً من السعادة الزوجية، لا تتفاعل زوجتي فيه. أقوم بتحضير هذه الروائع الخالدة بغبطة متوقّدة، بينما تغرق هي دون منقذ في بحرٍ من اللامبالاة، وتنشط عيناها في مراقبة تلك الأشياء التي تتّسخ في المطبخ؛ إذ عليها أن تغسل الأطباق بعد الطعام. تقول إنني أوسّخ كل شيء. لو كانت تعلم أنها وسّخت حياتي إلى الأبد. وسّخت حياتي إلى الأبد. دائماً نقع في فخّ الزواج نفسه، ومع الوقت، يتم التركيز على التفاصيل، فنضيع فرحتنا بطموح المشاريع الأولى. ربّما لأن تلك المشاريع لم تكن طموحة، كما كنا نتوقّع.

تتقوقع زوجتي بغطرسة العائلات النبيلة الهابطة، تتّسم بتناقض غريب من نوعه، يعود إلى مستواها العلمي المتواضع. فهذه تناقضات تفكّر بها عن غير رشد، همّها حب المظاهر التي توتّر حالتي النفسية حتّى الهلاك. تستنفد قواي تدريجياً، حتّى تقضي عليّ نهائياً. إن البشر متعِبون حقاً حين لا تشغلهم في الخدمة.

المهمّ. لقد عدتُ منذ بضعة أيام من آسكولي بيشينو الخرائية، وعليّ أن أواجه هذه الحقيقة العائلية، كأنها مجزرة دموية. ولكنْ: لا تظنوا أنني على وشك الموت، لأنني اعتدتُ عليها: ثمّ إن في هذه الفترة يوجد عمل كثير، وقد عدتُ على موجة عالية من التفاؤل، فالنجاح أحاط بي كقرص الهولاهوب الذي يتشبّث بالخصر أبداً. أشعر أنني كسيارة سريعة تألقاً وبريقاً. أشعر أنني قبّة الرفاهية، بل كممشى الكاتدرائية الذي يفضي رأساً إلى هيكل البهجة، ولاحقاً ستبدأ جولتي الغنائية الكبرى، وهذا ما يعني أنني سأستريح من رؤية بيتي المرعب لوقت طويل.

مرّ عيد البيفانا(*)، ونسيتْ أن تحملني معها على متن المكنسة.

ذات يوم، بالقرب من كورمايور، تعرفتُ على معلّم تزلج في الرابعة والخمسين من عمره. كان هذا الرجل مقتنعاً - بلا ريب - أن بابا نويل والبيفانا لهما وجود حقاً. لم يكن يصغي إليّ. ونسي أبواه إخباره بالحقيقة. ولم تستطع المعلومات اللاحقة أن تغيّر معتقداته نظراً إلى كونها مصادر خارجية. فهو لا يصدّق إلا أباه وأمه، مثلنا جميعاً بالمحصلة. ووالداه، بسبب الخمول، لم يطلعاه على حقيقة الأمور. كم أستلطف الآباء الكسالى الذين لا يقيمون أي اعتبار لكل مواد التربية في العالم. فالقيم النمطية تثير العواطف أحياناً.

منذ عودتي، تقوقعتُ وحيداً في حجرتي؛ كي أبتعد عن زوجتي التي تذكّرني برائحة الغائط. ابنتي عند خالتها، وهذا ليس بنبأ سيئ، فالهدوء في بيتي بضاعة نفيسة؛ لأن زوجتي، ولا تسألوني لماذا، تشغّل الغسالة أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين. هكذا تجري الأمور في هذا البيت على وتيرة فندقية، ليس لها معنى.

بالمحصّلة، أجلس بمزاج صافٍ إلى المنضدة الرخامية الصغيرة في غرفة النوم؛ كي أستنشق خمسة أو ستة خطوط من الكوكايين، فإذ بزوجتي تتجلّى في الغرفة، أكثر انتهازية وسرعة من باولو روسي تحت الشبكة، دون أن تطرق الباب. بالعادة تطرق الباب، وإن لم تقم بهذه الحركة المؤدبة، فهذا يعني أنها غاضبة، وبنسبة تسعين بالمائة تحضّر لي ما يحرق أعصابي، وينكّد عيشتي بدون مقدمات طويلة. لم تعد تستغرب من رؤيتي وأنا أشتم المخدرات، وربّما اعتادت على المنظر مع مرور الوقت، وإلا كان بوسعها أن تمضي لشأنها غير مأسوف عليها. تدخل وتقف أمام الباب كالحرس الملكي البريطاني بانتظار تغيير الدورية. متحجّرة في مكانها، تنظر إليّ دون أن تنبس ببنت شفة.

---

*) البيفانا تعني الساحرة، وهو عيد شعبيّ في إيطاليا، يعود إلى معتقدات قديمة بأنّ الساحرة ذات المكنسة تقدّم الهدايا للأطفال إبان عيد ميلاد المسيح. المترجم.

«ما بك؟» أسألها بأنفاس مضطربة؛ لأنني على وشك الجرعة الرابعة دون انقطاع.

لا تجيبني. إن كان هنالك ما يسبّب لي الضجر حتّى الموت فهو حين تقوم زوجتي بسكتة مسرحية طويلة؛ كي تجذب انتباهي نحو مشكلة، لا أحد بوسعه تقدير حجم تفاهتها.

«تكلّمي» أقول غاضباً.

«عليّ أن أخبرك بأمر، يا طوني»

«ماذا لديك؟» أقول على وشك الانفجار.

«أريد الطلاق» تصطنع الجدّيّة.

تحوم في الأجواء رائحة عراك. أظل صامتاً للحظة واحدة. وإن كنتم تظنّون أن أنطونيلا تقهقه بصوت مرتفع للغاية، فعليكم أن تروني في هذه اللحظة. أنفجر كعاصفة من السعادة أمامها. عيناي تدمعان من الضحك على هذا الموقف الهزليّ. أرتدي ثياب النوم، أمسك بالخفّ، وأقذفها به. تتنحى ذليلة، فتعلو ضحكتي أكثر.

تحاول مجدداً بطريقة غبية: «إنني لا أمزح، يا طوني»

يُغشى عليّ من الضحك، ليس لديّ أي قوة؛ كي أرد على ما تتفوه به هذه المرأة من سخافات في منتهى السخرية. فأكتفي بالإمساك بالخفّ الثاني، وأقذفها به بقوة أكبر. وهذه المرّة أصيب صدرها. أتابع على الهواء مباشرة دموعها كيف تولد من عينيها، دموع ثقيلة وعملاقة حتّى إنها تبقى معلقة على مدامعها، لا تقوى على الحركة، ولا تستطيع الوصول إلى خدّيها. دموع بطيئة كالحمير.

إنني في حاجة إلى زوجتي، ولستُ أدري لماذا. ربمّا لأنني حين أدخل إلى

بيت خالٍ من البشر تلتفّ الكآبة حول عنقي، كما يفعل اللبلاب المتسلّق على جدران المنازل المهجورة.

الإحساس نفسه ينتابك حين تطأ قدمك غرفة الفندق، لعلّك تشعر بالبهجة من الحداثة والفرح بالمكان الجديد، ولكنك لا تشعر بالراحة الحقيقية. تدخل إلى غرفة الفندق، فيلتصق بك الشعور بالقلق دوماً كالصمغ عديم اللمعان، ويصل الاضطراب حتّى أعماقك كأنك في قبر سحيق، ينشط كالدودة الشريطية.

بأي حال، هذه المجنونة تطلب مني الطلاق، أمر يناسب بعض الناس الذين يتمتّعون بوقت فراغ طويل. وأنا لا أملك هذا الوقت الفارغ. إن أردت أن تُحدث تغييراً جذرياً في حياتك، فما من داعٍ لإزعاج المحامين بتحضير وثائق مليئة بالأختام الحكومية، بوسعك أن تحدث التغيير بهدوء، ولطالما كنت رائداً في هذا المجال. من تحت الطاولة. باسم حرية، لا تساوي شيئاً. حريتي. الحرية في اصطناع الأكاذيب والخيانة والتآمر والسطو على حياة الآخرين دون حتّى أن ينتبهوا لذلك. في بعض الأحيان، تبدو النزاهة في غاية التفاهة، ولا تثقوا بمَن يكره المحتالين، فهو مجبول من الأخلاق مسبقة الصنع؛ إذ إننا لا نستطيع أن نكوّن فكرة عن أي شيء. والمكر يتطلّب ذكاءً مؤسساً. المكر فنّ أيضاً. يقول لكم رجل ماكر قام بحيل، لا تخطر على بال الجنّ. وماريا تظن أنها تستطيع أن تتحرّر مني بنعمة القانون. هذا ما يفعله المغفّلون والضعفاء. أما الأناس الذين يتمتّعون برباطة جأش؛ فيقومون بما يحلو لهم دون أن يزعجوا أحداً. ولهذا السبب أضحك من كل قلبي؛ لأنها تثير السخرية بفكرة الطلاق الغبية. في طلبها، ثمّة رغبة بالتحديث قد تجعلني أكثر مرونة، لو لم تكن مجرد خيبات متراكمة داخل فكرة الانفصال نفسها.

ورغم هذا لا يغمض لي جفن طوال الليل. الساعة الرابعة فجراً الآن، وزوجتي تنام في بحر من الدموع. ذرفت كل ما بحوزتها من دموع، وحالما انتهت غطّت تلقائياً في نوم عميق. الإنسان يتعب حتّى من البكاء. لكنني

متوتّر. أحرّك ساقيّ، وقدماي تتصبّبان عرقاً تحت الغطاء، أما جسمي؛ فلا... بل أشعر بالبرد. أشعر بارتفاع الحرارة دون شعور بالحرارة. أشعل سيجارة. ومن السرير أضغط القاطع؛ لأشعل النجفة في سقف الغرفة، فينبثق وميض الضوء كريهاً، ويغشي الأبصار. كريه كأشياء أخرى قليلة. ما من أمل، لن يستطيع الإنسان أن يحقق تقدماً في الإضاءة المنزلية أبداً. فمنذ أن هجر الإنسان الشموع وقناديل الزيت راح يصنع الفوضى فقط.

ما الذي يحدث لك، ياطوني؟ أسأل نفسي ثانية، ما بك، يا طوني؟

لا شيء!

في وقت مضى، كنتُ أشعر أنني على ما يرام. ربّما تغيّرتُ. أو ربّما بياتريشا.

الدُّرج قرب السرير. أنظر إلى سطح الدُّرج الفارغ كلّيّاً. وبمجرد النظر إلى الفراغ الذي يعتلي هذا الدُّرج المنيوك، حتّى من منفضة الرماد، أصاب بلوثة غضب فجائيّ. فراغ هذا الدُّرج يتحوّل إلى موجة تخاطر حقيرة داخل رأسي، ويصبح مثالاً لفراغ شخصيتي. مَن سمع ليس كمَن رأى. لم أر في حياتي كلها دُرجاً فارغاً إلى هذا الحدّ في بيت حيوي، يسكنه بني البشر. ولو كنتُ قد رأيتُه في بيت أحد ما لانتابتني الدهشة الصاعقة، فتخيلوا أن أشعر بهذا حين تمسّني هذه الحقيقة شخصياً.

أين كنت حين قررنا أن نملأ هذا البيت بالأثاث حقاً؟ على الأرجح كنتُ أحتفل بقنطار من الكوكايين في جسدي الشاسع وسط نساء كريمات.

لي سجيّة، بوسعها أن تواجه أي شيء، حتّى الفراغ، حتى ذاتي. إنني مقاتلٌ نفساني، مدججاً بسلاح جهلي الأسمى.

أو ربّما، لم أكن أنا.

كل هذا لا يبرّر موتي.

أنزع عني الغطاء بنزق، كأنني في نزاع إغريقي روماني. أصل إلى المنضدة الرخامية، أمسك بمنفضة الرماد ومحفظتي، وأضعهما على عجل فوق هذا الدُّرج الفارغ.

لكنه - الآن - يبدو لي فارغاً أكثر من قبل!

أجد نفسي مكبّلاً بشلل ذهني وفزع حقير. يبدو أنني لن أخرج حياً من قضية هذا الدُّرج المنيوك. إنني أمام خيارين، إمّا أن أحرر نفسي من الدُّرج، وإمّا أن أتحرّر من نفسي. لا مناص. لكنني الآن أشعر أن البيت كله يثقل على عاتقي، وأن ذلك المخلوق الوضيع النائم هي زوجتي التي نامت معي لأعوام طويلة، وطلبت مني الطلاق إلى الأبد منذ ساعات قليلة. تنعم بالنوم، وربمّا تحلم أيضاً. تحلم أن تتركني بطبيعة الحال. وها هي عيني اللعينة تتجه مرّة أخرى نحو ذلك الدُّرج. يا إلهي! لم أعد أطيق هذا الوضع. فلنتكلم بوضوح، لا أقوى أن أزيح عينيّ عن الدُّرج، ولا أحتمل ذلك الشعور بالتصحُّر الذي يجلدني به هذا الدُّرج الخشبي، كأنه يرمي السكاكين برشاش رديء.

أستحوذ على فكرة، تبدو لي وجيهة: أن أحمل التلفاز ذا الواحد والعشرين بوصة، وأضعه فوق الدُّرج تحديداً، سأشعر - حتماً - بأن هذا الدُّرج ليس فارغاً. وهكذا أفعل. أفصل الشريط الكهربائي، وبجهد مهول أنقل التلفاز من الطاولة إلى سطح الدُّرج. ولكنني حين أرتّب مكانه هنا، لا تمرّ ثانيتين حتّى ينهار ذلك الدُّرج دفعة واحدة؛ إذ لم تتحمّل دعائمه الضعيفة حجم التلفاز، ويسقط التلفاز - أيضاً - بشاشته على الأرض، وزجاج الشاشة يتهشّم بألف شظية صغيرة. ولكنّ ما يخرجني عن طوري بشكل غير مألوف هو أنني، في أثناء الثانيتين اللتين قاوم فيهما الدُّرج ثقل التلفاز، أحسستُ بأن الفراغ كان لا يزال حاضراً بقوة على سطح ذلك الدُّرج الحقير. أحدث سقوط التلفاز دويّاً يشبه انفجار قنبلة هيدروجينية فظيعة. تفتح ماريا عينيها ببطء. لابدّ أنّ الضجة التي سمعتها في منامها ارتدت في رأسها. ترتعد حين تلتفت تحت

السكون الذي تنيره تلك النجفة على مضض وسط الغرفة، وتنظر إلى التلفاز والدُّرج كحطامٍ، تسبّب به زلزال. ثمّ تنظر إليّ أنا الحقير الواقف مرتدياً ثياب النوم، وتتسمّر بلا جدوى.

بخيط رفيع من صوت مرهق، ودون أمل بالبقاء تسأل: «ما الذي حدث؟»

لكنني - الآن - لا أشعر بالقهر. لا أعطي هدنة حتّى لقطّ حديث الولادة. أقفز بقدميّ على السرير كالرياضيين. أضيّق الخناق على زوجتي بذراعي. أشدّ عليها. هي تريد أن تتراجع مذعورة، لكنها لا تستطيع. أصفعها على وجهها. صفعة من زوج لزوجته، كما يحدث مراراً عند الكثير من العائلات. أصفعها ثانية بظاهر يدي. وصفعة أخرى بكفّ يدي. مشهد مسرحيّ إيطالي نموذجي. هي تريد أن تبكي، لكنها خائفة جداً، فلا تستطيع. أنا أبدو كلص، تسلل ليلاً إلى منزل الغرباء، وبهذه النبرة، أهمس لها: «ولماذا تريدين الطلاق؟»

لا تقوى على الإجابة.

«لماذا تريدين الطلاق؟»

كان بودّها لو تطلّقت منذ زمن. لكن الأمر ليس كذلك.

«لماذا تريدين الطلاق؟»

كان بودّها لو أنها لم تتزوج أصلاً. تفضّل العذرية الأبدية على أن تكون في موقف كهذا. وكلما أعدت السؤال تحسّن أدائي في لعب دور الشرّير وفي نشر الرعب في قلب تلك المرأة.

«ولماذا تريدين الطلاق؟»

وأخيراً تقوى على البكاء. لولا الدموع لما انتبهت إلى وجودها.

«لأنك رجلٌ سطحيّ» تقول لي.

إن كانت تريد قتلي، بهذه الكلمات، فقد فعلتها.

يطبق علينا الصمت. وعلى كل شيء. لا أريد أن أسمع أي كلمة حتّى لو نطقها أبانا الذي في السماوات شخصياً.

أنزع ثياب النوم. أرتدي البنطال. القميص. السترة. وبطرف عيني، أرى أنها تتبعني بنظراتها من على السرير، ولكنّ هذا لا يهمّني. مَن هي؟ ومَن يعير انتباهاً لها... كفى... لا يهمّني... الآن كفى. أرتدي المعطف الثقيل. أخرج من الغرفة. أمسك بالمفاتيح، فتُحدث رنّة في سكون الليل. أفتح باب المنزل. أغلقه دون إحداث الضجيج. أنزل درجات السلم. اثنتين اثنتين. أشعر بالعجلة التي لا مبرّر لها الآن.

لقد قضت عليّ تلك المرأة لتوّها. بكلمات قليلة. سطحيّ؟! أنا سطحيّ؟! كل ربّات المنازل قادرات على اختيار الكلمات المناسبة لسحق الرجال. لأنهنّ ينعمن بوقت فراغ طويل، فيبحثن عن الكلمات المناسبة بعناية. كلمات ثاقبة وفتّاكة.

لا تكترث السماء لأمري، كما أراها الآن، تتّشح رداءها الرمادي الفضفاض، وتهمد في خمولٍ شديد. وما يزال الطقس بارداً. سحقاً لهذا البرد الذي تتميز به الساعة الخامسة فجراً، أشد أنواع البرد ضراوة وظلماً. ومَن يدري لماذا؟! هذا البرد يطعنك حتّى الصميم. ينقضّ على المرء مثل جماعة إرهابية. ينهش البرد قدميّ، وفي ذهني يجول حدس قاطع: لن أشفى من مشاكل الدورة الدموية أبداً. أبداً.

خارج بوابة البناية، يظهر عكس المدينة. ليس بوسعك أن ترى البحر من هنا، فأنا أعيش في الجانب الآخر تحديداً. في الجانب المظلم من نابولي، كما قد يعرّفها بينك فلويد. ليست تجارة رابحة أن تعيش خلف المدينة،

بنوافذ تشرف على تل كابوديمونتي والبحر من ورائك، وعليك أن تذهب؛ كي تبحث عنه.

الأثرياء الحقيقيون يطلّون على البحر، يفتحون أذرعهم إليه، ويشتمّون اليود الأصلي. أما أنا؛ فيجدر بي أن أستقل السيارة؛ كي أحظى بكل تلك العدّة من المشاعر. باختصار ليس من السهل أن تعيش في مدينة بحرية، ويحدث أن تنسى وجود البحر كلّيّاً بعض الأحيان.

ولكننا عشنا أسوأ من هذا. جميعنا عاش أسوأ من هذا، طالما أنه لا حدود قانونية لمصطلح الأسوأ.

وكأن كل هذا لا يكفي، ينبغي عليّ أن أذهب حتّى صخور الشواطئ؛ كي أحل مشاكلي العائلية التي تتداعى فوق رأسي، عند الخامسة صباحاً.

ثمّة دُرج فارغ في رأسي.

بتّ أشعر أن المدينة فارغة أيضاً، كما لم تكن كذلك من قبل. لا وجود حتّى لعاشق ولهان يعود إلى بيته بعد أن عاش زوبعة من طراوة أيام الحب الأولى. لا شيء. جميع الكنّاسين استحمّوا، وخلدوا إلى النوم. والقابلات جميعهنّ أخرجن الأجنة من أرحام الأمهات. والمدمنون على المخدرات قد عثروا على باب البيت بعد ألف محاولة، والسكيّرون نهضوا من حفلة التقيؤ. لقد صادفت اللحظة الوجيزة لكل المسائل المدنية المعلّقة. يحدث هكذا دوماً: حين تكون في حاجة إلى عون أخيك الإنسان، تجده نائماً في نوم عميق. ولهذا السبب التافه يقضي المؤرّقون حياتهم دون أن ينعموا بالسلام. لا يصدّقون ما يرون، لأن أي شيء يرونه يكون نائماً ببراءة مذنبة حتماً. لكنني لا أشعر أنني وحيد، طالما اكتفيتُ بنفسي رفيقاً. وهذا امتياز يتطلب صلابة طبيعية. وحتّى هذه الصلابة قد تتلاشى. ينبغي أن نتحلّى بقليل من الصبر، وننتظر تفسّخ كل مزايانا المزيفة.

أنزل إلى الردهة التي تفضي إلى المرآب، وعرة مثل حلبة التزلج، وعليّ أن أشدّ كلّ عضلاتي التي أسمعها تكلمني، وتقول لي: استرخ، يا طوني.

ولكنني إن استرخيتُ، فربّما أموت.

في المرآب؛ حيث أركن سيارتي هنالك مائة وستون سيارة أخرى. أعلم مسبقاً أنني سأصادف الشاب، نائماً على مقعد جلدي أسود ممزّق ورطب. سأجده بفمه المفتوح يملأ الأرض شخيراً، ويحلم بأفواه إناث راغبات، سيكنّ من نصيبه أم لا، لا أعلم. لا أهتمّ بحياة الشبّان الذين مثله. لكنني أجده في آخر الردهة، متوتّراً ومستعجلاً يغلق حقيبتين كبيرتين. آتيليو كوليلا، هكذا اسم هذا الشاب.

«ما الذي تفعله، يا آتيليو الوغد؟» أسأله بصوتي الذي أنهكته سجائر الروثمان.

لم يكن ينتظر في هذه الساعة أن يرى، لا أقول أنا، بل أي كائن بوضعية مستقيمة.

«إمّا أنك تسرق، وإمّا أنك تسافر» أقول له بحزم.

تبرق عيناه كأنني قرأتُ أفكاره.

«كلا الأمرين، يا طوني. سأغادر من هنا، وإلى الأبد. سأذهب إلى برشلونة» يقول لي مثل سندريلا أمام ذلك الأمير النذل، بعينين تومضان وترمشان لا إرادياً. عيناه تحلمان رغم أن هذا الفتى ابن الثمانية عشر عاماً لديه كل حياته أمامه، وهذا ما يجعلني أغضب أكثر. فتخرج الكلمات كالصخر، ثقيلة وحتمية.

«حسناً تفعل، في لاس رامبلاس ستجد أفضل العاهرات في العالم» أقول له، وأنا أعلم ما أقول.

«لا يهمّني هذا الأمر. سأذهب إلى برشلونة؛ لأنني أريد أن أصبح مصارعاً للثيران» هذا المخبول لا يمزح، إنه يتحدّث جدّيّاً، ونحن نصدّقه! ثمّ يقولون عني إنني غريب الأطوار.

لكنني لا أرغب في الضحك والسخرية منه؛ إذ إن قاعدتي الأساسية في هذه الحياة أن أتميّز عن هذا القطيع من أبناء مدينتي الذين لا أحتملهم. وأعرف جيداً كم ضحك أولئك المعاتيه حين قصّ عليهم هذا الفتى أحلامه. ضحكوا رافعين أفواههم إلى السماء بكل ما فيها من تسوّس، وإلى آخره من هذا الكلام المقيت الذي يليق بأطباء الأسنان. ولهذا لا أضحك، بل أتقدم بكل أصالتي، أنظر إليه بجدّيّة، ولا ألفظ أي كلمة. أكتفي بإخراج محفظتي الذهبية، أستلّ منها مائتي ألف ليرة، وأدسّها في جيب معطفه.

«لا تتحدث هكذا، يا آتيليو، حين تذهب إلى بلد آخر، ستكون العاهرات أول وآخر أصدقائك، ولهذا السبب، ستنفعك هذه النقود. كي تحظى بصديقة.»

ماذا أقول؟ لقد أربكتُه، فوفّرت عليه إجابة سخيفة ومستعجلة. يغيظني عزم الشباب، لكن كلماته لا تصل إلى مستوى أن تصدع رأسي. وبالفعل ينظر إليّ كأنني عرّفته على امرأة حياته. سيكون امتنانه لي حارّاً، لدرجة أنه لن ينام طوال الرحلة في القطار، وهو يذكر هذه اللحظة مثل فيروس الثور الذي ينخر دماغه. سيكون واثقاً من أنني الشخص الوحيد في العالم الذي وقف معه في هذه الفكرة، مصارع الثيران السخيفة. ولكنْ؛ من يدري! لعل هذا الولد المخبول يصبح أول وأشهر مصارع لا يحمل الجنسية الإسبانية، وحينها أودّ أن يُذكر اسمي بما يليق في سيرته الذاتية.

لو أمعنّا النظر في مصارعة الثيران؛ لوجدناها فكرة شاعرية، بحد ذاتها. حتّى فكرة المغادرة في الخامسة فجراً، تحت هذا البرد المظلم القارص. قد أستلهم هذا المشهد لكتابةِ أغنية جميلة. المشكلة أن الشخص نفسه لا يقنعني، يرتدي كنزة صوفية؛ ليثبت أنه رجلٌ نكرة.

ينصرف بعد أن مدّ إليّ يده، لكن صاحبكم طوني ليس بارعاً في المشهد الحساس، إنما في المشهد المضاد أيضاً. لا أصافحه، بل أربّت على كتفه دون أن أنظر في عينيه منذئذ إلى الأبد، بل أصوب نظري إلى سيارة الكاديلاك الحمراء المكشوفة التي من حظها السيئ أنها مركونة بجانب هذه السيارات الخرائية التي يشبه بعضها بعضاً، كأنّ المرآب في برلين الشرقية. أغطس في سيارتي الرائعة الشبيهة بمارلين مونرو، ولا أكفّ عن الدهشة من مقاعدها الأرجوانية. بينما يُهرع الشاب مسرعاً، دون أن يغلق البوابة، بحقيبتين ثقيلتين، لن ترافقاه طويلاً؛ لأنه سرعان ما سيغطّ في عزلة قميئة. لكنه لا يعلم ذلك، لأن عمره ثمانية عشر عاماً، أقسى الأعوام على الإطلاق. لم يعتد - بعدُ - على الحياة، كأنه يتيم، يتمنّى الموت، فيصوم عن حيوية التفاصيل اليومية. لا يزالون أولاداً في حاجة إلى الكثير من الأمهات. لكننا نبقى أولاداً إلى الأبد، هذا هو العذاب الأليم. كانت أمي تقول إن المصائب لا تحرمنا من رفيق طيب. كانت تعلم ما عندها، وما عند غيرها أيضاً. في تلك السنّ الملعونة نرتكب سلسلة من الحركات الطائشة، سرعان ما تُجهض؛ كي نفقد الشعور بالجوهري، ونتأرجح كمصير النملة. ليست هذه بداية موفقة طبعاً. ليست إلا نهاية في غير أوانها. كم من الشبان استسلموا أمام دهشة الاكتشافات التي لا تمنحهم فرصة أخرى. كان والدي يقول "الحياة أمامك"، لكننا في سنّ الثمانية عشرة لا نفهم هذه العبارة البسيطة. علاقتنا مع الوقت ليست ثابتة، بفعل التخدير والزيف والشعور بالخلود. وهذا ما أعدّه من أكثر جرائم الإنسانية خطورة، كأنك تبيد عِرْقاً كاملاً، جريمة تحتاج إلى ألف محكمة دولية. والحقيقة القذرة أن تفهم ماذا يعني أن الحياة أمامك حين تصير كلها خلفك. وحينها يتكاثر الإنسان؛ ليصبح قبيلة من الندم. لكن هذا لا يبطل مفعول الحياة، بل يفرغها من مضمونها فقط. يدفعها برفق نحو مقبرة مليئة بالجثث والخبرات الإنسانية المتراكمة.

مَن خلق الحياة؟ إنه ساديٌّ مدمنٌ على أردئ أنواع المخدّرات.

والدماغ أقل دهاءً وحيوية ممّا يريد العلماء أن يثبتوه لنا. إنهم يكذبون؛ لأنهم في حاجة إلى تمويل دائم؛ كي يمارسوا هواياتهم الرخيصة. ويعرفون حق المعرفة أننا سنغدق عليهم بتمويل دائم من مدّخراتنا. التمويل كله نتيجة أوهام بعض العاهرات والزبائن الذين يكتشفون الخلود في أعماق المرض العضال.

استبدلت الغيار الآلي بالغيار التقليدي في سيارة الكاديلاك. كلّفني الأمر كثيراً، لكنه كان ضرورياً. فالغيار الآلي السخيف والمجنون يناسب أولئك الأمريكان الكسالى ذوي الكروش البدينة. يخرجون من بيوتهم باللباس الرياضي، يذهبون إلى العمل باللباس الرياضي، ويعودون إلى بيوتهم باللباس الرياضي، وداخل البيت لا ينزعون ذلك اللباس الرياضي طبعاً. أصاب بالإعياء حالما أرى رجلاً يرتدي اللباس الرياضي، كأنني مريض يتسكّع في أروقة المستشفى بين النقّالة وأوعية المياه المقطّرة بحثاً عن مرحاض قذر ومشغول دوماً. إن أردت أن تحقد على اللباس الرياضي، فادخل إلى السجن. هناك حيث لا وجود للمشاعر الإنسانية. تبدأ بإهمال لحيتك، تشمئزّ من الألبسة الأخرى حتّى تكتشف اللباس الرياضي، تطول مدّة الاحتضار على وقع البرامج التلفزيونية المخدرة، إلى أن تصل الذروة حين تتأرجح على حبل ثخين معلقاً بين عنقك وأنبوب الدوش. رأيت السجن عن كثب. لأشهر طويلة. تهيمن رائحة الموت على روائح الحشود. وتأخذ فكرة أعمق عن تفسّخ الحياة إذا اطلعت مرغماً على حالة المساجين المتدهورة. داخل السجن ما يكفي أي إنسان ليفهم كيف تجري الحياة في الخارج. فمشكلة السجن ليست في نقص الحرية، بل في الإحساس بالتجاوب الخطير بين الحريتين، تلك التي خلف القضبان وتلك التي أمامها. إن السجن مدرسة عريقة في فن التجانس. ومهما يقال عن السجن، وكما في كل المدارس التربوية الرائدة، فإن دروس السجن لا تبدو حقيقية. فالدرس المتكامل يُشعرك بالإحباط. وحين تخرج، تتزعزع أسس العقلانية في وجدانك. وفي أعماقك تحنّ إلى العودة إلى السجن؛ كي تتحقّق من صحّة دروسه.

يتعذّب السجين السابق من الفضول والاستغراب. يناضل كل يوم، بلا راتب شهري، ضد لغز المعرفة، إن حصل على خبرة الحياة الإلزامية.

السجن يدرّب ويؤهّل على أعلى المستويات لارتكاب جميع الجرائم. ويؤدي دوره بإخلاصٍ مشكوك بجودته؛ لأنه إجرامي أيضاً.

وما أزال أتألم من تلك الفكرة، بلا انقطاع أو هوادة: هنالك دُرج فارغ في رأسي.

لا وجود لأحد في الشارع حقاً. أطوف في الحيّ الفارغ الذي يبدو كقفص من البنايات. الجميع نيام الآن، أو يسهرون على ويل الذكريات في ظلام بيوتهم. صدّقوني إن قلت لكم إنني أطوف منذ نصف ساعة، ولم أصادف أحداً. تطبق عليّ هذه المتاهة الإسمنتية، ولم أعد أفكّر في البحر دون أن أدري لماذا. وأخيراً أرى شخصاً ما لوهلة يدخل إلى منزله، يكاد يناهز الثلاثين عاماً، طويل وبنيته رياضية. لا يشبهني أبداً، إذ يبدو متصالحاً مع الحياة بشكل مريع. ورغم هذا تلمع في رأسي فكرة واضحة ومكثفة: «إنني هو» أقول لنفسي سرّاً. لكنه لا يشبهني في شيء، فأنا أعرض آمالاً ومرايا مشوّهة على أول مارّ أصادفه، لا يغرق في وعاء الضيق مثلي.

في السادسة والربع، أصل إلى نتيجة. سأذهب لزيارة أستاذي، ذلك الذي علّمني ألف باء الحياة. ومن المعلوم أنني اعتمدتُ على نفسي بعد حرف التاء مباشرة. وكنتُ أقفز من تجربة إلى أخرى برشاقة المَكَرَة. فالماكر بارعٌ في القفز حتّى لو سها أحياناً، ووقع في المستنقعات. لا أحد يعلم أين تبدأ تلك المستنقعات، مثل النباتات البرية. ولا يعتمد الماكر على العدالة، إنما على المصادفة، وهذا سيئ بالطبع.

تفتح لي الباب أخته، ووجهها منهار من النوم، امرأة صغيرة الحجم بين السبعين والثمانين عاماً، ليس لديها ما تقوم به في الحياة، امرأة ضحّت بحياتها؛ كي تعتني بأخيها المايسترو ميمو ريبيتو، أستاذي.

الرجل الأسطورة.

الساعة السادسة والربع صباحاً، وميمو مستيقظ بطبيعة الحال؛ لأن الأرق ظلّ يئزّ في صدره مدى الحياة، مثل ذبابة إفريقية. ثمّ إنّ ميمو يكاد يحليّ المشروبات الساخنة بحبوب المنوم، لا تؤثر فيه شيئاً، سوى أنها تفتح عينيه، كأنهما مثبتتان بأعمدة البالافيت التايلندي بقوة وديمومة.

أدخل إلى الصالون، فأجده مغطّىً بإزار أصفر ذي جودة عالية، جئتُه به من إحدى جولاتي الغنائية في فنزويلا. الإزار نظيف ومرتّب، يحنو مثل المطرقة الناعمة على جسمه المنهك بتسعة وسبعين عاماً، عاش خلالها الحياة كما ينبغي. ذكريات ريبيتو ليست بالأمر الهيّن. يداه ملوّثتان بفعل البهاق الذي أخافني دوماً، لكن أصابعه... آه، أصابعه بمثابة رواية سلسلة، طويلة ورفيعة كمبضع الجراح، وها هي الآن تحيك الأنغام على البيانو الأسود في السادسة صباحاً. لا ينظر إليّ؛ لأنه يركّز على البيانو مثل رائد فضاء في مهمته الأولى.

يعزف مقطوعة لباخ، تقول لي أخته بنبرة المبشرات في الصليب الأحمر، فأنا أجهل هذه الموسيقى. تنظر إليّ، وتهمس ثلاث مرّات بسموّ وخفة كعصفور استوائي نادر:

«باخ، باخ، باخ».

تستمتع كفاسقة، بشيء لا تعرف القيام به. أما أخوها؛ فهو بارع في هذا. العالم مليء بأشخاص مثله، يتأصّلون في الظل بحجة الخدمة، يتحوّلون إلى قشريات ممانعة، تقاوم التأكسد. تعود العجوز إلى سريرها دون أن تضيف شيئاً إلى تلك المعلومة.

لا أنبس ببنت شفة، فالقانون يؤكد على أن الحَمام وغسالات الأطباق في الحيّ كله تخرس حين يعزف المايسترو. أدنو قليلاً؛ كي أنهل من ذلك النبع السخيّ، فأرى أنامله تحلّق وترفرف بلا هوادة، وبإتقان عنيد على أصابع

البيانو البيضاء والسوداء. كأنها قصيدة، دانتي، ليوباردي، كاردوتشي، كلهم معاً، يتنزهون يداً بيد، بانسجام تصنعه أنامل المايسترو العظيم. تخفت شاعرية هذه القصيدة حين أقترب أكثر، وأكتشف أنّ القسطرة معلّقة بجسده الهزيل الذي يتهاوى قطعة قطعة، مرتخياً كقارب مطاطي مثقوب.

يا للحزن، لو تعلمون أن هذا الرجل كان قادراً بألحانه أن يهدم زواجاً، دام لخمسة وثلاثين عاماً. كانت النساء يتعاركن بالجودو والكاراتيه؛ كي يحظين بليلة واحدة مع ميمو ريبيتو. لكنني أحدّثكم عن أعوام بعيدة سالفة.

وكلما أسرع في مقطوعة باخ، اهتزّت القسطرة بشكل خطير، فأخشى أن تنفصل، ولا أعرف كيف أعيدها إلى محلّها، ويتوجّب عليّ أن أنادي أخته، ولا أتمنى أن أفقد معلمي، ريثما تستيقظ تلك العجوز، وتُهرع لإسعافه.

والحمد لله أنّ القسطرة تقاوم الموسيقى.

ينتهي من عزف المقطوعة، كأنه يستيقظ من حالة غيبوبة تأملية طويلة. يتصبّب عرقاً كطفل، ينهي مباراة كرة القدم. وبحركة سريعة، يلوّح بأصابعه في الهواء، فتبدو كأنها سياط. حركة بارعة وجميلة جداً. وأخيراً ينطق: «هات الوعاء، يا طوني.»

ما فائدة هذه القسطرة المنيوكة، إذنْ؟ ومَن يدري! قائمة الأمراض التي اجتاحت جسد هذا الرجل تقع في ثلاث صفحات على الأقل من دفتر مسطّر بالمربعات. حتّى طبيبه الذي يلازمه لا يذكر جميع أمراضه. فكل يوم يمر وميمو على قيد الحياة بمثابة ظاهرة، تُدهش عالم الطب.

لكنني أتفهّم أنّ مَن يعزف مطولاً في عمره لابدّ أن يتبول حتى لو كان المايسترو . أمدّ إليه الوعاء، وهو يتربع على كرسيه المتنقل. يضعه في الأسفل، وبينما ينبثق ذلك الصوت المعدني المزعج، يقول لي بسكينة:

«لديك مشاكل كثيرة، يا طوني.»

لا يعزف كالرب فقط، بل إنه يقرأ الأفكار التي تحوم في رأسي الشفاف.

«لا. بل إنني على موعد مع جولة غنائية مهمة للغاية، وطويلة، وستبدأ قريباً جداً».

لا يصدّقني، يركّز النظر فيّ للحظة، بلا اهتمام، ثمّ يكرر الجملة نفسها، وبات مقتنعاً أكثر:

«لديك مشاكل كثيرة، يا طوني» يمد إليّ الوعاء الذي تفوح منه رائحة البول، ولا أعرف أين أذهب به، فأضعه على الطاولة أمام الأرائك، وأفسح له المجال أمام مجموعة من النفائس الفضية.

وليتني لم أفعل هذا، فها هو يغضب مثل الضبع.

«ماذا تفعل، أيها الأبله؟ هل ستترك هذه القذارة على طاولة الصالون؟ ألا تسدي إليّ معروفاً، وتفرّغ الوعاء في المرحاض؟»

لم أفكّر في هذا. أتجه نحو المرحاض مسرعاً، ثمّ أخفّف سرعتي، إذ عليّ أن أتحرك بحذر كي لا يقع البول هنا وهناك. وقد يتلطّخ حذائي المخمليّ الجديد، سترك، يا ربّ. وهكذا يصبح عبور الممر الذي يفضي إلى المرحاض عملية مضنية وطويلة، مثل عبور نفق الجبل الأبيض سيراً على الأقدام.

أتصبّب عرقاً أنا أيضاً حين أعود إلى الصالون بعد تلك التجربة في المشي كالبهلوان. ميمو يدير لي ظهره، متهالكاً على كرسيه المتحرك، ينظر إلى الخارج عبر الزجاج. قبالة بيته هنالك بناية قبيحة جداً. ومن جهة أخرى، أفكّر: وما المدينة سوى تزاحم أبنية قبيحة؟

«تعال، وانظر» يقول لي.

أقترب من كتفيه. يشير برأسه إلى النافذة الوحيدة المضاءة في جميع طوابق البناية المواجهة. فأرى في ذلك البيت رجلاً وامرأة في الثلاثينات

من عمرهما يرقصان الفالس. لا يمكنك أن تغمض عينيك إزاء هذه الظاهرة. هذان المجنونان، في السادسة والنصف صباحاً، يرقصان الفالس، برشاقة وعزيمة. ثياب النوم تدخل للحظات وجيزة في تاريخ الفن.

لا يبتسمان، بل يركّزان في الرقص كالمومياء.

وربّما ما إن ينتهي الرقص حتّى يحلق هو ذقنه، وتستحم هي تحت الدوش، وهكذا يبدءان نهاراً من العمل الوظيفي شبيهاً بالنهار السابق. لا أجد كلمات بوسعها التعليق على ما أرى. إنهما يوزّعان السعادة، فالأجساد الراقصة من أروع الأعاصير.

«يرقصان كل صباح. وأنا كل صباح أشاهدهما. وفي كل مرّة، أقول لنفسي: حانت ساعة الرحيل عن هذه الحياة البائسة» يقول ميمو ريبيتو ليقطع أنفاسي إلى الأبد.

إنه على حقّ، وكيف لا؟ رغم هذا أبحث عن كلمات؛ كي أدخل في موضوع النقاش، ولكنْ؛ عبثاً، لأن ميمو يفكّر الآن في شيء آخر. أتلعثم محاولاً أن أعيده إلى اليابسة:

«يا ميمو، أنا... أنا...»

يستدير حول نفسه بكسل شديد؛ ليحدّق في عينيّ. استدار بسرعة مائة وثمانين درجة، وأنا أرى القسطرة كيف تتحرك من وضعية عمودية إلى أفقية، يرفع القسطرة عالياً، بحركة حرة، مثل ربان القارب الشراعي، يشير بذقنه المدبب.

«البروستاتا» يصرخ كيوم القيامة في أول دقائق الصباح «البروستاتا هي أعظم مشاكل الإنسان المعاصر.»

تفوح روائح المجلات الطبية من هذا التعريف. لكن أحداً لا يستطيع أن يقولها، كما قالها هو. حين يتكلم ميمو، بأي أمر تافه، يلقى - مباشرة - آذاناً

صاغية ومتلهّفة ممّن يحيطون به، بينما أنا بذلتُ جهداً حثيثاً في حياتي؛ كي ألقى اهتمام من حولي مستخدماً الوكز ولفت الانتباه كالمهرجين. ليس لأنه عجوز، ففي شبابه، لم يكن السكوت يهيمن إلا حين يفتح فمه، يتوسط الجموع كأنه نار السمر في ليالي الصيف على الشواطئ. وهذا الفارق بيننا يزعجني كثيراً، بوسعي أن أقتله وكزاً.

لكنه لم يحظ بحفاوة على مسيرته الفنية العظيمة. فالحفاوة يلقاها مَن لا يفضّل أحد الاستماع إليه؛ لأنّ الناس تتفاوت خبراتهم في الحياة، يبرّرون فشلهم بانعكاس ظلهم في ذلك الرجل الذي تسلّط عليه الأضواء. يصفونه بالبارع، لتبرير سعر البطاقة. ولكنهم، في ثنايا أرواحهم، يهمسون: ليس له قيمة سوى أنه أكثر منا حظاً.

أيّ حظّ، أيها السفلة؟ إن كنتُ بمفردي على الخشبة، وأنتم متكدسون على المقاعد، فهذا لأنني أفضل منكم ببساطة. وهذه الأمتار التي تفصل بيننا تكشف عن هوّة سحيقة ظلماء، ليس بمقدوركم إدراكها.

لم نتجاذب أطراف الحديث بعد تعريفه عن البروستاتا. كان يشعر بالظمأ، فذهب إلى المطبخ؛ ليشرب كأساً من الماء، ورأيته يبتعد على دراجته ذات العجلات الأربع. تبعته بنظراتي. كان يشرب، وينظر إليّ، فأشرت إليه بتحية وداع. أغمض عينيه، وبهذه الحركة استطاع القيام بشيئين في آن واحد: ردّ عليّ التحية، وتمتّع كثيراً بشرب الماء.

لم ينته الصباح بعد. حين أغلقتُ باب شقّته خلفي، توقّفتُ لوهلة على المداسة. وفكّرتُ بأنني ارتكبت حماقة بزيارة ميمو ريبيتو. ولهذا السبب استنشقتُ القليل من الكوكايين على المداسة التي نُقش عليها "أهلاً بكم".

أصابني الضيق من نفسي، ووجدتني مرّة أخرى في الشارع. متعب، لكنني لا أشعر بالنعاس. نناضل بأجسادنا في هذه الحياة. نضعها قيد التجربة. يصعد الكوكايين إلى رأسي دفعة واحدة، يصفع وجهي كموجة

عاتية، وينتابني التقيؤ. لكنني لا أتقيأ منذ العام ١٩٦٥ للدقة حين تعلّمت الكثير من الأمور.

زالت مظالم البرد، وأشعر بأن يومي انتهى رغم أن الساعة لا تتجاوز الثامنة صباحاً بعد. يستيقظ الشعب في هذه الأجواء الضبابية؛ ليباشر حياته. لا أعود إلى المنزل، وماذا أفعل هناك؟ هل أرى عيني زوجتي المدبّبتين، وهي تريد الانصراف بعيداً عني إلى الأبد؟ لا أرى هذا منصفاً. إن لم أكن زوجاً صالحاً، فهذا لأنها لم تكن زوجة صالحة هي أيضاً. هكذا تبدأ الحروب، نتبادل التّهم، ويقول أحدنا للآخر: «أنت الذي بدأت». وتتبخّر الأرواح، واحدة تلو الأخرى.

وقد يحدث غالباً، عن طريق الصدفة طبعاً، أنّ درب الضنى لا يبخل عليك ببصيص ضوء حقيقي. وفي هذه الساعة المنيوكة الضوء، يدعى سامانتا. أعرفها من مؤخّرتها التي تخطل بفرح ومرح على الرصيف. مؤخّرة تملأ القلب بهجة، تقفز أعلى وأسفل كضابط إيقاع برازيلي. مؤخّرة سامانتا التي لم تتجاوز السابعة عشر عاماً عبارة عن رقصة سامبا حقيقية. أركن السيارة خلفها تماماً.

«عليهم أن يلغوا الذهاب إلى المدرسة التافهة» أقول ببلاغة.

فترميني برشاش من الابتسامات السريعة، حتّى تبدو كأنها ابتسامة واحدة.

«طوني، طوني» تولول كالشمس بين رماد الأبنية المرتفعة.

«اركبي. سأوصلك إلى المدرسة.»

ولا أكاد أنهي عرضي حتّى تثب برشاقة، وأجدها بجانبي داخل السيارة. رشاقة الفتيات أروع من يوم القيامة؛ لأنها من النوادر التي تمحو معارفك الراسخة.

«هل كنت ذاهبة إلى المدرسة حقاً؟» أسألها.

«الآنسة تارتاليا العاهرة تريد أن تمتحنني في الخطّ المجموع خلال الساعة الأولى».

«لا فائدة من الخط المجموع، لقد قلتُ هذا مراراً».

«لقد أحسنت قولاً» تساند رأيي.

«وحتّى الساعة الأولى لا فائدة منها. علينا أن نبدأ دائماً من الساعة الثانية، وهذه القاعدة تصلح لكل شيء.»

«أحسنت قولاً هذه المرّة أيضاً» تقول كاشفة عن أسنان ناصعة البياض، تغشي بصري، وتهدّد حالتي الجنسية.

أنعطف إلى شارع تراكيا؛ حيث يوجد ضباب كثيف ومنخفض بشكلٍ لا يصدّقه حتّى عيسى المسيح، إن أخبره بهذا أبانا الذي في السماوات. يهبط الضباب كل صباح على شارع تراكيا فقط، ومَن يدري لماذا. لكننا نجتاز الشارع بشجاعة. تجمّع شعرها الأسود الطويل، وتعقده بربطة كانت تضعها منذ هنيهة بين أسنانها، وتقول لي:

«تارتاليا ستعذبني اليوم، كان عليها أن تمتحنني في الأمس، ولكنني لم أذهب إلى المدرسة أساساً».

«أحسنت فعلاً، حباً بالله» أقول بتصميم المربيّ الفاضل الذي لا يقبل أعذاراً.

أتوقف أمام مدرستها، بينما يدخل المدرسة شرذمة من الطلاب المدجّجين بالبثور على وجوههم كالنجوم في السماء.

تلتفت سامانتا نحوي:

«طوني، هلا وقّعت نيابة عن والدي على تبرير الغياب؟ لقد فعلتُها بنفسي في المرّة السابقة، لكن تارتاليا أنّبتني، واكتشفت أن التوقيع مزور.»

يغلبني التأثر، أو يكاد.

«هذا شرف لي» أقول بصراحة.

تمد إليّ القائمة، تريني توقيع والدها الذي تتعامل معه كمرجع، أمسك بالقلم بتركيز صانع الساعات. لا بأس بشكل التوقيع. أراه مقنعاً، وقد حلّ الرضا على ابتسامتها.

«شكراً، يا طوني، والآن سأنزل. سأذهب لأراجع الدرس في مرحاض المدرسة».

يجول الدم في عروقي مسرعاً؛ ليصبّ في جهازي التناسلي على وقع هذه الجملة. أشعر بإثارة فريدة من نوعها. تشتعل الحرارة في قدمي. يا لمشاكل الدورة الدموية، كيف تتلاشى دفعة واحدة كالطير الشريد.

لا تدوم هذه اللحظة طويلاً مع الأسف. تقترب؛ لتقبّل خدي، فتتلامس شفاهنا، ولا يثنيني عنها الزلزال. قبلة فموية في الثامنة والربع صباحاً، ما أجملها. لسانها الفتيّ الرشيق يقتحم فمي. وهذه ليست المرّة الأولى التي نتبادل فيها القبل هكذا. تتأوّه برفق دون أن تعير اهتماما لهذا، فأنا لا شيء بالنسبة إليها. إنني في عينيها ظاهرة غريبة، تأتي من بلاد بعيدة، تمدّها بهالة من اللغز، تتفوق بها على صديقاتها خلال الدردشات الحميمية، في الحمّامات المليئة بالضجيج. هناك حيث يدخّنّ السجائر، وتبوح إحداهنّ للأخرى، فتفوز مَن كان في تجربتها أكبر عدد من الغرائبيات قبل الدوام. وأنا واحد من غرائبيات ساماتنا. ذلك البالغ المغوار الذي يلاحقها بسيارته العجيبة. أتجاوب بدقة مع الشخصية. أنا مَن يزيد شهرتها وشعبيتها المدرسية، لا أكثر، ولا أقل. ولكنْ؛ علينا أن نقبل بما أوكل إلينا، وقد يغدو

الترهّل نموذجاً محبّباً لدى الرسّامين المرضى مثل باكون وبيكاسو. ومع هذا، فإنني مستعد أن أقدّم حياتي قرباناً لنشوة جنسية مع ساماتنا. تلمس قضيبي بيدها، وقد لا تكون الحركة متعمّدة. يد صغيرة، تفوح منها رائحة الحليب المركّز. ثمّ تنزل من السيارة على عجل، وهي تحرك مؤخرتها كالملكة.

لم أبلغ النشوة.

فكما كانت والدتي تقول: لا يمكننا أن نحظى في الحياة على كل شيء. أمي التي لم تحظ في الحياة على أي شيء.

أغمض عينيّ، وأحاول أن أستشعر رائحة يد ساماتنا، لكن الحليب المركّز تلاشى، وحلّت محلّه رائحة النسكويك التي لا تمتّ ليدها بصلة.

على أبواب الشيخوخة، حاسة الشمّ أوّل الخونة.

ثمّ ذهبتُ إلى مكان آخر، متناسياً أنني نزلتُ لأشاهد البحر. لكنني لم أفعل؛ إذ ما يزال الدُّرج فارغاً في رأسي.

والبحر لا يوفّر حالة الشرود المناسبة، بل يجعلك تنزلق في الأفكار التي أودّ الفرار منها. عليّ أن أشرد وحسب. الشرود. الشرود أفضل ابتكارات الكائن البشري؛ ليستمر في الحياة. كي نتظاهر، بما لسنا عليه في الحقيقة. كي نتكيّف مع هذه الدنيا.

-٧-

فليأت الإعصار مطوقاً

بالرعد

لا أؤمن بالحياة

المسالمة

لا أؤمن بالغفران

بيرانجيلو بيرتولي

«هات سيجارة» آمر تيتا بيدي الممدودة.

فيمرر لي سيجارة دون أن ينظر إلى وجهي. وآخذها منه دون أن أنظر إلى وجهه. يمرر لي الولاعة أيضاً، دون أن ينظر إلي. وبينما أشعلها، لا أنظر إليه، ولا إلى السيجارة.

مفهوم، فنحن نتابع مباراة نابولي - يوفنتوس. في استاد سان باولو.

أنا وتيتا وجينو وليلو ورينو وجيني.

جالسين في منصة الشرف، نركّز على المباراة العقيمة صفراً لصفر. ما يجعلنا نغرق في بحر من التوتّر والضجر بصحبة ثمانين ألف متفرج منذ اثنتين وخمسين دقيقة من بداية المباراة.

أمامي بصفّين، توجد امرأة لا بأس بها، ترنو إليّ كل دقيقتين بنصف ابتسامة، تناهز الأربعين عاماً، جميلة جداً، من الطبقة البرجوازية. تبالغ في أناقة هندامها، ومن الواضح جداً أنها عرفتني لشهرتي. بإمكاني تمييز هذه

الأشياء. لكنني لا أقيم لها اعتباراً. أراقبها بطرف عيني؛ إذ سبق وقررت أن أبقى محصّناً من شعبيتي هذه المرّة على الأقل. ومع أنها تبعد عني مسافة سبعة أمتار، فإنني أفهم على الفور إلى أي نوع من النساء تنتمي. تتردد إلى هذا المكان العام والحيوي. أحكامها مسبقة بأفظع ما يكون. اشترت عطرها الفتان من أحد العطارين الذين يدعّون التميّز. هنا البخل مألوف، فذلك العطر يشوّش حاسّة الشّمّ، ويوحي بأنها بائعة مجوهرات متنقّلة، أو ربّة منزل، وزوجها غائب، تهدر وقتها بمكالمات طويلة مع صديقات، يهدرن أوقاتهنّ بمكالمات طويلة أيضاً. وأحاديثهنّ فارغة تماماً. أقصى ما يصلن إليه هو إجهاد عقولهنّ في التساؤل عن أي بيت يستضيفهنّ للعب الورق في العصرية قبل أن يشعلن الأفران احتفاء بعودة أزواجهنّ من العمل في المساء؛ ليتناولوا عشاء من جميع الأصناف. ويقضين أعمارهنّ خلف الفرن، ليس لأنهنّ يحببنَ أزواجهن، بل لأنهن يخشين المقارنة التي يهددهنّ بها الرجال بين زوجاتهم وأمهاتهم. وهذه المنافسة الشديدة بين الزوجات والحموات هي التي ترسّخ جذور الجمهورية الإيطالية، وتحافظ على استمرار الزواج بحدّ ذاته.

لكنهنّ في الصباح، يتخيلنّ النكاح، بينما ينظّفن الأرض، ويكوين الملابس. يثرثرن على مهل بين فخرهنّ باقتناء التلفاز الأول الملوّن والنميمة على نجاح أبناء صديقاتهنّ في الجامعة. وبعد أن يبلغن الذروة المعتادة يركّزن في ترتيب الثياب التي خرجت عن الاستعمال. يوجعن قلوبهنّ بالنفاق، ويعدن إلى موتهنّ اليومي. وما تلك الآهات سوى انحراف عن السّكّة قد يؤثّر في حيائهنّ.

والحبّ؟ لم يعد غيري أنا مَن يغنّي عن الحب. ولهذا يأتين لحضور حفلاتي؛ كي يتذكّرن الشيء الذي لا يعيشنَه منذ عشرين عاماً، أو على الأرجح لم يعشنه أبداً. كم يثير اشمئزازي أن يكون لديك صلات بأناس، لا يعرفون الحياة، وما إن تعطيهم الفسحة للتعبير، يخرجون عليك بقائمة طويلة عن كيفية التصرّف في هذه الحياة السخيفة.

لو أصغى إليّ هذا العالم؛ لاستطعتُ إيجاد المناسب من الكلام؛ كي أحطّم تلك الحياة المصمّمة على أسس الحركة العصبية. إنهم يعيشون حياة مبنية على الخوف. والأسوأ من هذا أنهم يخافون من أي شيء. يظنّون أنهم يستخدمون عقولهم في مقارعة الخوف، فيشترون بيتاً على البحر، وآخر في الجبل. وقبل أن يحققوا هذه الأحلام التافهة، يتألمون مثل الكلاب؛ إذ يتحول الألم إلى إحساس جسدي. لا يوجد فلسفة للحياة أغرب من هذه. بالمقابل، فإن حياتي، التي أعتبرها شاذة عن تلك القواعد، لها من القوة والتجانس والتناغم ما يجعلها شبيهة بحياة البابا أو حياة راهب تبتيّ. حاول أن تشرح الأمر لأولئك المتخلّفين الذين لا يهتمّون سوى بحركة حساباتهم الجارية خلال الستة أعوام الأخيرة. شعورهم بالرضا ينحصر في حيازتهم على دفتر الشيكات قرب أيورهم الرخوة أبداً. ومنصّة الشرف هذه مليئة بهؤلاء التعساء. ولا أنكر أنهم على حقّ نوعاً ما، فنحن نعيش تحت سطوة الخوف من أن ننتهي تحت جسر كالمتسوّلين، ونبتسم دوماً من الرضا بأن هذه الفرضية أثبتت عدم صحتها. وميولك إلى التشبّه بمَن لا يعيش حالة صعبة، قد يراه البعض غايتك السامية. إلا أن اهتمامك بآخر طرازات السيارات السخيفة ينمّ عن عقل صغير، يفكّر في يوم العمل خلال العطلة الأسبوعية حتّى الوصول إلى تلك السيارة المنشودة. وهذا القلق المزمن ما يجعل أصحاب المصارف يتعاملون معك بفوقيّة، تفضي إلى جرّك مذلولاً إلى شروطهم. هنا في منصّة الشرف ثمّة مَن يزدري أولئك المساكين المعذّبين، وأنا أرى هذا الازدراء مبرّراً ومفهوماً.

تغيّب جيني، واختفى في حمّامات الاستاد خلال الاستراحة. فراودتنا جميعاً الفكرة نفسها. وتبادلنا النظر - أيضاً - أنا وتيتا وجينو، كأننا نقول إنّ جيني ما يزال يتجرّع الهيروين الملعون. لكن أحداً لم يتكلم. بات أمره يعذّبنا كلنا، ويشعرنا بأننا أصغر ممّا نحن عليه في الواقع. نكنّ له الاحترام، ليس لأن لديه مشكلة، بل لأن لديه عالمه الخاص الذي لا يُدخلنا إليه. وهذا ما يُشعرنا بالدونية والعزلة. يضعنا في حالة تسلّل. لا نقوى على التواصل معه،

وهذا ما يؤرّقنا. عدم القدرة على التواصل هو أكبر ألم يباغت الإنسان، فكّروا بها! كل ما نفعله يميل إلى التواصل، لكن الجهد الذي نتكبّده مهول كجبال شاهقة، وأيّ محاولة للتواصل تبدو لنا - في النهاية - عديمة الأهمّيّة وبدائية حتّى تموت راضياً حين تكتشف أنّ ما قمتَ به هو أعظم أشكال التواصل. ولهذا لم يتشجّع أحدٌ منا على مفاتحته بالموضوع حين عاد. عالمه يثير اشمئزازنا؛ لأنه يتعالى علينا. نرزح تحت رحمته؛ لأنه يقضي علينا بمجرّد قيامه بشيء، لا يخبرنا به.

فلنتابع.

أنا - بالطبع - أفهم في كرة القدم، وحين أقول إن سبيجورين لا يفقه شيئاً، فإنني أنطق الحقيقة المقدّسة. لن ينجح فريق نابولي في انتزاع أي لقب، هذا واضح حتّى للأطفال في سنّ الثالثة. ولا أحد هنا يريد أن يدرك أن كرة القدم أمر جدّيّ مثل الرياضيات. أوكلوا شؤون النادي إلى حثالة من المخبولين، يتظاهرون بالحماس بدل أن يُتلفوا أدمغتهم بالمعادلات الرياضية. يؤدّون الأدوار الرومانسية، وتفضّلْ! هذه هي النتائج. تعادل خطير.

تفاهة تقذفني إلى مكان آخر.

«أين تذهب؟» يسألني تيتا.

«أليس لي شؤوني الخاصة؟» أتمتم بعنجهية. إنه يشعر بالوحدة ما لم أكن موجوداً. لا داعي للأطباء؛ كي نستنتج هذا. ما لم أكن بقربه، وأعامله بودّ، كما جرت العادة، فإنه لا يستطيع فعل شيء، يفكّر أن الحياة تفلت من بين يديه، وأنها عبارة عن هفوة. إنه مازوشيّ. هذا أسلوبه في العيش، ولا أستغرب أبداً. كما حين كنتُ أدخل السجن، وتأتي زوجتي لزيارتي، فأمرّ بأسوأ نصف ساعة في الأسبوع كله. تصل على الموعد كموظف كسول، وتسألني عمّا أفعله في حياة السجن. لم أكن أجيبها، لأن لا أحد لديه رغبة في أن ينظر إليه أحد في السجن، والاشتياق إلى حياة الخارج يكوي قلبك،

لكن الإجابة كانت واضحة كأشياء نادرة في هذه الدنيا الحقيرة. الحياة في السجن طريقة ككل الطريق لقضاء الوقت، هذا هو الحل الوحيد. لا أريد - الآن - أن أتفلسف، وأنا أقفِ على قدميّ وسط مدرج مكتظٌ بالجماهير، لكن الأمور تجري على عواهنها، ولم يعترض أحد على ذلك يوماً. في هذه المدينة، تهوي البنايات، ولا يعترض أحد، ففي النهاية سيأتي أحد الشجعان ذو نية حسنة، ويأخذ على عاتقه إعادة البناء أسوأ من ذي قبل؛ إذ لا يولد مازانيلو(*) من أجل هذه الأمور، كل شيء يعود كما كان سابقاً، ولكنْ؛ أسوأ بقليل، تشوّه طفيف، لن يفطن إليه أحد. أقصد من هذا الكلام أن رجلاً زائداً في السجن، أو آخر ناقصاً عنه، لا يغيّر شيئاً في حياة أحد، ولا حتّى في حياة السجين نفسه. هنالك شيء وحيد يغيّر حياة الناس برأي جميع المطربين ومؤلفي الأغنيات في العالم: الحبّ. ولكننا لا نؤمن به كثيراً؛ لأن الحب لا تطاله الأيدي أبداً، هذا ما لا تقوله الأغنيات، لكننا نعلمه جميعنا. الحب كالأفق الرصاصي. نحيا دون جهود كبرى، وحين نبذل جهداً سرعان ما ننساه. مَن يريد التفكير بأطنان الخراء التي نصنعها بكدّ؛ كي نبحث بعد ذلك في الظلام نحن أنفسنا عن مخرج منها؟

أمشي على طول سلالم منصّة الشرف؛ لأنني أريد أن أرى اللعب النظيف غير المتوفّر هنا. إنني لستُ مشجّعاً، بل إن مفهوم المشجّع يغضبني بعمق؛ لأنه يقرّبني من هذا الحشد من الأغبياء المتشابهين، فلا أقوى عليه لأسباب إيديولوجية عميقة.

وبينما أعتلي أولئك الأشخاص المتجمّعين على العتبات دون مقاعد مرقّمة، أنتبه إلى عنق تلك السيدة المبروم، وهي تتبعني بنظراتها، مشحونة بالعجب. تتجلّى نمطيتها النتنة أمامي كجهاز تخطيط الأمواج الدماغية، كلها مسطّحة. أنظر إليها بفتور. لكنني أعيد النظر في موقفي. هل تراهن أنها

---

*) مازانيلو أحد الأبطال الشعبيين في نابولي. قاد ثورة ضد فساد الحكومة العميلة للإسبان في القرن السابع عشر، أدّت إلى إصلاحات جوهرية رغم كونه من الطبقة المسحوقة. ومع الوقت، تحوّل إلى مضرب مثل وأسطورة شعبية في أوروبا كلها. المترجم.

ستتذرّع بحجّة لزوجها؛ كي تلحق بي إلى الخارج؟ كي تبلغ الذروة وسط ثمانين ألف متفرّج، يصرخون بأعلى أصواتهم بالخلفية "جوووول". ليست مغامرة سخيفة. ستكون بمثابة خلفية صوتية، لا مثيل لها. بوسعها أن تُدخلني في الشباك أنا أيضاً، حقاً، مرّة أخرى في الحياة، هذا ما أطلبه، مرّة أخرى على الأقل منذ أن غادرتني بياتريشا. أضغاث أحلام. أوهام لا حصر لها. ضربات على الرأس. أتمركز في الخارج كالأبله؛ كي أرى المشجعين غارقين في ثيابهم التي تتكدّس فوق بعضها حتّى ينعدم أي مفهوم للثياب، فتؤول جهود المصمّمين أدراج الرياح حين نجلس بارتياح؛ لنتابع المباراة. أشعل سيجارة، بانتظار السيدة، من هنا أرى حمّامات المنصّة المرقّمة أيضاً. تجتاحني فكرة قبيحة، وأنا في انتظارها: أينما اتجهتُ انتهيتُ دوماً قرب المراحيض، كأن طاقة تفوق الطبيعة تجذبني نحو قنوات صرف هذه الحياة وعفن الروح. الروح. هذا المصطلح الذي يستخدمه الجميع؛ كي يدّعوا أنهم أصحاب مشاعر، ولا أحد يعرف عنها شيئاً. مادة يستخدمها الوصوليون لتسلّق عتبات النجاح على عجل، فيظنّون أن مفتاح النجاح يقع في الروح حتماً. أباطيل. أناس لا يعون انعدام أرواحهم، ولم يأخذوا منها سوى سحر المصطلح وقوة المعنى. يا لهم من محتالين.

للحديث عن الروح، نحن في حاجة إلى ضبطٍ بملكية أرواحنا أولاً. وأنا لديّ صك بملكية روحي، أما الآخرون؛ فلا أعتقد. حذار من الروح إذا غضبت، فأنت تلعب بروحك؛ لتكتشف في الظلام أنك لا تستحق الحياة. وحينها تتوالى غارات الضباع عليك من علماء نفسٍ واجتماع. وتغدو روحك المزعومة مادة إحصائية وورقة بيروقراطية. فاتركوا أرواحكم بسلام، أيها الأموات، في جنازة بلا دموع.

فلنعد إلى موقعي الجغرافي. قرب المراحيض. غالبا ما لا يحصل شيء على الأفراد إذا اتجهوا نحو تجمّع الآخرين. ولكنْ؛ إذا فكّرتَ أن تذهب حيث لا يوجد أحد، فقد يتفاعل معك الظل، ويهديك مفاجآت صادمة. وهكذا إن

لم يحدث شيء مهم في الاستاد، فقد يحدث شيء ما في مراحيض الاستاد. كما حين تجد نفسك في حفلة شعبية، في الحفلة لا يحدث شيء، ولكنْ؛ ما إن تنظر إلى داخل المطبخ حتّى تجد الحفلة الحقيقية، الطباخون يتصبّبون عرقاً، النادلون خائفون، صراخ شنيع باسم الهرمية التي يحبّ جميع القادة صغار النفوس أن يردّدوها دوماً. فويل للثقة إذا تلامست الأيادي وسط الأطباق والقاذورات، وخلف قناني النبيذ المعتّق. حتّى غاسل الأطباق، الواصل الأخير، يغسل، ويتأمّل، وقد يفكّر في ارتكاب جريمة أيضاً، ثمّ يرسل الجميع إلى الجحيم؛ ليذهب للعمل في مكان آخر. بإمكانك أن تتطور في العمل هكذا أيضاً، أن ترسل أصحابك إلى الجحيم.

الخفلة شيء رائع. يفكّر المرء أن الصالة تشهد الحدث الأكبر. الرقص. لكن الرقص الحقيقي يحدث على السرير الزوجي؛ حيث يرمي الجميع معاطفهم. في جيوب ستر الآخرين تعشش أسرارهم وسيرهم. لقد فعلتُ هذا مراراً. لم أكفّ أبداً عن التفتيش في جيوب المعاطف والستر الجلدية. ليس لسرقة شيء ما، والعياذ بالله، بل كي تتأثر مشاعري في استكشاف تفاصيل الآخرين الدقيقة.

قضيتُ حياتي، وأنا أحارب حظيرة الخنازير الممزّقة والمسمّاة بالطبقة البرجوازية الصغيرة، ولكنْ؛ صدّقوني، إنها معركة خاسرة. إنهم يقاومون أكثر من الدبابات. لم يهدني مرحاض الاستاد شيئاً، ولا حتّى واقياً ذكرياً مستهلكاً؛ كي ألعب بصور بائدة ما تزال تدغدغ أفكاري. وهكذا قرّرتُ الذهاب إلى بيت ريتا فورميزانو، ملكة الضجر، بلا منازع.

لم تأت السيدة، ربّما كانت تخشى من خسارة المزايا الاجتماعية التي اكتسبتها بجهد جهيد كعمّال المناجم. أو قد تخشى ألا تجدني، فتصطدم بأحد النصّابين الذي سيحاول سرقة سترتها الجلدية التي حصلت عليها بعد أن توسّلت إلى زوجها الأطرش بفعل التهديدات على المائدة أو السرير. اختارت الحفاظ على سترتها الجلدية على أن تستلم لإغواء المطرب الشهير.

تستقبلني على طاولة الكيّ المفتوحة، ووجهها المرهق بفعل عصر يوم الأحد الشبيه بكل الأيام التي استهلكت سريرة ريتا. لا مجال للحبّ، وأنا أفضّلها كأقوى شريك في لعبة البوكر، ليس إلا. ولداها ينامان مخدّرين بالواجبات المنزلية، حمداً لله.

تضع فنجان القهوة في يدي، وتعذبني بشكواها التي استهلّتها منذ ثلاثة أسابيع حتّى لم أعد قادراً على سماعها. تخوض ريتا حرباً صليبية خاصة بها وحدها، وهي على علم بذلك. لذا؛ تراها تكثر من الذهاب إلى المصحة النفسية، تبتغي الشجار حتّى خسرت كل المقرّبين، وانتهت بالشجار مع الأشباح. وهذا ما يجعلها مجنونة، وأكثر ضعفاً ممّا هي عليه. منفصلة عن زوجها، وتدخل سن اليأس. وها هي تحمل المكواة بيدها، وخلفها جدار أبيض مرتفع، لا تعتليه أي لوحة، سوى تقويم الراهب أندوفينو النابوليتاني في الزاوية اليمنى. بدأ الحزن يغرقني، فما إن أرفع بصري حتّى يعميني الطلاء الأبيض الباهت وصور الراهب بجانب سعف نخلة يابس منذ الفصح الماضي. كيف لها أن تعيش في كل هذا الغياب وهذا الفتور؟

أما المشكلة العويصة؛ فهي على الشكل التالي: منذ ثلاثة أسابيع جاءت أختها لزيارتها مع ابنها الصغير الذي غفا على الأريكة، وتبوّل في أثناء نومه. تعتذر أختها، لكن ريتا لا تريد أن تناقش، وتطلق ترّهات بلاغية ضد أختها، كأنها ارتكبت فظاعة في غاية الخطورة، تقول لها إن الأريكة تحوّلت إلى كارثة بهذا البول، وإنها لا تعرف تربية صغيرها، ولا تود رؤيتها ثانية. أختها لا تفكّر مرّتين، تنعتها بالبائسة والشريرة، وهي أيضاً لا تود رؤيتها ثانية. ويحدث الآن أن أختها تطوف على هواها من بيت لآخر؛ كي يتبول ابنها أينما أراد، أما ريتا؛ فلا تنسى، بل تعذّب نفسها في غضب مزمن ما يزال يستعر ضد أختها. لكن الشعور بالذنب يطحن جسدها المكتنز تحت ثوب المنزل الذي يخفي بدانتها. فقدت أسطورة البول على الأريكة نكهتها، وأصبحت مبتذلة وبائدة،

ولكنها القصة الوحيدة التي جعلت لحياتها معنى. وهكذا تعذّبني: «ماذا عليّ أن أفعل، يا طوني؟»

تطرح هذا السؤال منذ ثلاثة أسابيع، وأنا أتظاهر بضرورة التسامح، وأخفي حقيقة أفكاري؛ كي لا أخسر شريكاً، لا يُشقّ له غبار. لكنني أستطيع الكذب مرّتين، أما الثالثة؛ تخرجني عن طوري، فأنفجر، وأفرّغ كلّ ما تراكم في صدري. هذه طباعي. والآن أنطلق بسرعة البرق دون مكابح، وأقول لها بوضوح وعزيمة تامة:

«كفى، يا ريتا، لقد دمّرتِ خصيتيّ بهذه القصة. أنت مخطئة. أختك تقول إنك من البرجوازية الصغيرة، لكنك أسوأ، فأنت أصغر من أصغر برجوازي صغيرٍ دميم، طباعك نتنة. هل يبدو لك طبيعياً أن تغضبي إلى هذا الحد من فعلة طفل بريء؟ ما الذي تحتويه هذه الأريكة الملعونة؟ هل هي مغطّاة بالبلاتين؟ لقد نظّفتها، وعادت كما كانت، أنا لا أحتمل الأطفال، وهذا ينطبق على جميعهم، ولكنْ؛ ليس من حقك أن تعذّبي أختك، وتعذّبيني بقصة تافهة من هذا النوع.»

تنظر إليّ بفم مفتوح وعينين جاحظتين، لا تقاوم الهجمة المرتدة، وأعرف جيداً أن رأسها الأبله الذي تحمله فوق جسمها المترهّل يصيغ سخافة أخرى أكبر حجماً من تلك السابقة، ما يعني أننا جميعاً نتآمر ضدها، أنا وأختها مثلاً التي لم أقابلها في حياتي. ولهذا كنتُ أقول لكم إن المعركة ضد الطبقة البرجوازية الصغيرة خاسرة من أساسها، إنها طبقة تنمو في أحشاء الأرض تلك التي لا يصل إليها الله بقدره وجلاله، لا ينفع معهم إلا الاغتيال عبر وسيط، جريمة متقنة، ولكنْ؛ هل لي أن أقتل ريتا فورميزانو؛ لأنها تعذّب خصيتيّ بقصة أختها؟ لا أعتقد هذا بالتأكيد. ثمّ إنك تقتلها، فتجد نفسك محاطاً بآلاف مثلها. البرجوازية الصغيرة مثل أفلام الزومبي، تقتل منهم ثلاثة، تتنفّس ملء رئتيك، فيخرج من القبور أربعمائة! يا له من جحيم! إنه جحيم أبدي، لا نقاش في هذا.

أعلم. أفهم ذلك من وجهها القبيح والمصدوم، والعروق البشعة التي تنبض على صدغيها مثل القلوب الاصطناعية. قد تطردني من المنزل، فما قلتُه لا تستطيع ريتا احتماله، أنا غريب في النهاية، ولستُ قريباً كأختها. ومن الصعب أن تسمع هذه الكلمات من غريب، يضعك في مواجهة المشكلة مع ذاتك. يجرّدك من أسلحتك، وترتجف ساقاك، وليس بوسعك أن تتمترس خلف الأعذار والأكاذيب. يا لقبح هذه اللحظات! أين المفر؟ وقد لا تطردني؛ لأن عدّتها الثقافية الضحلة لا تُجيز لها طرد صديق عزيز. وهذا ما تدعوه ريتا بالتربية الصالحة.

لا أتفوّه بالترّهات حين أقول إن الملايين من البشر يموتون كمداً باسم التربية الصالحة. تفسد حياتهم بفعل المراقبة الذاتية والنبرة الطيبة كالقديسين. يموتون نكداً، ويعذّبون أرواحهم وأجسادهم بفعل الندم والقهر. ولكنْ؛ ما إن تحاولون مساس تربيتهم الصالحة حتّى ينهار المنطق، بالنسبة إليهم. أسوأ إهانة تذل بها هؤلاء أن تقول لأحدهم إنه عديم التربية. وفعلاً هذا ما تتوصل إليه هذه القحبة، بصوتها المهموم الذي تتخلّله الدموع. الغيظ يحرق قلبها، وقد ترميني بالمكواة على رأسي، لكن هذه حركة، فيها خلل بالآداب، فتستعيض عن ذلك بقولها:

«أنت عديم الأخلاق، يا طوني.»

هذه الجملة تهشّم روابطي الذهنية الأساسية.

هذه الجملة تحوّلني إلى رجل كهوف، يحمل المقلاع بين يديه.

فلتذهب لعبة البوكر إلى الجحيم. قل لي إنني خرائي، هذا يليق بي، فأنا أتيتُ من الخراء، وإلى الخراء أعود كل يوم؛ لأن رائحته مقرفة، وكل شيء في الحياة يتلاشى عدا الروائح الكريهة. ولكنْ؛ أن تتفوّه بهذا الكلام الشنيع والتافه، فأتحول إلى حيوان مفترس. لا توصلني ثلاثة أطنان من الكوكايين

إلى هذه الحالة. أثب بطريقة فنية، أتقدم نحو ذلك الجدار الأبيض الذي يُزعزع التوازن، وبالكاد أترنّح حتّى أصل إلى ثيابها المنيوكة الرطبة من الفزع، أمسك بشعرها وسنواتها الخمسين التي عاشتها بأسوأ الأشكال. تثقب أنفي رائحتها، وهي نفس رائحة منزلها ذي النوافذ المغلقة. لن تدوم قضية رائحة المنزل طويلاً. في السنوات القادمة، ستغزو أنوفنا جيوش من مساحيق التنظيف، وتسفك المطهّرات أرواحنا بلا رحمة. هذه هي تداعيات التقدّم، أن تشعر بالذلّ، كلما استخدمت حاسة الشمّ.

ريتا تصرخ بصوت أجش، كأنها حشرجات الموت. ولداها لا يستيقظان؛ لأنهما اعتادا على صراخها، وهي تكلّم الأشباح. لا أترك شعرها القبيح، وأقول لها وقد استشاط غضبي بتوزيع متين ومتوازن للكلمات الشريرة:

«عديمة الأخلاق أنت وأمك العاهرة. كيف تسمحين لنفسك، أيتها القحبة؟ لقد صرعت رأسي بسؤالك عن رأيي. لست سوى كذّابة منيوكة! إن كنتُ لا أستجيب للتآمر معك تقولين عني بأنني عديم الأخلاق؟ ليس بإمكانك أن تدركي مدى خرائيّتك، أردت مني أن أشاركك الثرثرة، وأنا ليس لديّ وقت أضيّعه. ستموتين في بيت، ليس فيه لوحات، وبمكواة تثقل يديك وقلبك، وتريدينني أن أصطفّ معك. هل تعلمين مَن أنا؟ أنا لا أعرفك، يا بنت فورميزانو، أنت لا شيء. والآن اذهبي وتقيئي ذاتك الحقيرة في الممر» أدفعها نحو الممر. تنزلق على البلاط النظيف؛ حيث أراهن أنها تنظفه بالشمع يومياً.

إنني على وشك الانقضاض عليها ثانية غير أن العقلانية تسطع أمام عينيّ بحجة الشكوى ضد التعنيف. تتجلّى أمامي الرؤية: رسالة مكتوبة بالآلة الكاتبة، يحملها ضابط غبي وممل مثل ريتا وأكثر، لن يبرّر الضابط فعلتي أبداً؛ لأن رأسه لا يفكّر إلا بالعنف الذي مارسته ضد ريتا، حتّى لو كنتُ على حق. وهكذا أكتفي برفسة على عضلة ساقها المنفوشة، وأتجه مسرعاً نحو باب البيت. ركلة لا تفوّت حين تعمي سحابة الغضب عينيك.

يزداد توتّري عند باب البناية. أيّ أحمق أنا لأفقد السيطرة على نفسي بهذه الطريقة؟! ومن أجل ماذا؟ من أجل بول ابن أخت ريتا فورميزانو على أريكة بشعة، لم أجلس عليها أبداً. وريتا لا تعني لي شيئاً سوى أنها شريك ممتاز في لعبة البوكر. ولكنني أعلم السرّ، فأنا منذ وقت طويل أُدمن على الكوكايين. وحين يزول تأثيره، أصبح عصبياً. يسمّون هذه الحالة داون بالإنكليزية. لا تتمالك نفسك حينها، وقد تصل بك إلى تعنيف امرأة مسكينة. تحاول دوماً أن تنظّم علاقتك بهذا المخدّر الرائع، ولكنك لا تنجح على الإطلاق. يتحكّم الكوكايين في اتجاهاتك، ويقذفك إلى هاوية البراز المفضّلة مع أو بدون الكوكايين. يتعاطى الآخرون الكوكايين؛ ليشعروا أنهم مختلفون، لكنه يعيدك إلى كينونتك الحقيقية. وهذه هي مشكلتي، فأنا معجب بنفسي. فلنعد إلى موضوع ريتا. هل يوجد رجل أغبى مني؟ في هذه اللحظات، بوسعي ارتكاب جريمة بحق نفسي لشدة غبائي. ماذا أفعل الآن؟ أفكّر في الضغط على الجرس الصوتي، وطلب المعذرة. لكنني أعدل عن هذه الفكرة، فمن الواضح أن هذه الغبية الآن تكرهني أكثر من زلزال الثالث والعشرين من نوفمبر. تكرهني أكثر ممّا تكره نفسها، وربّما تكون مشغولة بالاتصال بالشرطة. ينتابني الفزع. أمشي ذهاباً إياباً على الرصيف، وأستنشق القليل من الكوكايين خلسة عن أنظار المارّة. فأندم؛ لأنني أزداد خوفاً، وأفضل طريقة للإعراب عن الندم هي في استنشاق المزيد. طريقة غريبة، لكن الاستهتار من طبعي. جلّ ما أخشاه أن تصدّع الشرطة رأسي بقضية التهجّم على ريتا، وهكذا، مع سوابقي التافهة، ستفوتني الجولة الغنائية في أمريكا الجنوبية. يا لهذا الخطأ القاتل! نحن نتحدث عن ستين مليون ليرة لي فقط، إضافة إلى الملحقات العظيمة الممتعة التي تمنحها أمريكا الجنوبية. وكل هذا من أجل ماذا؟ يا إلهي، أوشك على البكاء من شدة التفكير بالأمر. ولذا؛ أتجول كأحمق ممسوس. وحينها يقوم الكوكايين بواجبه، أتوقّف فجأة، سحقاً، تلمع فكرة عبقرية في رأسي: الآن أذهب إلى

ابن عمتي، ابن عمتي المفضّل، وهو المحامي الخاص بي، محامٍ بارع من الطراز الرفيع، ويكنّ لي المحبة.

لقد رويتُ زيارتي المفاجئة إلى ابن عمتي أكثر من ألف وخمسمائة مرّة، رويتُها على أعضاء فرقتي ما يقارب الثلاثين مرّة، وهم يضحكون دائماً، كأنها المرّة الأولى. وذات مرّة رويتُ الحادثة على مضيفة طيران سويدية، لم تكن تفهمني؛ لأنني كنت مصرّاً على التكلم باللغة الإيطالية، لدوافع وطنية، لأثبت انتمائي إلى لغتي الأم. ويا للمعجزة، ضحكت هي أيضاً. وها أنذا سأرويها عليكم.

حسناً، فلنبدأ بابن عمتي، طوله متر وستة وتسعون سنتمتراً، ووزنه بلا مبالغة مائتان وأربعون كيلوغراماً بالتحديد. أذكر وزنه جيداً؛ لأنه يعذّب نفسه، ويعذّبنا منذ عشرين عاماً، وهو يقص علينا سواء حين يتبّع حمية قاسية أم حين يأكل أربع قطع من اللحوم الفلورنسية التي تزن الواحدة منها نصف كيلو. لا يخسر شيئاً من هذه المائتين وأربعين كيلوغراماً مهما فعل، ولا يستطيع أن يعطي تفسيراً منطقياً لهذه الظاهرة الفيزيولوجية الفريدة من نوعها. عمتي تكرّر على مسامعه الكلمات ذاتها مثل عويل دائم: «هذا هلاك، يا صغيري»

ابنها الذي يناهز الخامسة والخمسين عاماً، يخرج عن طوره، ويصبح كالطير الجارح، يصرخ في وجه أمه، ويقول لها إن هذا ليس هلاكاً، وإنه ذهب إلى الأطباء أربعمائة مرّة، وأكدوا له أن هذا ليس هلاكاً. يقول لها إنّ الهلاك مرض، وهو لم يكن مريضاً، لكن عمتي تتجاهل صراخه، وتكرر كأنشودة مملة:

«هذا هلاك، يا صغيري» تقول ذلك؛ كي تحلّ المشكلة من جذورها. فالمشاحنات اليومية تطيل العمر. يحدث هذا غالباً على غداء يوم الأحد، وما إن تصل عمّتي إلى الترتيلة الثالثة حتّى ينهض ابنها عن المائدة بحركة رشيقة ورياضية رغم كرشه المليء، ويخرج من المنزل. لكنني أظنّ أنّ عمتي تتقصد هذا؛ لتستمتع في تكدير مزاجه. تتبعه بصوتها، وتذكّره بدقة: «وماذا

تفعل الآن؟ ألا تأكل؟ هل تتبع الحمية؟ بمَ تفيدك هذه الحمية؟ إنها هلاك، يا صغيري.»

في هذه اللحظات، يكون ابن عمتي في الشارع يبحث عند بائع الجرائد عن مجلات إباحية، كان قد تصفّحها قبل أن يصعد إلى بيت أمه.

ولكن أعتى وساوسه على الإطلاق هي ما نسمّيه في العائلة "وسوسة عيد ميلاده".

عندما أتحدث بالأمر مع أخواتي، ننفجر من الضحك؛ لأنه لا يوجد أحد في العالم يهلوس بعيد ميلاده، كما يفعل ابن عمتي. تطورت هذه الحالة المرضيّة بعد أن أتمّ الثامنة عشر عاماً. ومَن يدري لماذا. أخطأنا ذات مرّة، ونسينا أن نهنّئه في عيد ميلاده المقدس في الخامس عشر من مارس. وهذا أمر بسيط، وقد يحدث. ومَن منا لم يحدث معه مثل هذا الأمر؟! لكنه ينتظر منتصف الليل بدقّة الساعة السويسرية. وبعدها بدقيقة يبدأ اتصالاته، وينهال علينا بأقذع الشتائم: أبناء سفاح، خرائيون، قحاب، مناويك، وإلى آخره من أرفع الأوصاف. تخبره بأنك نسيت، أو انشغلت، فيترفّع عن سماع حجتك، ويستمر في الشتائم، كل هذا لأننا لم نُهنّئه بعيد ميلاده. ولأنه يكبرنا جميعاً، سناً وضخامة وارتفاعاً، فكان يدبّ الرعب في قلوبنا، ونخضع لإرادته دوماً. وهو لا ينسى أن يذكّرنا بهذه الهرمية الثابتة. اعتدنا أنا وأخواتي منذ سنوات أن نتصل ببعضنا في أواخر فبراير للتذكير باقتراب الخامس عشر من مارس، ولا ينبغي أن ننسى تهنئة فينتشينسو، وإلا قامت القيامة. وحين نتصل به، تغمره السعادة، في مشهد ممل، يتكرر كل عام، فيشكرنا بدموعه؛ لأننا كنا أعزاء بتذكّر عيد ميلاده.

وبعد خمسة عشر عاماً من المواظبة المستمرّة على هذا الطقس، يحدث في العام الماضي أمرٌ متعلّقٌ بالقضاء والقدر: ابن أختي يسقط عن الدراجة، وتنفلق ركبته مثل ثمرة جوز الهند، أختي تُهرع نحو الإسعاف، وما بين الذعر والدموع والخوف والمناديل، وإلى آخره من هذه المفاجآت، تنسى أن تتصل به.

قامت القيامة.

في الثانية عشرة ليلاً ودقيقتين بالتمام، يصل ابن عمتي فينشنتسو إلى بيت أختي، غير آبهٍ بالمطر الغزير، ونسي المظلة من شدة الغضب. يطرق الباب الذي بات أشبه بالخرقة البالية. تفتح أختي، وتراه، فتستحمّ في حمّام من العَرَق والرعب حين تنتبه إلى عينيه الحانقتين بالشرر. لن تفيدها حجّة ما حدث لابنها، فهي تعلم مسبقاً أنه لن يقيم اعتباراً، بل ربّما يؤنّب الولد؛ لأنه سقط عن الدراجة في الخامس عشر من مارس، يوم عيد ميلاده. وهكذا تنظر أختي إليه كالخرساء.

«يا لك من مجنونة، ولئيمة وقذرة»

تدفع الفطرة أختي إلى القيام بحركة خاطئة. تحاول أن تصفع الباب في وجهه. لكن الرجل يخالف المنطق في ردود أفعاله الرشيقة كالأسماك النهرية. يدسّ قدمه بين الباب والقاطع، فتبوء محاولات أختي إيميليا بالفشل. يلفّها الفزع، كما يلفّ المنديل بالشطيرة، تهرب نحو الممر؛ لتلجأ إلى غرفة النوم؛ حيث ينام زوجها، وتقفل الباب خلفها. وحينها يحدث المشهد المريع الذي لن يصدّقه أحد، لكنها الحقيقة الخرائية المقدّسة.

يتأهّب ابن عمّتي لرقصة عارية في الممر. يهيمن صمتٌ عتيقٌ، يليق بالمستذئبين. يفكّ نطاقه الطويل، بتهذيب كأنه يشهد عبور جنازة ما، ثمّ زر بنطاله، يخفض سرواله العريض، ويشهر ركبتيه الفولاذيتين. ثمّ يتغوّط على ذلك البساط الجميل بكل رويّة. أقسم لكم أن هذا ما حدث. وبعدها، يفتح أحد الدروج بثقة مَن يعرف المكان جيداً. يُخرج منديلاً من نسيج الفياندر الذي تعشقه أختي، لدرجة أنها لم تستخدمه أبداً، ولا حتّى في أعياد الميلاد. وبالطرف المزركش يدوياً، ينظّف دبره الواسع مثل بدر التمام في ليلة صيفية من قديم الزمان. تتراءى لي بياتريشا.

عثر على السلام النفسي الآن. ليس صحيحاً أنّ الانتقام لا يُثلج الصدور،

فها هو ذا مرتاح البال مسروراً بما فعل. لكنه أخطأ بين الانتقام والإذلال. فالتغوّط في بيتٍ ما بعد اقتحامه تصرّفٌ لا يخطر على بال اللصوص. ولم نفهم سبب فعلته أبداً، هل لأنه كان مستعجلاً أم لأنه أراد توجيه إهانة سياسية. يترك المنزل بكل اللباقة التي تبدو على وجوه العاهرات حين يتزوّجن المليارديرأخيراً. وترتسم على وجهه ابتسامة تصالح مع العالم، ومع أبناء عمومته.

لقد رمى أطناناً من سوء الفهم، وأعلن حرباً شعواء ضد أختي.

وإن عرّفتُكم على ابن عمتي، فانتظروا كي أعرّفكم على صهري الذي كان يرقد مثل الطفل البريء. هذا الرجل لا يعرف الحيرة، إنما الفعل فقط. ما هي إلا هنيهات، وتشاهدون تحوّلاً سريعاً من طفل إلى حيوان متوحش؛ إذ لا أحد يفكّر مطولا حين تأتيه الفرصة لاستخدام مسدّس، كان قد انتظرها سنيناً. حينها تتخذ القرار وتنفّذه في آن واحد. إمّا الآن وإمّا أبداً. تقضي حياتك في انتظار مناسبة، تسمح لك باستخدام العنف، وإذا بالمناسبة تمثل أمامك، وأنت نائم كالملاك الرضيّ. أتحدّث عن صهري. طوله مائة وستة وخمسون سنتمتراً من وصمة العار التي ارتكبها الآخرون بحقّه. يزن سبعين كيلوغراماً، منها خمسة وثلاثين كيلو في جذعه وفخذيه، والباقي موزّعٌ على جزئه الأعلى ورأسه الضخم مثل سلاحف الغالاباغوس. يشبه وعاء ربّ الطماطم، رأس عريض مثل التليفونكن القبيح، هذا هو صهري. بالمناسبة ما الذي حل بتلفزيونات التليفونكن؟ كان يقال إنها جيدة، لا أدري. مصائر التمويل والصناعة ملغزة ومترابطة دوماً، ولا يُسمح للعامة الإطلاع عليها. عموماً، يتعرّض الانسجام إلى هزّة مزلزلة إذا ما نظرنا إلى صهري. كأن يجلس الفلاح في حضرة الملكة إليزابيث. إنه تناقض بالمحصلة. ولهذا كان الجميع يعاملونه على أنه خراء. فالناس لا يغفرون الخلل الجسدي. لأن الفطرة تقف عائقاً أمام تطوّرك، أو حجراً يعرقل انتماءك إلى الشيوعية. الفطرة هي التي تتحدث، لا تكذب أبداً، ولا تعرف الديمقراطية، تتقدم مثل البغل

معصوب العينين، لا تريد سماع الأفكار؛ لأنها لا تعرف الأفكار، بل تعرف الطريق فقط. تجاهل صهري كل الازدراء والسخرية بحقّه، كما تجاهل كلمة "استسلام". ومنذ طفولته، كان يكدح؛ كي ينتقم من أولئك الحمقى الذي يسخرون منه. ما أدّى به، كما يحدث مراراً في إيطاليا البائسة، إلى مسيرة مهنية ساطعة. ركّز بالكُتُب وجمع المال حتّى استطاع هذا الأبله أن يصبح وكيل نيابة في الجمهورية، رجل قانون، لا يُعلى عليه، ليس لديه وقت للهو، لا يعرف كلمة "الاستسلام"، ولا يعرف كلمة "المسرة" لكثرة ما يبدو عليه من آلية دميمة وعنيدة ونشيطة. لا تنخدعوا بالمظاهر، فمشكلته لا تكمن في عدم تجانس جسده، إنما في قصر قامته. متر وستة وخمسون سنتمتراً قليل حقاً، جعلته يصاب بتصلّب عنق مزمن لكثرة ما رفع أنظاره في أعين أولئك الحقراء ونظراتهم الفوقية. لقد عاش حياته، وهو ينظر إلى الأعلى، وهذا ما يثبت وجود "عقدة الأقزام". يا لها من ملاحظة عميقة وسخيفة. بات صهري أيقونة في الحسد، يتغذّى على الحسد فطوراً وغداء وعشاء. إياكم أن تواجهوه؛ لأن دماغه سيقوم بكل الحيل الممكنة؛ لتدفعوا الثمن.

لم تنجح البنود والفقرات والقوانين والتشريعات العويصة في أن تُفقده صوابه. لكنه الآن كان يفقد رشده في حالة تامة من الوعي والإدراك. الساعة متأخرة، وهو يشعر بالنعاس؛ لأنه عمل لستة عشر ساعة متواصلة. ويشعر بالقلق على ابنه الذي كاد يفقد ركبته. وابن الحرام هذا، ابن عمة زوجته، يقطع عليه أول النوم بهذه الطريقة المقزّزة، وبلا أسباب منطقية، يقرر أن يدنّس البساط والمنديل ببرازه. أيعقل هذا؟! ليس مسموحاً أن يرتكب أحد ما هذه الفعلة الشنيعة مع صهري الذي لا يزيد طوله عن متر وستة وخمسين سنتمتراً ومتلهّف للانتقام من كل طوال القامة. ما يعني أنه ضد أربعة أخماس الكوكب. هل فقد ابن عمتي رشده؟ أجل يبدو كذلك حقاً.

قبل عدة أعوام، عمل صهري ضمن تحقيقات حساسة وبالغة الخطورة حول الإرهاب. فسمحوا له بحيازة ما يُثلج الصدر ويرفع الأدرينالين: سلاح.

أصبح عنده مسدّس، ومن غير المحبّذ أن يُمنح السلاح لمَن لا يزيد طوله عن المتر وثمانين سنتمتراً. أما هو؛ فلديه سلاح. ويحلم دوماً أن يستخدمه. وهل ثمّة مناسبة أفضل من رجل عملاق يتغوط في منزله؟ أبداً. إمّا الآن، وإلا فلا. بحق الله.

والآن إلى العمل. وصل إليه نواح أختي. قفز؛ لينهض واقفاً على قدميه كرجل إطفاء مستنفر. يدنو من الممرّ بقدمين عاريتين وردفين ضخمين.

ما يزال البراز هناك ساخناً مثل أثاث قبيح يُعرض في المناولة الأولى. يعدّ حتّى الصفر، ويتجه إلى درج السراويل. لكنه لا يُخرج سروالاً. بل ينتشل مسدساً من طراز كاليبرو سميث ان ويسون، ويعبر الممر كالزوبعة. يجتاز أختي الباكية المتقوقعة عند الجدار، والبراز، كالعدّائين. يتربص عند باب الدار المفتوح، يقف على المداسة، ويركض نحو السلالم كالفهد المرقط، وقضيبه وخصيتيه متشنجين من الهيجان على وقع الخطى. ينزل العتبات ثلاثاً ثلاثاً دون أن يصدر أية ضجة. إنه متأثر كما في اليوم الذي وُلدت فيه ابنته. يتعرف على ابن عمتي الذي يعبر البوابة بصعوبة وكبرياء، وكأنه لم يفعل شيئاً. يراود ذهنه في لحظة واحدة أكثر من سبعمائة فيلم ويستر شاهدها في حياته، وهذا كان الأمر الوحيد الذي يفرّغ فيه حياته المحفوفة بالمصاعب والتضحيات الكبيرة. فلا يخطئ إذنْ؛ يصوّب على الهدف مثل إيستوود. وهو هدف سهل جداً، عضلة ساق ابن عمتي عريضة مثل جانب قارب كبير. يطلق النار عند السلالم، فيتضخم الصوت؛ ليفزع سكان اثنتي عشرة شقّة دفعة واحدة. ابن عمتي يسقط ببطء أمام البوابة مثل تلك السفن التي تنحني على جوانبها في بحار عميقة وبعيدة.

لا يقيم اعتباراً للمطر. لا يتأوّه، ولا ينطق بكلمة نابية؛ لأنه يعي تداعيات جنونه جيداً. فهو يعلم أن طلقة نارية بعد تلك الكارثة التي ارتكبها ما هي إلا عين الصواب. يستلقي بهدوء على الرصيف، مثل حوت منهك في الليل، تذرف عينه اليمنى دمعة واحدة من الألم، ثمّ يبكي. منذ زمن طويل، وهو يبكي.

صهري يتابع هذا المشهد الفتّان. والجيران أيضاً، خرجوا بسبب الفضول والرعب، وقفوا على عتبات أبوابهم؛ ليتابعوا ديناميكية الحادث. لابدّ أنهم يحتارون في خيارهم، فلا يعرفون أين يوجّهون أبصارهم، نحو البدين المنهك أم إلى ذلك العاري الذي لم يرتد إلا مسدسه الأسود. يختارون هذا الأخير، ويتخلّل نظراتهم شعور بالريبة والاشمئزاز، لا يغضّون الطرف، ويتطلعون إلى أكثر من هذا. فلا يخيّب صهري آمالهم. يتبختر في مشيته، وهو يصعد السلالم، ويعقّب قائلاً للناظرين إلى بشاعته: «لو لم أكن عارياً هكذا، لما استطعتُ إصابته» ويتابع بأريحية مطلقة.

غالباً ما اصطفّ المنطق إلى جانبه، فما خسره بسبب هيئته القميئة عوّضه بأفكاره العبقرية. لم يشتك ابن عمتي ضده، فهو محامٍ، ويعرف جيداً كيف تنتهي هذه الأمور. سيدخل في ضبابية المحاكم، واحتمالاتها الطويلة، فالقانون لم يحسم أمره بعد من مسألة التغوّط في بيوت الآخرين. جرمٌ لا معنى له، خارج عن المألوف، وذو رائحة نتنة.

اعذروني على الإسهاب، فحين أطلق لنفسي العنان أستطرد في الحديث كثيراً. توقفتُ عند زيارة ابن عمتي في عصر يوم أحد مميت. لا نتحدث بما فيه الكفاية عن نهاية يوم الأحد. يبدو شبيهاً بيوم قيامةٍ تتكرر كل أسبوع. الزمن لا يتماشى مع توقيتك. يعمّ الهدوء الكئيب على الشوارع والمنازل، وتتكاثر فرضيات الانتحار. القرى الوادعة تصبح مثل ناغازاكي، والسباحة عند الشاطئ لا تُنعش الأبدان. تعود على الطريق السريع والكآبة تحرق أعصابك، لا أحد يفهم وضعك إلا العامل على ضريبة الدخول. وفي البيت، يقلقك شأن ترتيب السرير كغياب الأمل في نظرة الكاثوليكي المتديّن. لا داعي لترتيبه، فبعد حينٍ ستخلد إلى النوم. لكن الفكرة تظلّ هاجساً عنيداً. تشاهد شوطاً من مباراة مملة، كما لو أن التلفاز سينفجر؛ ليظهر الراهب الذي تعترف على يديه قبيل الموت. أول سؤال سيطرحه عليك: لماذا لم ترتّب السرير قبل النوم؟ الليل يزيد التوتر؛ ليغدو صخرة بلا منجنيق. تتقلّب تحت الأغطية

البالية. ومن ظلام السرير، ينبلج يوم الاثنين كأنه يتآمر مع العالم اللئيم ضدك حصراً. ثمّ تنغمس في أفراح معدّة للنسيان، نسيان تلك الفكرة الشريرة: بعد ستة أيام سيعود يوم الأحد.

يفتح ابن عمتي باب بيته ،ويقول لي مستعجلاً:

«اذهب إلى صالة الانتظار، ولا تتحرك. عليك أن تنتظرني قليلاً. هيا، يا فتى.»

لا أردّ. كان يتصبّب عرقاً رغم أن الطقس ليس بارداً. إنه يعيش حالة قلق تطغى على نواياه الحسنة. فالمحامون لا يلهون، ولا ينشغلون يوم الأحد في بيوتهم إلا لأمر خطير لا يستطيعون إجراءه في المكتب خلال الأسبوع. أتخطّى ضباباً من الغبار يقع منذ القرن السابع عشر، وأصل إلى صالة الانتظار المليئة بمجموعة من الكُتُب القديمة، فهكذا جرت العادة في تأثيث بيوت المحامين من الطراز الرفيع. لستُ وحدي. هنالك أربعة حيوانات، يزن الواحد منهم تسعين كيلوغراماً. ينساب بين فخذيّ خيط من الفزع. يثقبونني بنظرة جائرة. في هذه المدينة عليك أن تستعدّ للدفاع عن نفسك حتّى إذا كنتَ بريئاً.

يفرضون عليك التخفي والاختباء. لأنهم جهلة وأشرار، والمخدرات تبثّ فيهم تأثيراً سيئاً. يستخدمونها لتنفيذ هدف ما. فيضعهم التناقض في صراع مع الكون. وفي يوم الأحد هذا، أنا هو الكون بالنسبة إليهم. هذا واضح مثل الجين تونيك.

«إنني ابن خال فينشينسو» أبتلع اللعاب الذي انساب بين لساني وفكي. وبهذه الكلمات أعتقد أنني وجدتُ حلاً للمشاكل المقرونة بعدم الارتياح، ولكنْ؛ هيهات. كانوا قد قرروا أن يضحّوا بي كقربان لتمضية الوقت.

«لم يطلب منك أحد أن تعرّف عن نفسك، وحذار أن تكدّر مزاجنا» عبّر أحد هؤلاء الشياطين عن نفسه بسرعة وخفّة، بصوت أجش، يوحي بمائة وسبعين سيجارة في اليوم. وثمّة خدش أفقي قرب عينه، يصل إلى خدّه

بشكل يشبه المظلة. هنالك مظلة من الخدوش في وجه هذا الحيوان. وكم رأيتُ من وجوه، لكنني لا أنسى وجهه. يُنقش في الدماغ مثل أيقونة من الخوف. ليس من السهل أن تحمل مظلة في وجهك. لابدّ أنها بسبب سلسلة من خيبات الأمل. عليك أن تشعر بنفسك كيف خُلقت كل يوم، هذه هي اللعبة. أصيغ فرضيّات ستثبت صحتها. هؤلاء هم أربعة حراس شخصيين لأحد رجالات مافيا كامورا البارزين؛ إذ جاء لاستشارة ابن عمتي في منزله. إنه يوم الأحد، ومن المستحيل أن يستقبله في المكتب، وهل تعلمون لماذا؟ لأنه فارّ من أيدي العدالة. تخطر هذه الأفكار القذرة في ذهني، بينما أجلس على كرسي خشبي، وأشعل سيجارة. أسحب نفساً عميقاً، وأقذف خيمة كثيفة من الدخان على مخطوط لأحد آباء الكنيسة الفرنشسكانية، فإذا بأحدهم يصدّع رأسي مجاناً كما هو معروف عند أهل الجنوب في إيطاليا:

«أطفئ هذه السيجارة» يقول لي أحدهم.

أرفع نظري، فأجده يدخّن هو أيضاً! يا لسطوة الطغيان حين يقيمه أحد عليك!

فلنفكّر معاً.

إنهم مرعبون، بشكل لا يوصف. يتأبّطون المسدسات، مع أنني قد أكتفي بصفعة يد أحدهم حتّى أستوي بالأرض مثل التمساح داخل المستنقع. باختصار، إنهم يصدرون الفزع والوعيد من كل مساماتهم. لكنني قررتُ اليوم ألا أختبئ خلف إصبعي، بسبب ذلك الدُّرج اللعين في رأسي، بسبب فراغ يوم الأحد، بسبب ريتا فورميزانو التي أثارت أعصابي، بسبب زوجتي التي تؤدي دور المرأة الميتة، لا أدري. لا أطفئ السيجارة. وأقول بشجاعة المحكوم بالإعدام:

«سأطفئها بأيري! سأدخّنها كلها أولاً، ثمّ أدخل عقبها في دبرك. وأعرف أنه لن يجدي نفعاً، فدبرك تشتاق إلى شيء آخر.»

ربّما أوشك على الموت بذبحة قلبية بسبب الرعب من كلماتي نفسها. حالة مرضيّة في غاية الأهمّيّة. إنني واثق من أنّ أولاد الفلاحين الطموحين الذين تسجّلوا في كلّيّة الطب سيدرسونها بكل اهتمام. تقع أنظار الأربعة على الحدث فوراً. والحدث هو أنا. أو إجابتي بالأحرى. صاعقة تهزّ الأرض في جنح الظلام.

ليسوا معتادين على هذا الأسلوب الرفيع في الإساءة، وعلى هذا القدر من النّدّيّة. لم يتوقّعوا وجود إشارات مرورية تعيق سطوتهم الطائشة في تجوالها الليلي. يبتسم أكبرهم سناً، ويعدّل جلسته، كأنه يهيئ نفسه لمتعة العرض التالي. يتلهّف لرؤية ما ستؤول إليه المباراة. فمشاهدة الرياضة متعةٌ مجّانيّة.

تفشّى من بين الكُتُب القديمة صمتٌ يتوعد بكارثة، لا تُبقي، ولا تذر. يتساوى صدق التنبؤات مع عدمها في مثل هذه الظروف بالنسبة إلى المواطن النابوليتاني، ولذا؛ ما أزال أنتظرُ، قد لا يحدث شيء البتّة.

يتأمل المذلول بسكينة، لكن عينيه تقدحان شرراً؛ كي لا يحبط رفاقه الأوغاد. بعد نفختين من الدخان، يرتّب بنطاله، ويتقدّم نحوي ببطء كمبارز شرس ومحترف. يا لهذا اليوم الداتنيّ بامتياز. لماذا؟ لأن الجحيم بكل ضراوته يدنو مني. لا أسمع إلا ثقيل خطواته على البلاط الخشبي القديم. بلاط من نوع فاخر، وليس خشباً زائفاً. يقف أمامي، قضيبه وخصيتاه على ارتفاع وجهي المتألّم. بياتريشا، ها أنا سأصل إليك حالاً. لستُ بعيدا عنك، يا بياتريشا. تخدش رائحته النتنة كالبيض النافق أنفي. من الواضح أن لهذا القذر بخلٌ بريطانيٌّ أصيل، فهو لا يستخدم الشطافة إلا نادراً. لكنني لا أخبره بذلك. تذكّرْ هذا: عندما تسيء إلى أحدهم، لا تبالغْ! وإلا أصبحت ظالماً، وبات العرض مبتذلاً ومطوّلاً. عندما تتبادل الإهانة مع أحد، فكل شيء مسموح، ولكنْ؛ إيّاك أن تسفّ، فتخسر تأييد الجمهور. لستَ في حاجة إلى ثمانية عشر طعنة، إن كنت قد تموت من طعنة واحدة.

هنالك فرق بين الجرائم. هنالك فرق بين الهواية والاحتراف. وفي فن الإهانة، أنتمي إلى النوع الثاني. ولكن تبؤاتي اليوم تميل إلى الفشل؛ إذ كنتُ أتوقّع أن يتبول هذا الرجل فوق رأسي، فإذا به يردّ بوداعة الخادم الفلبيني. يبحث عن التسوية، وهو جهد عظيم لرجل مثله. ليس من السهل على أحد أن يؤدي دور الديمقراطي المسيحي داخل مركز أوشفيتز النازيّ.

«أطفئ هذه السيجارة، يا باغودا، فأنت مطربٌ كبير، والتدخين يؤذي حبالك الصوتية» يقول بصوت يقطر ألفة كأنه طفل.

حسناً، فلنفكّر مرّة أخرى.

أ إنه يعرف مَن أكون.

ب لقد تكلّم بإيطالية سليمة.

ج قدّم لي ثناء سان أنطونيو. بدلاً من أن يقتلني، أعادني إلى هذا العالم المزدهر.

د رمى الكرة في ملعبي.

وليس لديّ رغبة في أداء دور صانع الأهداف، فأنا لاعب خطّ وسط هدّاف. اسمعوا هذه الحكمة، لاعب خط الوسط في فريق كرة القدم يسجّل الأهداف؛ لأنه يتصف بسمة واحدة: الغباء. لأنه يرى الملعب، وينسى العالم المحيط به. فأنا غبي إذنْ. أريد أن أسجّل هدفاً. أرفض المصالحة، وأقول بكل عزم وإصرار:

«عليك أن تعتذر أولاً عن عدائيتك. اعتذر حتّى لو على مضض. واجثم على ركبتيك، وإلا كررتُ على مسامعك أنني سأنهي السيجارة، وأدخل عقبها في دبرك».

حسنا! إن أردتُم أن تشاركوا في التنبؤات، فأهلاً بكم ولكنكم لن تفوزوا في

هذه المباراة في صالة الانتظار. لقد رميتُ الكرة في ملعبه، وماذا سيفعل الآن؟ عليه أن يفكّر بالأمر. لديه وقت قصير للتفكير، وإلا طرده الحكم. وأنا أرى أنه يبذل جهداً كبيراً، يحاول أن يجمع بعض المفاهيم من هنا وهناك. رفاقه يستمتعون بالمشهد، ويصيحون: «أوووووه!» يحرّضونه كما تفعل العاهرات.

والآن تخيلوا أن تسقط غسالة من الطابق الرابع على وجوهكم مباشرة. هذا ما يسقط على وجهي، صفعة بسرعة مكوك فضائي، تصيبني بالدوار على الفور. في لحظة من الوقت، لا يمكن عدّه لسرعته. وجنتي الجميلة تستحيل صحيفة، يدوّنها خطاط عثماني بارع. ليست صفعة، إنما حالة تخدير تامّة دون حقنة.

تسقط مني ثلاثة أشياء على الأرض في الوقت نفسه: سيجارتي، نظّارتي الزرقاء وكرامتي.

«اجثم أنت على ركبتيك الآن، يا طوني ب.»

سجّلتُ هدفاً في مرماي إذن. لقد عشتُ طويلاً في الشارع، لكنني نسيتُ مفهوماً أساسياً: ثمّة مَن عاش أكثر مني في الشارع. مثل هذا الخراء البشري الذي ظهر أمامي الآن. الشارع يعلّم كل شيء. الشارع يكتب سيرة الدنيا. الشارع يمزق أحاسيسك، ويُفسد رغباتك، ويمرّغ آمالك في تراب السخرية. الشارع عدميّ، ولا يأبه بذلك أبداً.

أقع على ركبتيّ كإجاصة تسقط من الشجرة. عند قدميه. لا أستعيد السيجارة، ولا النظارات، فهذه هي الطريقة الوحيدة لاستعادة كرامتي.

انتهت المشاجرة. وعلينا أن نصفّي الحسابات. لقد وضعتُه في مواجهة فكرية، لم يكن ليقوى عليها.

يضحك الثلاثة، كأنهم في تسلية عابرة. فالكوكايين يتلف حسّهم تجاه القصص. يضيف أكثرهم شرّاً: «يا لوجهك، كم يشبه الزبّ.»

دعني أستعيد كرامتي، أرجوك.

«أما بخصوص عقب السيجارة، فسأضع في دبرك مولتي فلتر.»

كرامتي تبتعد على متن دراجة نارية. ومَن يدري لماذا اختار المولتي فلتر. آه، أجل؛ لأنها أطول من السجائر العادية. لا تستخف بالدعابة أبداً، حتّى لو كنتَ في أفظع لحظة من حياتك.

«والآن غنّ لي أغنية، أيها الغلام!»

أنا غلام؟! تلاشت كرامتي. انعطفت على زاوية بشارع مستقيم. لن أجدها بعد اليوم. أن يقال لي في هذا العمر إنني غلام! هذا زائدٌ عن حدّه، كل الحاضرين يوافقون على هذا.

«أريد أغنية نابوليتانية أصيلة»

لا ينقصهم الفلكلور أبداً. مثل البثور على ابن الرابعة عشر عاماً. الفلكلور يضمن تواصلهم مع الواقع، بما أنهم يقومون بأشياء غير واقعية طيلة النهار.

بلسان مشلول وحنك مخدّر أغنّي "كارميلا" بنشاز مقرّز.

وسرعان ما ينفتح الباب الزجاجي المزركش من القرن الثامن عشر. يظهر على العتبة ابن عمتي، ورجل أعرفه: إنه العملاق، المعجب بي، صاحبي وزعيم هؤلاء العفاريت الأربعة.

وكأنّني في رؤية خالصة عند أعتاب ميديوغوزيه. الأوغاد الأربعة يأخذون دور المرضى، لكنني لا أتنبأ بأي معجزة لشفائهم.

جوهر الحياة مسألة كمّيّة. أو إنّ الكمّيّة هي العامل الوحيد الذي يحدّد الجودة.

الرجل الذي أهانني كان يرتاد الشارع كثيراً، ولكنْ؛ ليس أكثر من العملاق.

هذا هو الواقع. العملاق يرسل نظرة رهيبة إلى ذلك الرجل، فأرى كرامته تتلاشى هي أيضاً. استقلتْ دراجة نارية لتتبع كرامتي.

«ما الذي يحدث هنا؟ هذا طوني ب. إنه صديقي» يسأل العملاق ببلاغة؛ لأنه أقرّ الإجابة سلفاً حين أخرج المسدس بكاتم الصوت. يحاول الوغد أن يبرّر، لكنني أسبقه، فأنا طوني، وليس أحداً آخر.

«لقد نعتني بالغلام!»

يا للتلخيص العظيم، سحقاً! أشعر أنني بالغ الذكاء أحياناً. وشعوري في محلّه.

ما الذي يحدث للعملاق؟ يتضرّج وجهه حنقاً، ويصوّب حالاً إلى حذاء ذلك الوغد، ثمّ يغشاه الغضب الهمجي، فيطلق النار. تتهشم قدمه مثلما ينفصل الموزاييك عن جدران الكنيسة.

يتّسخ البلاط الخشبي الجميل بالدماء. يسقط الحقير أرضاً دون أن يتأوّه. ابن عمتي يفتح فمه مركزاً في الضرر الذي حلّ بالبلاط الخشبي. ويمدّ العملاق يده، للمرّة الثانية في حياته، ويرفعني برفق، تعجز عنه المربيّات في القرن التاسع عشر.

هذا هو العملاق، أراه كالعذراء المخلّصة بكل صراحة.

وبينما يرفعني، يلقّن الإنسانية درساً عظيماً: يجثم على ركبتيه أمام قدميّ كالنادمين، بسكوت جنائزي مهيب. العملاق يبوح بأسرار الحياة من أسفل درك من حياته الإجرامية. يكشف الحياة كما يجب أن تكون. كأنّ بي يقول إن الفنّ هو أهم شيء في هذه الحياة، لأنه يتخطّى كل الحدود، ويندفع إلى الأمام.

فلنجرّبْ حظّنا مع الله، ولنأملْ خيراً.

أورنيلا فانوني

يُقسّم البشر إلى نوعين: أولئك الذين ينعمون بالراحة، ويذبلون. والآخرون. أنا أعدّ نفسي من الآخرين.

آخر ما توصلت إليه أفكاري أنّ الحياة عبارة عن تدمير خيالي للأعصاب. علامَ نركّز، إذنْ؟ على تدمير الأعصاب؟ أم على الجانب الخيالي؟ يميل أصحاب الراحة إلى فرضية تدمير الأعصاب. فهذا يطمئنهم، مثل النشرة الإخبارية المسائية. أما الآخرون؛ فتراهم كيف يشقّون غمار الشارع في كل ساعة، يعبرون الليل بتلهّف وعصبية، بشعور مركّز بالاغتراب. يبحثون عن الخيالي. ولا يجدونه. وهكذا يجرّبون حظوظهم بلا هوادة كالمدمنين على المخدرات. والشارع يفضي بهم إلى الخيالي المحفوف بالفواصل الموسيقية وأقواس القزح المنقوشة بالإحباط والذل والقلة والعوز والفظاعة. وفجأة نبلغ سنّ النضج، يا لهذه الكلمة القبيحة، القذرة. ندرك، في جوهر النضج حقيقة الخيالي البعيد عن مقبرة المراهقة المزركشة بالذهب. فالخيالي في سنّ الرشد هو الإحباط والذلّ والقلّة والعوز والفظاعة. تعالوا، أيها الفلاسفة، وواجهوني. ستعودون بكلامي إلى فروج أمهاتكم مثل المتسوّل عزيز النفس في عصر يوم الأحد. لأنني أقول الحقيقة. أقول الجوهري، مهما كان فاحشاً ومخجلاً، ويُتعب أرواحكم.

ألا ترون السياسي المخبول ذا الخمسة وسبعين عاماً كيف يسيل لعابه

لهفة إلى المنصب؟ هل يبدو لكم خيالياً؟ ألا ترون اللحّام الذي يغشّ لتوفير بضعة غرامات من اللحم؟ لقد توفّق في مكره، ولكنْ: هل وصل إلى مرحلة الخيالي؟ أو الرفاهية أو الفرح أو السعادة أو الغبطة؟ عمّ نتحدث بالضبط؟

بعد أن نجتاز سنّ المراهقة، نجنح إلى ابتكار حياة مستهلكة وشنيعة. ننسى الذهاب لرؤية الجبال المغطّاة بالبرد رغم أنها تنعم بدفء عتيق. هذه هي الشفافية.

ولكننا في الظاهر نتوهّم بانتزاع حركة عضلية وفكرية فاسدة. لقد ذهبتُ إلى البحر، ورأيت ذلك الشاب كيف يتعرى، وهو يعدو، وكيف بانت أسنانه من الضحك، يتشوّق للغطس في المياه الباردة، ويفعلها. كم استمتع، وهو يثب نحو العدم، كأنه كاره للحياة، يغدر بالأرض. يتنازل عن سلطاته؛ كي يكسب الغرور. المراهقة قصة أخرى. كأنها ذكرى تثقب مآقيك بدموع مرّة.

ومع مرور السنوات، تضعف الحواس. ننزلق في حفرة الحزن حتّى إنّ التعاسة تظل واقفة على قدميها، ولا تجد مكاناً، تجلس إليه. اللمس لا يقدّر الأشياء، السمع يزدحم بالضوضاء، قدرة الشمّ تتناقص، بسبب السجائر الغادرة والزكام المملّ. الإنسان جثة يترك المراهقة على اليابسة؛ ليكمد لونه خلف المنارة. نصعد على متن السفينة. ننظر حولنا، فلا نفهم شيئاً. إنه قارب شبه معطّل، تفوح منه رائحة الوقود الذي يقول لك: كفاك أطباقاً متنوعة وصدفاً ولحوماً وحلوى البندق. ستُحرم الآن من كل شيء بموجب القانون. كم يهلوس هؤلاء النازيون بالنظافة. كفى للقبلات الحلوة في الشارع. كفى للشوكولا اللذيذة. كفى للخيبة التي تمزّق قلبك. لم يعد بالإمكان أن نغطس في الخيبة حتّى قاعها، فسنّ الرشد يجبرك على الحل السريع، بطريقة أو بأخرى. يبدأ العدّ التنازلي؛ كي ننتهي في العدم. وهذا النزوع إلى الماديّة يؤرّقني قليلاً. يجعلني أعوم على سطح التفاهة. والتفاهة لا تساعد على السباحة، لذا؛ أطفو على ظهري.

يا للعار! سن الرشد حالة مضنية، لا تنتهي. شلال بطيء من دمار فتّاك. إنه مجرّد فقاعات من الشيخوخة تتطاير داخل أجسادنا بسرعة مروّعة. بإمكاننا المضيّ قدماً حتّى جنازتنا. وحينها سندرك كم كانت الحياة تعيسة، لكنها تستحق المجازفة عموماً. لسبب بسيط. لا وجود لبدائل أخرى. إمّا الحياة، وإمّا الحياة.

إنّ الحكمة والخبرة ما هما إلا وَهْم خدّاع، وادعاءات باطلة، ومحض أكاذيب. بالأمس كنتَ لاعباً لابدّ من وجودك، واليوم يضعونك على مقاعد الاحتياط، بعينين معصوبتين. لا يسمحون لك حتّى بمتابعة المباراة.

ولهذا السبب يتجنّب الراشدون اليافعين، لأنهم لا يرغبون في تذكّر ماضيهم. وحين لا يتجنّبونهم يقعون في الفخّ، ويتألمون؛ لأنّهم يتذكرون. لأن الذكرى ليست الحياة الحقيقية، إنما هي وَهْمٌ أو تفاصيلُ لا معنى لها. نغطّ في قيلولة الظهيرة. فتستيقظ الذكرى؛ لتأخذ أبعاداً محددة. وما إن نسعى إلى التقاطها حتّى تطرق بابنا مثبّطاتٌ أخرى أكثر إيلاماً. يا لهذه المؤامرة الشنيعة!

أردنا القصائد، فحصلنا على الكوارث.

أردنا المشاعر، فكرّمونا ببرامج تلفزيونية، لا تقلّ فظاعة عن الجرائم الفاشلة. كم أنتم مبتذلون وفاشلون، وأرواحكم مليئة بالكراهية وعدم الثقة.

يهرب الراشد لاهثاً نحو الأمور الدنيوية الرديئة، ليس لأنها أسوأ من تلك الجيدة، بل لأنها أغلى ثمناً فحسب. لقد رأينا المتقاعدين الكهول على قارعة الطريق، يلتمسون الدفء من أيامهم الماضية. يبدون أحياء، ويستغربون من أي شيء تقع عليه عيونهم. يرون المعجزات أينما قلّبوا أنظارهم. وكم من السطحيّ أن نؤمن باستمرارية الحياة. أرى أنّ الحماس كلمة نابية مقزّزة؛ لأنه يتركني خائر القوى. أرجو ألا تسمّوها اكتئاباً. أرجو ألا تعتمدوا على ثقافتكم السمعية وترّهات المجلات. لا تذهبوا أينما يأمرونكم بالذهاب. لا

تستهينوا بفرادتي وفرادتكم التي لا يصل إلى مستواها أولئك الأوباش الذين يعلقون شهاداتهم خلف مكاتبهم كالمقصلة. لم أثق يوماً بالتجهيز الجامعي منذ أن عرفتُ الأستاذ الجامعي ثقيل الظل، خائباً وجباناً. يتمترس خلف الكُتُب، وينتشي بإصدارها. إنه فارغ كلّيّاً، اللهم إلا من وجود امرأة قبيحة وكريهة الرائحة أو زوج يضرط على مخدة الأريكة في البيت دون أن ينتبه. لا يخدعنّكم مظهره، وتذكّروا أنّ الرائحة النتنة تفوح أينما حلّ الأستاذ الجامعي. نرجسيّته تتناسب طرداً مع جهله للحياة. لا يرون أبعد من تلك الصفحة المكتوبة، فتفوتهم الحياة الحقيقية؛ لأن إقدامهم على الفَهْم يعزلهم عن الحياة. وهنا تعشش المشكلة. الحياة من ورائهم، والمكتبة من أمامهم. يرسون على استمناء فاشل قبل الأوان. لا تثقوا بهم.

يخشون من عدالة السخرية؛ لأنها تُفرّغهم من مضامينهم. فالسخرية كالأفعى، تباغتك، وتجعلك أضحوكة الجميع. إنها تبسّط العقدة التي يدّعيها الأستاذ الجامعي ويفتخر بها. يخافون من عواقبها فتراهم يتمترسون خلف الرفوف وتحتدّ نبرتهم. لكن الصوت ينقصهم، فأنا خبيرٌ بشؤون الصوت، وأعرف نقطة ضعفهم هذه.

بسبب استنتاجاتهم، يجهلون اللهو الذي يرتكز عليه جمال النهار. يشنون حرباً ضد التباين الذي يتملّص من تصنيفاتهم مثل فارّ من العدالة، يأخذ كامل احتياطاته.

لكن دورهم أساسي في السهر على راحة سخريتنا منهم. نتأسف على رحيلهم؛ لأنهم كانوا سبب بهجتنا في أثناء هذه المعركة. وبعد غيابهم، نعيش حالة فراغ، لا ينضب. ثمّ لا ننتظر كثيراً حتّى يزحف الفطاحلة الجدد، شبّان بصلع مبكّر. متحذلقون، مصابون بعقدة الحياء، ولهم جمهور واسع من المغفّلين. يبدو أن العالم لا يستطيع التخلّي عن عمداء الجامعة، وخرافاتهم. وهذا كلّه بسبب الدابّة القبيحة المسمّاة بالتضامن. لا يمكن ترويض هذه الدابّة، وكم أتمنى أن ألغيها من الوجود. التضامن لا يواسي إلا أولئك الأحياء

الموتى. فالأبطال الحقيقيون تركوا أماكنهم للخجول والعاجز. وهذا ما تبحث عنه العامة. مفاهيم مريحة مثل البيتزا الجاهزة، تطمئن نفوسهم؛ كي يشمئزّوا ممّا كان يعرّض استقرارهم للخطر. رحّبوا باللصوص في بيوتكم، ولا تستضيفوا المحرّضين، هذا ما يقولونه لكم. هذا هو الإحباط الحقيقيّ.

بمشورة ابن عمتي، ذهبت لأعتذر من تلك الغبية ريتا فورميزانو. فلنعترف: ابن عمتي على صواب. هذا ما ينبغي عليّ فعله. قال لي: لا حاجة لوضع الاستراتيجيات، سترى أن هذا هو الخيار الأفضل، سترى كيف تتجنّب هدر الوقت في المحاكم.

«إيطاليا حفلة فسق جماعي في ما يخصّ التسويات» قال لي ذلك الرجل الحكيم صاحب البْراز المباغت.

يحدث غالباً أنك تذهب أبعد ممّا توقّعت. كان ريتا بانتظاري، ولم تكن تنتظر شيئاً آخر. كنتُ بالنسبة إليها كالمسيح المخلّص. وغدا تبادل الثقة بيننا متيناً، بفضل التضامن الملعون. تعانقنا كالعائدين من الحرب بعد انقطاع طويل. وبكينا في الوقت ذاته. فالآلام تتفاهم، وتواسي بعضها لأيام بلياليها. تبادلنا المحبة ببراءة المراهقين التايلنديين. يا لهذه المفاجأة السحرية! تحسب أن لا طائل من وراء ريتا، فإذا بك مصعوق من أطنان من الإنسانية التي تختبئ تحت أيامها الرتيبة. لو كُتب عليّ شراء هذا القدر من الإنسانية؛ لأثقلت كاهلي الديونُ حتّى أطلق الدائنون عليّ النار. ترجّلتُ عن مركبتي الجنسية المفضّلة، ووجدتُ نفسي أحصد ما يشبه الصداقة مع ريتا. كم سمعتُ عن هذه الحالة، لكنني لم أستطع إليها سبيلاً في حياتي، وهذا بسبب دكتاتورية جهازي التناسلي. وحين وقع الأمر، شعرتُ أنني أكثر وسامة وبراعة. رجل كباقي الرجال. فهذا النوع من الصداقة يقشع غمامة الحماس على ارتكاب الفحشاء، ويكفيك للمضيّ قدماً لأجلٍ معقول. الشرود يجعلك تتعلق بقطار الشيخوخة في حالة صفاء ذهنيّ، لا مثيل لها.

فتحت لي الباب، وعيناها تغرورقان بالدموع الأليمة والجامدة في آن واحد. عيناها تستعصيان على الهدنة، ولكنّ المظاهر آيلة إلى السقوط دوماً. افتعلتُ حالة من السكوت الجنائزي تنفيذاً لنصائح ابن عمتي. ثمّ وقعت المفاجأة الكبرى بقولها:

«لقد فتحتَ عينيّ، يا طوني».

«لا ترفعي من شأني، يا ريتا الغالية» قلت بصدق يجعلني أخجل من نفسي.

«من اليوم فصاعداً، بعد كلماتك، أريد أن أغيّر حياتي».

«لا ترفعي من شأنك، يا ريتا» قلتُ بأداء مميّز، يساعدني في ضبط إيقاع الحوار، نظراً إلى كوني مطرباً مخضرماً.

كان المساء يهبط؛ ليلاكم أطياف الغد. المساء بوابة مشرّعة على العذاب اللاحق.

«ادخل» همست، وأفسحت لي المجال. وفي الممر، رمتني بعتابها: «علينا أن نتحلّى بطيبة القلب، يا طوني».

«علينا أن نطلب الرحمة من سان أنطونيو، إذن» قلتُ بواقعية.

كرّرت عليّ ببلاهة: «علينا أن نتحلّى بطيبة القلب، يا طوني».

«لا تصدّقي أن النية الحسنة درباً سالكة» قلت بنبرة تفيد القضية.

النوايا الحسنة كالبرق في الليل، تتبدّد ما إن تراها عيناك. إذا ازدادت مطالبكم بالنوايا الحسنة، فعليكم أن تولدوا من جديد من رحم السذاجة. مثل جاني ميليو، أحد زملائي.

طيبة القلب لا تناسب إلا مَن يكتفي برؤىً أكثر عدائية.

كان ابن ريتا واقفاً على العتبة، يقلّب كتابه المدرسيّ بعدم اكتراثٍ، لا أقاومه.

«ماذا تدرس، يا عزيزي ألبرتو؟»

«أدرس حدود نيكاراغوا» قال الصغير.

«يقال إنّ ثمّة الكثير من العاهرات على حدود نيكاراغوا».

لي مستقبل واعد كمعلّم في المرحلة الابتدائية. حبّ التعليم يسري في عروقي، ويصعد حتّى الشرايين.

ضحك ألبرتو الصغير كهجمة مرتدّة. سحقاً! لا يجدر به أن يضحك، بل عليه أن يشعر بالحياء، أو يعدّني غبياً أضعف الإيمان. لكنه قام بالدرس نيابة عني.

لهذا الولد مستقبل واعد، نترقب انتظاره. موهوب مثل مارادونا. إنّه يرى كلام الآنسة في الصف مجرد احتمالات ناقصة، وليس مُسَلَّمات. هكذا فسّرتُ ضحكته.

من الواضح - إذنْ - أن هذا الولد موهوب، ولديه أسلوب في الحياة. وهذه صفة عظيمة، تؤمّن لك الراحة النفسية مثل تناول الشاي والمربّى في الفنادق.

لي ميول عبثية إلى الحديث عن العاهرات؛ لأنه يعود بي إلى أكثر المواضيع حباً إلى قلبي: أنا نفسي. نعود إلى العاهرات دوماً مهما اغتربنا. نعود إلى سيرتنا المليئة بالتباين. فأوقات فراغهنّ تخلق درجات من التباين، يجهلها الرجال الملتزمون. وهذا ما يهمّني.

اتجهت إلى الصالة الشاحبة، ووجدت ريتا جالسة إلى الطاولة. الطقس ينذر بنقاش جدّيّ، لم أعتد على دخوله بالجلوس إلى أريكة مريحة. بل حول طاولة، يرسم النبيذ ومنفضة الرماد حدودها بين الخصمين.

نسيت ريتا ممسحة الغبار فوق ذلك الخشب الداكن. لا تفوتني هذه التفاصيل؛ لأنني عشت طفولتي أتأمل والدتي، وهي تنهمك في الأعمال المنزلية. وكانت مشاعري تتأثر برؤيتها تنشغل في ذلك النوع من العمل الذي لا يترك أثراً للغبار.

جلستُ، وأحسستُ حينها كم كان ذلك النهار طويلاً. شعرتُ بألم في فخذي، ولكنْ؛ عليّ أن أقاوم قليلاً؛ كي لا أموت.

ريتا تسحب نفساً عميقاً، يضاهي المكانس الكهربائية؛ لأنها تبحث عن الكلمات المناسبة. بعناية لا يُشقّ لها غبار. كنتُ أتوقّع أي شيء عدا أنها ستُحسن الاختيار.

لا ينبغي الاعتماد على غباوة البشر، فقد يخرج منها منطق ذكيٌّ وسليمٌ، يغرقك في محيط من الخراء. لا تستخفّوا ببلاغة المرتبكين!

«كنتَ على حقّ بكلّ كلمة قلتَها، يا طوني. إنني فاشلة، كما وصفتني، بلا شك. وإن كان ذلك صحيحاً، فأودّ أن أسألك لماذا ضربتَني. لماذا تضرب امرأة فاشلة؟ أين الشفقة؟ أين الرحمة؟ لا ألومك على ما فعلتَ، ولا أنتظر منك أعذاراً، فلا أريد أن أراك في موقف محرج. أريد أن أفهم فقط. إنني أبوح لك بنقاط ضعفي؛ لأنني أكنّ لك المودّة، ولأنك صديقي. وليس من اللطف أن تجرحني بنقاط ضعفي تلك التي أضعها تحت تصرّفك بنفسي.»

أرغب في الذهاب لدراسة نيكاراغوا مع ألبرتو الآن؛ لأنها وضعتني في موقف محرج. لقد أذلّتني دون مذلّة. كنتُ أنتظر أن تعاملني بالمثل، وكنتُ مستعداً مثل محارب عنيد، ولكنها سلكت دزباً آخر، لم أكن أتوقّعه. أحاول كسب الوقت، أشعل سيجارة، أضع النظّارات الزرقاء، أحيد نظري، فيقع على مسجّل بيتاميكس، أودّ في اقتنائه حقاً. عليّ أن أتذكّر أنني سأشتريه. يوجد فيلم واحد فوق المسجّل "الحب" لروبرت دينيرو والخارقة ميريل ستريب. يقال عنها إنها بارعة في التمثيل. ربّما. بالنسبة إليّ تبدو شهية

فحسب. ما قالته ريتا الضعيفة يستفزني جنسياً. لقد شاهدتُ ذلك الفيلم، وأبكاني كالوليد في المهد. مزّقني سيكولوجيّاً. رغم أنّ هذا لا يبدو، فإنني مصاب بالحساسية المنيوكة حين يتعلق الأمر بتأثّر المشاعر. ريتا تنظر إليّ، وأنا لا أجيب، بينما أركّز النظر في علبة الفيلم. لماذا لا أجيب؟ لديّ رؤية نورانية تضاهي رؤى إدواردو دي فيليبو. الآن أفهم. حين تنقصك الكلمات، فهذا لأن إنسانيتك تطلب منك ردّاً ملموساً. ألتفتُ نحوها. أضع السيجارة في المنفضة. أمسك يدها، وسرعان ما يحمرّ وجهها خجلاً، فهذا ما تصبو إليه. تريد رداً ملموساً؛ لأنها في حاجة إلى الدفء الإنساني حين تقع حياتها في مأزق الفشل.

لكن هذا لا يكفي. أنهض، وأجثم على ركبتيّ. وأعانقها بكل الدفء الذي تحتاج إليه، والذي أودّ نقله إليها. أريد أن أعطيها كل دفئي الآن. أريد أن أعطيها كل ما تحتاج إليه؛ لأنني أعرف حقّ المعرفة أنني مهما أعطيتها، فإنني لن أملأ تلك الصحاري التي تتمدّد في قلبها منذ أن كان عمرها تسعة عشر عاماً. منذ أن قالت: «مرحباً، بالحياة!»

تتفاعل معي. تعانقني، وتبكي. ثمّ تبكي، وتعانقني. وأنا أغمض عينيّ؛ لأنني أكنّ لها المودّة؛ لأنني أعرف اللحظة التي تسبق الكارثة الكبرى؛ لأن كلّ الأشخاص الخرائيين مثلي يبوحون بالعطر الزكيّ أحياناً.

تفوح رائحة الكوسا المطبوخة بالسمك والزعفران من ثياب ريتا. أشعر بالجوع. هل تراهنوا أنها ستعرض عليّ من الكوسا بعد ردّي الخالد؟

«هل تريد قطعتين من الكوسا وزعفران السمك؟» تسألني.

ألم أقل لكم؟ إنها لا تخذلني؛ لأنني أعيدها إلى الدنيا، فتستردّ توازنها، ريتا الغالية الجميلة.

«وحدهم المناويك يرفضون الكوسا بصلصة السمك والزعفران» أجيب،

وقد اجتاحني تهوّر ديمقراطي. ترتسم ابتسامة على وجهها بين الدموع. لقد عثرت - أخيراً - على بهجةٍ، نسيتها عند المقابر.

ننتقل إلى المطبخ يداً بيد. إياكم والشكّ بمقدمات جنسية، فالصداقة تتربّع على العرش بيننا. ولهذا السبب، أجد نفسي مندهشاً ومضطرباً قليلاً. إنه حدث جديد، بالنسبة إليّ. امرأة تأخذ بيدي للمرّة الأولى دون أن أحملها على قضيبي في اللحظة نفسها. ما الذي يحدث لك، يا طوني؟ تناولِ الكوسا، وإلا غدوتَ منيوكاً أنت أيضاً، أجيب في سرّي.

جلست إلى مائدة بائسة مجلدة، ساقاً على ساق. ألتفتُ إلى طبق الكوسا، وأشرب كأساً من النبيذ الأحمر. تنظر إليّ، وهي تسند ظهرها إلى المغسلة. ولا تأكل.

أقضي على صمتٍ، تخترقه دقّات ساعة الحائط التي يقدّمونها كهدية في البوستال ماركت: «يا لهذا الفتى ألبرتو، كم هو مميزا!».

«إنه غريب الأطوار» تقول «ذات مرّة سألته عمّا يحب أن يفعله في المستقبل، فأجابني أنه يريد إنشاء مصنع صغير لتصميم الإشارات المرورية. أيّ رغبة لولد في التاسعة من عمره؟»

أضحك، وأقول: «لقد وُلد في نابولي عن طريق الخطأ. روح ابنك تنتمي إلى شمال إيطاليا. يعرف معنى الكدّ في العمل، وهو مفهوم غامض بالنسبة إلينا.»

«ربمّا، ولكنْ؛ لمَ الإشارات المرورية؟».

«يريد أن ينظّم الأشياء» أقول.

«لكن الأطفال في سنّ التاسعة، إذا أحبّوا تنظيم الأشياء، تمنّوا مهنة الشرطي» ترد بحكمة.

«بين صاحب المصنع والشرطي تفاوت في الدخل لا يمكنك أن تغفلي عنه. قلت لك إن روح هذا الولد تنتمي إلى شمال إيطاليا».

«بالفعل» تقول وتسرح بأفكارها، كأن هنالك شيئاً آخر.

«بالفعل ماذا؟» أسألها.

«بالفعل. لستُ متأكدة من أن ألبرتو ابن زوجي السابق. في تلك الفترة، كنتُ أقضي بعض الوقت مع اثنين من التجّار القادمين من شمال إيطاليا.»

توقّفوا. لا تزعجوني الآن. ساقاي تستعيدان الحياة. الآن بوسعي أن أتوقف عن تجرع الكوكاين أيضاً. أكتفي بنفسي. فلتذهب الكوسا إلى الجحيم. إنني أكشف عن قلب مليء بالحيوية. انظروا ما الذي تفاجئني به ريتا التي تبدو كميّتة، تقضي إجازتها، بثيابها المنزلية باهتة اللون، وشعرها الذي لا يثير أي أسقف عفيف من الإكوادور. انظروا كم من الرؤى أستخلص بوساطة الهرطقة.

تنظر إليّ، وتبتسم بمكر. تكشف لي عن سرّها. تتحوّل إلى أنثى على حين غرّة. كم كانت تتلهف لبوح سرّها لأحد ما؛ كي تظهر أنها على قيد الحياة. مثلي تماماً.

سدّت قابليتي على الطعام؛ لأن لي فضولاً مريضاً يتضوّر جوعاً. قالت "اثنان" من التجّار. لو كان واحداً؛ لأكملتُ طعامي بكل أريحية. لكنها قالت "اثنان". أودّ أن أحصل على معلومة في غاية البساطة: كلّ واحد منهما على حدة؟ أم الاثنان في الوقت نفسه؟ هذا ليس تفصيلاً ثانوياً، لاسيّما أنّ ريتا لم تُخلَق للشبق والنشوة الجنسية، مثلي.

أفهم من ابتسامتها الماكرة التي لا تنقشع عن وجهها أنها لا تنتظر إلا أن أطرح عليها هذا السؤال. وإن لم أطرحه، فسوف تشعر بالقهر.

«الاثنان في الوقت نفسه؟ أم كل واحد على حدة؟» أسأل بينما أتأكد من أنني متوتّر، وأتلعثم متأثّراً.

وهل تعلمون ما الذي تقوم به معلّمة الجنس المقدسة؟ تغلق باب المطبخ. أجل. إنه تصرّفٌ عظيمٌ، لابدّ أن يدخل في مناهج التدريس. فلو كان ألبيروني شاهداً على هذا، لما ملأ كُتُبه بتلك الترهات التي لم أقرأها؛ إذ ليس عندي وقت أضيّعه، وأعرف مسبقاً أنها مجرّد سخافات.

إغلاق الباب يشير إلى ثلاث نتائج:

١) تريد استثناء أبنائها من معرفة أسرارها. فهي تتصرّف بوعي، إذنْ.

٢) تريد إدخالي في حالة حميمية مكثّفة، وساحرة.

٣) تريد أن تضيف عنصر التشويق إلى الحالة.

ترتجف ركبتاي من الفضول والتأثّر. تتقلّص أعضائي التناسلية؛ لتصبح بحجم نقاط صغيرة في هذا الكون الفسيح. وهذا يحدث حين يقضي التأثّر على الإثارة.

واحد صفر لصالح التأثّر.

تعود ببطء نحو الطاولة؛ لتدخل المشهد المثير. هذا المشهد لك، يا ريتا، فتألقي! إنها تعيش الحالة كأن كاميرات المراقبة مسلّطة عليها. وحالياً أنا مَن يقوم بمهمّة المراقبة. إنك تقتلينني، يا ريتا. هيا تكلّمي، أيتها اللعينة. لكنها لا تتكلم، بل تتعامل معي كأنني متسوّل يقف على عتبة دارها المجازية، تتأرجح زهرة الأقحوان بين أصابعها: "أدخلك؟ أم لا أدخلك؟ أدخلك؟ أم لا أدخلك؟".

ثمّ تهمس بسخونة، كأنها انقلاب عسكري في جنح الظلام:

«لا أعلم إن كان الظرف مناسباً؛ لأخبرك بهذا الأمر.»

أيا ريتا القميئة، مَن تظنين نفسك؟! كليوباترا؟! حواء؟! أكاد أجنّ من الفضول. من أين تأتي بكل هذه الأنوثة الآن؟! كم لدى الإنسان من قدرات

إذا أحكمَ عقله؟ هذا ما أتساءل به دون العثور على إجابة. تريد مني أن أتوسل إليها. هذه لعبة خطيرة، عليّ أن أختار الكلمات بحذر شديد، فإن بالغتُ، سكتت ريتا إلى الأبد. لا أستطيع احتمال أنني لستُ جاهزاً. لابدّ أن أتعامل كفهد أنيق ومحنّك.

كم جميل أن تصبح الحياة معركة من هذا النوع. فأنت تعلم أنك تموت خدمةً لقضية عادلة. وهكذا تتفهّم نابليون. أراد استحواذ الأرض، وهو ما أبتغيه الآن.

لعلّ الخياليّ موجودٌ في هذا المطبخ اللعين.

«إن لم تخبريني الآن سأغضب أكثر من الظهيرة» لعبتها هكذا، بين الجدّ والهزل. فلنأمل خيراً. ترمقني بنصف ابتسامة، لها ملامح الشهوة الساخنة. أخذت دور القيادة، فيما تدرس إمكانية تجنيدي في خدمتها. هي مَن يقرّر، ويحسم. وأنا تحت رحمتها كالوليد على حلمة أمه. إلا أنني أغرق في هاوية من الترقّب الصامت، وأعلم أنني أتصبّب عرقاً، وهي تفهم ذلك رغم أنها لا تراه.

«إنك تتصبّب عرقاً، يا طوني»

«إنني أتصبّب عرقاً من شدة الفضول».

تربتُ على كتفي. ولو أمرتني برقصة شنيعة، لفعلتها. إنني أحتضر، وهي على علم بذلك، بنت الكلب. وتستمتع بهذا أيضاً. تمارس سطوتها عليّ كرعشة من السقوط المدوّي. لكنها تعلم عن سابق تجربة أنني قد أنفجر بين لحظة وأخرى. يا لها من لعبة خطيرة وشريرة. وها هي تباشر؛ كي لا تهدر الوقت: «كانا ينكحانني واحداً تلو الآخر، متى أرادا».

اربطوني على الكرسي، حباً بالله، وإلا ارتكبتُ مجزرة. نادوا على ألبرتو، وقولوا له أن يأتي إلى هنا؛ لندرس الجغرافيا معاً؛ لأنني لا أستطيع الاحتمال وحيداً مع هذه المرأة. عليّ أن أنفصل عن الحالة.

فلنرتّب الأمور.

عبر حياتي الطويلة، استفدتُ من إيماني بجميع الديانات، فلم أتوانَ عن مضاجعة النساء من شتّى الديانات البوذية والكاثوليكية والآنجليكانية والهندوسية، إلخ.

طارحتُ الغرام في سبعة آلاف سرير. وأغويتُ النساء في كل زمان ومكان، كالطائرة النفّاثة التي ترمي القنابل العنقودية. لثمتُ ثغر عارضات عاريات في أزقة كابري الخطيرة. تبوّلتُ على توأم ألماني في هانوفر. نكحتُ داخل مرحاض المحطة القذر مافالدا دامبرجو، إحدى أرقى النساء النبيلات والمتغطرسات. ونكحتُ مضيفات أمريكيات، في عمق الطيارة ليلاً، ونحن نحلّق فوق المحيط، دون أن ينزعن القبعات عن رؤوسهنّ، بينما يتأوّهن في وضعيات مثيرة، ثمّ يعدن إلى تقديم مشروب المارتيني، كأن شيئاً لم يكن. صليّتُ أمام جسد بياتريشا الواسع من كل زوايا الكون الجنسي. ارتكبتُ الشنائع بحقّ راهبة في معبد الألم المقدس في مونتيروتوندو. أولجتُ قضيبي في دبر محاميتي الاقتصادية في أثناء قيامها بجرد أحد محلات الأقمشة الشرقية. داعبتُ نهد مساعدتها الناعم في أول مرّة دخلتُ فيها إلى السجن. ونكحتُ إحدى المعجبات بي في غرفة تبديل الملابس يوم زفافها، وزوجها ينتظر سعيداً، بينما يدخّن سيجارة، ويحلم بالذهاب إلى شواطئ المالديف الدافئة. نكحتُ صاحبة شقة فاخرة قيد الترميم في باريولي تحت أعين عمّال البناء الأربعة الذين ينظرون إلينا بأعينهم الرمادية الحاسدة. ارتبطتُ بعذراوات وحوريات نكحهنّ ألفُ رجل قبلي. حاولتُ أن أوصل امرأة إلى الذروة، وهي التي لم تنتشِ منذ العام ١٩٦٣، وفشلتُ طبعاً، ولكنْ؛ بأسلوب رفيع وصادق. داعبتُ مؤخّرة كبيرة لمالكة أراضي في اللحظة التي كانت توقّع فيها على وصيتها أمام كاتب عدل عنيد. ضاجعتُ قزمة عائدة من مقاطعة البروفانس جنوب فرنسا بعد سنوات جهيدة في العمل في السيرك. لامستُ بظر مطربة أوبرالية تنطلق شهرتها من فلوريدا إلى بلغاريا. قمعتُ بشكل

متفاوت عدداً لا يُحصى من النساء بنفس اللباقة التي نتعامل بها مع قاطعي التذاكر الكهول في السينما. نكحتُ تحت الماء وعلى الزوارق ما لا يقلّ عن ستة عشر كائن أنثوي. نكحتُ مرتبطات وبائعات وعاهرات وأديبات من الدرجة الثانية، وسحاقيات وقطيعاً من طالبات المحاسبة وطالبات الآداب وموظّفات فنادق، ولاعبة جمباز تشيكوسلوفاكية، وفلاحات دانماركيات، وأمهات ملولات، وصيدلانيات متفرغات لدراسة الكوكايين، ونباتيات يزرعن البخّور في منازلهنّ. نكحتُ زوجات جميع الآخرين، وقائدة طائرة حوّامة في غاية السوقية، وآنستين في الحضانة معاً خلال الاستراحة. ورغم كل ما سبق من هذه الموسوعة الإباحية، فإنني لم أُذهل وأُصدم وأنهار وأُثار، كما في هذه اللحظة إزاء الكلمات التي نطقتها ريتا فورميزانو توّاً. لماذا؟

لأنني لم أكن أحد هذين التاجرين من شمال إيطاليا. إنها تجربة الآخرين التي تعدّ أفضل من تجربتنا الشخصية؛ لأنها تخضع لتحسين دائم من مخيلتنا. ولأنه لغز ريتا فورميزانو المتملّصة، تفلتُ من بين يديك مثل سمك الأنقليس، وتتركك في حالة ذعر. إنها جبّارة، تردم الدنيا بأنوثتها. وهذا واردٌ في حرب العلاقات بين الأفراد. تتبع تكهّنات الآخرين قبل أن ترتّب توقّعاتك، فتصبح تابعاً دونيّاً، بلا جدوى. ولكنك مرغمٌ على اتباع الآخرين، مهما كانوا مزيّفين. هكذا يولد الحبّ والزواج والإمبراطوريات والديكتاتوريات. هكذا تشيب السكرتيرة الأمينة في ظلّ مديرها، تعيش حياة أليمة من الأفضل أن تنساها. هكذا نصبح طفيليات لا إرادياً. تتبع ألغاز الآخرين، كما يفعل النورس بالسمكة. هكذا نحصد مزارعنا الفوقية في مكان آخر، بفضل أناس يجعلونك تتألق حتّى يرموك في الظل مجدداً. هكذا يولد الظلم والفرق بين الطبقات أيضاً. لستُ هنا؛ لألفّق الأكاذيب، فسوء توزيع الثروة قائم في كل مكان، حتّى في العلاقات المسالمة والمواسية؛ حيث يهيمن الانسجام على عرش من الحسد. والدليل على ذلك أننا ابتكرنا الطبّ النفسي؛ كي نثبت فرادة أنفسنا، فإذا بالطبيب النفساني يتألق، ويبقى المريض رهينة الظل. لن يوقعني أحد في الفخ. إذا كنتُ أتصبّب عرقاً، فهذا لأنني أردتُ التألّق.

لم آت لمواجهتكم، بوسعي أن أفسح المجال للآخرين، كما أفعل مع ريتا، إنما هي استراحة تغذّي هواجسي بأناي الأعلى.

تتوّج ريتا نفسها بهالة من الفسق المنزلي، تخطو خطوتين باتجاهي، بثيابها المنزلية وقامتها الثخينة، وتقول بنبرة إباحية: «أترى؟ أنا لستُ كما تعتقد».

لقد أخطأت.

قالت الجملة الخاطئة التي تكدر صفوي. حكمت على نفسها، ونزعت عني شقاء التفكير. يا لهذا الخطأ الفادح! هذا هو الخطأ الذي يهزم ملايين النساء. يرغبن بالسيطرة على أنفسهن دائماً. يدخلن في منازلة ضد الواقعية باستمرار. أنا مَن عليه أن يحكم في هذه الحالة. وأصدر حكمي استناداً على الخيال الواقعي. أرادت أن تقحمني في اللعبة، حسناً. وكما يحدث مع الأطفال: أنت متشوّق للعب، وهم يريدون أن يشرحوا لك قواعد اللعبة، فيقضي عليك الملل قبل أن تبدأ اللعبة. وهنا يحصل الشيء ذاته. ريتا تقود اللعبة، وتفرض قواعدها. تريدني أن أكوّن عنها الفكرة التي كوّنتها عن نفسها. وهذا ممل جداً، فهنالك تزامنٌ في الرغبات، وتعادلٌ في توزيع الأسلحة. هذه المرأة تغرق في وحل من الرتابة. وهذا يُثبت ما كنتُ أقول عن الخيالي الذي يفلت مثل الفراشة في سنّ الرشد اللعين. يا لتفاهة هذه الدنيا! ساعة حائط مهداة، ثياب المنزل القميئة، طبق الكوسا وقطعة الخبز. كنتُ أبحر مع ظلال أولئك التجّار الشياطين، فإذا بي أستيقظ ممرّغاً في الوحل. كنتُ أرى أشجار الصنوبر تتّشح برطوبة الندى، فإذا بي أذكر زوجتي الغاضبة في البيت. لقد أطفأتُم عليّ نور أحلامي وذكرياتي المنسيّة. أنت تؤذينني، يا ريتا. كيف أخرج من هذا الوضع الآن؟ تحرّكين ذكرياتك الأليمة في خليط الهيجان؟ بمَ أتصرف الآن؟ ليت الزلزال يأتي كي تسقط هذه البناية. إنني في حاجة إلى دهاء عظيم، إلى عرض موفّق. وليس كهذا العرض الذي تؤديه ريتا بعجزٍ مشين. تظن أن العناق يكفي لفتح أبواب الحميمية، تظنّ أنّ

الحياة سهلة، وهذا ما يحبطني حتّى الجنون. أين ريتا التي كانت هنا منذ بضعة دقائق؟ لقد رحلت. أردتُ أن أحترمها على تاريخها القذر، لأكتشف أنها تستخدم ذكرياتها بطريقةٍ غوغائية؛ كي ترتّب معي علاقة جنسية. وما أهمّيّة الجنس إن كنا نتحدث عن الصداقة قبل قليل؟ ومع هذا، فإنني اكتشفت قيمة الصداقة بفضلها. ما الذي تتفوّه به، يا طوني؟ هل ستصبح منيوكاً؟ استيقظ، يا طوني، ولا تكن نمطيّاً، فهذه ليست طباعك، أكرّر في ذهني كقصيدة، حفظتها على ظهر قلب.

وأتصبّب عرقاً من جديد، ولكنْ؛ ليس من شدة التأثّر، بل لأنني أخاف أن أهينها، وهو ما لا تستحقّه. ليس من السهل أن تشعر بالحصار. الآن - فقط - أتفهّم آلاف النساء حين يبحثن عن مخرجٍ من تعدّياتي الجنسية. كنتُ أضعهنّ في موقف محرج، فلا يرغبن باللعب معي. وأنا لمْ أكن أهتمّ؛ لأنني كنتُ ألعب بمفردي دون أن أنتبه. كنتُ كالمتقاعدات اللواتي أنهكهنّ سلق القرنبيط. كم من مرّة أثرتُ الشفقة؟

ما أصعب المنفى الاختياريّ على رجلٍ يتمتّع بسيرةٍ كسيرتي. إنه تصرّف أنانيّ ومخزٍ إلى حدّ بعيد. ومع ذلك، فأنا أفضّل المنفى واستعادة الطريق في هذه اللحظة. الحرية. لكنني محاصر من رائحة الكوسا بصلصة الزعفران البحرية الممزوجة بروائح أخرى من طب النساء، علاوةً على الكوكايين في أنفي الممزق. تبدو لي الآن كالمستحاثة التي أعادها المتحف إلى الضوء بعد ملايين السنين؛ ليضعها تحت أنظار جمهورٍ متلهّف. سوى أنّ الجمهور المتلهّف، أنا في هذه الحالة، لا يريد زيارة المتحف. وقد قلتُ ذلك مراراً: المتحف يسبّب لي التقيؤ. ابحثوا بين جراحي، فلن تجدوا أثراً لزيارة متحف واحد سواءً كان اللوفر أم البرادو. أنا أفضّل البقاء في المقهى؛ لأراقب العالم، ثمّ أندسّ في ردهة بناية مشرّعة الأبواب؛ كي أشتمّ رائحة الأجانب الكريهة. أتفحّص الكنى على صناديق البريد، وقد أسرق الرسائل الواردة؛ كي أشعر بجبروتي. ولا أهتمّ بشأن الموناليزا المنيوكة.

هذه هي الحياة بالنسبة إليّ. نقطة انتهى.

أشتّتُ انتباهي بالنهوض. يتلاصق وجهانا بالكاد. أحرّك بسبّابتي الثخينة ضفيرة مقتولة من صبغة قديمة ورديئة. أمحّص في وجهها. تبدو جميلة الآن، حتّى لو أنها تفقد نعومة بشرتها وحيويتها منذ ثلاثين عاماً حين كانت تتنقل بين التاجرين.

ألفظ جميلة أصيلة، تنبثق من الداخل، كما لو أنّ أحداً آخر يقولها. أخجل منها لشدّة حقيقتها: «أنت في غاية الجمال، يا ريتا. أنت جميلة مثل أمي».

تقشعرّ لوهلة، كأنني ثقبت ضميرها. ثمّ ترتجف كالعاشقة؛ لأنها لم تتوقّع مني ذلك القدر من البراءة والرومانسية.

تستذكر ماضيها، حين كانت في السادسة عشر من عمرها تلثم ثغر شابّ خجول يتأبّط الكُتُب خارج المدرسة القريبة من الملحمة التي تحضّر البيتزا المالحة الشهية.

أقبّل جفنها، فترى أمها، وهي في عمرها ترمقها بعين ودود؛ لأنها فهمت أن ابنتها قبّلت فتى للمرّة الأولى. تشتمّ رائحة الصلصة اللذيذة الجاهزة على المائدة، تعيدها إلى ذكرى بعيدة ومذبذبة. فبين البراءة والانحراف خطوة قصيرة.

أداعب خدّها، فترى بيتها حين تحتلّها الشمس النقية، تتسلّل من تلك النوافذ الموصدة التي كانوا يُصلحونها بحبلٍ، يرفعها إلى الأعلى. تسمع صوت المصراع يهوي إلى الأسفل ببطء مصدراً صريرا ناعماً، يمرّ خلاله النهار بعفوية، لم نعد نشعر بها. ترى أزمنة سالفة تزدهر بالفرح والرخاء.

أمرّر يدي على رقبتها، وآخذ برفق وجهها على صدري. فتغمض عينيها، وترى أباها يدخل إلى البيت عند السابعة مساء حاملاً علبة كبيرة. لقد اشترى لها جزمة حمراء اللون بسعر مخفّض من محلّ قرب كازوريا، وكانت ترغب بها أكثر من أي ولد.

ثمّ تتأكد بعد لحظات أن تلك الجزمة هي أول وآخر هدية من أبيها. تشعر بألم في معصميها المخدوشين من حبل النافذة؛ لأنه ثخين ومصنوع من نسيج، يمزّق الأيدي، فتتشاجر مع إخوتها على أحقيّة رفعه إلى الأعلى حين يتأخّر التقنيّ في إصلاحه.

ألامس شعرها برفقٍ، فترى نفسها تعانق والدها بعد أن رأت الهدية. تلصق خدّها بخدّ أبيها الخشن، وبلحظة واحدة، تكبر؛ لتصبح امرأة بعد اكتشافها لعطر ما بعد الحلاقة المذهل. وكأنّ السنين لا تمضي، تصبح امرأة في عائلة عاملة. وبعد الرخاء يطبق عليهم الألم. ترى أباها ينظر إليها بجدّيّة للمرّة الأولى، يأخذ قراراً أليماً لا رجعة فيه، يهجر عائلته؛ لأنه أحبَّ امرأة أخرى. وحينها ترى أنها لم تعد تُعجب بذلك الفتى الذي قبّلته، وتحتار في أمر الجزمة التي لن ترتديها، تواسي أمها التي تنزوي عند النافذة بانتظار يائس لعودة الأب الذي ذهب إلى مكان آخر لا يشعر فيه بالسعادة. ترى والدها يضرب جبينه بحائطٍ مطليٍّ لتوّه، ويبكي. يبكي لأنه فقد السعادة في رحيله، ولن يجدها مع المرأة الأخرى، ورغم هذا يحافظ على قراره، ولا يعود إلى حياته القديمة.

أهمس بإذنها: «ريتا».

فتبكي بصمت؛ لأنها ترى التالي. أيام مراهقتها تدمّر سراح أفكارها ركلاً ورفساً عنيفاً. ترى أخاها في سنّه التاسعة عشرة يقدّم نفسه كبش فداء، يلفت انتباه الجميع بإدمانه المبكّر على الكحول حتّى يموت في مستشفى رديء بالتليّف الكبدي الذي لا يعرف الشفقة.

كم مؤسف أن المرض لا يقيم اعتباراً لتعاسة الأحداث. المرض يد الله التي تضرب يمنة وشمالاً دون رحمة، أو تفهّم. والشرود يخدع الجميع حتّى أكثرهم تبصّراً كيسوع المسيح.

تنساب دمعة ريتا على زغب صدري، فأفهم أنها تبكي. أضمّها بشدة.

صدقّوني، إنني الآن رجل طيب القلب جداً. أضمّها إليّ أكثر. إنني أحبها جداً حتّى لو لم يتضح معنى الحبّ لكثير من الحمقى. الحب عبارة عن مجموعة كبيرة من الأشياء، تتهرّب منها كل المفاهيم الموجزة والمحددة، كما تفعل الفئران حين تغرق السفينة.

أغمض عينيّ.

تغمض عينيها.

نغمض عينينا. فنرى معاً جنازة أخيها المدمن على الكحول. لكن المشهد فوضوي من شدة الدموع. أما ريتا؛ ترى أبعد من ذلك. ترى التالي.

ترى نفسها مستلقية على سريرها الفردي حين كانت شابّة، تحدّق في النجفة ذات الطراز البحري وضوءها الذي يبثّ الكآبة. تتخذ قراراً رهيباً في يوم جنازة أخيها. تفتح خزانتها بعينين مصفرّتين من الدموع، تنتعل تلك الجزمة الملعونة، وترتدي تنورة قصيرة جداً. تعلم أنّ ساقيها جميلتان. تأخذ حقيبة اليد، وألفي ليرة، وتخرج من البيت. ما تزال الشمس في كبد السماء خلال ذلك الربيع الهانئ. أثقلتها العهود، لكنها تمشي برأس مرفوع. يلتفتُ نحوها الشبان، لكنها تتجاهلهم، ولا تنتبه لوجودهم أيضاً. لديها هدف محدد: محل التبغ. تدخل بجرأة، كأنها بلغت سن الرشد. وبالفعل لم يسألها بائع التبغ عن عمرها، فيما تلفظ كلمتين، تغيّران إيقاع أيامها إلى الأبد:

«علبة مارلبورو».

وكمَن يدخل في دوّامة، لا يخرج منها، ريتا لن تكفّ عن التدخين.

أحيد بصري إلى الطاولة، فأرى علبة المارلبورو، ما تزال هناك بعد أكثر من عشر سنوات. وإلى جانبها ولاعة ملفوفة بجلد مزيف. لا تقلع عن التدخين؛ كي لا تكفّ عن النسيان.

قبل أن تصدّعوا رؤوس الناس بمشكلة التدخين، عليكم أن تجرّبوا أصالة

الألم. موتوا من الغيظ في حياة تعيسة، وبعدها نناقش نظرياتكم الخرائية عن وقف التدخين.

ننفصل عن بعضنا. آلت أيّ رغبة جنسية إلى الزوال.

نظرت إليها من الممر الأبيض.

«تحية إلى العبقري ألبرتو» قلتُ لها، فهزّت رأسها بابتسامة.

تبادلنا النظر مرّة أخرى، ببسالة تنشد التجربة. ثمّ تبادلنا ابتسامة رائعة ومجنونة كأحداث ذلك اليوم المجنون. خرجنا من المأساة منتعشين، هذا تأويل تلك الابتسامة.

فتحت الباب، وعاود الإرهاق هجومه على فخذيّ. فكّرتُ أن أستنشق الكوكاين، وأنا أنزل السلّم. ولكنْ؛ قبل ذلك، أرسلتُ إليها قبلة عتيقة، بينما أشعلتْ سيجارة المارلبورو بحرفيّة عالية.

وهذا ليس كلّ ما جرى.

٩

مثل جوهرة وسط القلب

ميا مارتيني

كنا ما نزال أطفالاً حقاً، الحفاظات في مؤخّراتنا، وأنوفنا تشتمّ روائح المستقبل.

أنا وديمتري.

بينما كانت إيطاليا تحاول التعلّق بأبطئ قطار، يحملها إلى الحداثة. كان عقد الخمسينات طريقاً طويلة من الثلاجات والغسالات، منفذاً مضيئاً من ظلمات الجوع والعوز والموت والتيه في البرد الحقيقيّ.

كنّا نبكي من الماضي، ونسخر من المستقبل، في كل مكان. وما إن ينقشع الطلاء حتّى تبدأ الحياة.

لم نكن نعرف عن الحياة سوى أننا كنّا بانتظارنا، في كل زاوية من الشارع. لا شيء آخر. كنا نطوف عن غير رشد، مثل الفتيات حين يمرحن بلعبة عصب العينين. نتسول لمسة نهد ما عن طريق الصدفة. لم نكن نعرف شيئاً. كنا في أول العمر حقاً، نرى الحبّ على أنه الرقّة، والجنس لغزاً معتماً عصياً على الاكتشاف.

أنا وديمتري، كنا كالعذارى، أطفالاً صغاراً بلحية ناشئة.

كنتُ - حينها - أؤلف بعض الأغنيات، وتتربّع الأزاهير والمروج الواسعة

على أوراقي. حين ذهبتُ في نزهةٍ إلى الغابة، خلتُ أنني أنتهك شيئاً ما. تخيّلوا. كنتُ أتحدث في الأغاني عن أخواتي الكبار، اللواتي يصفعن الباب في وجه والدي الذي لا ينقطع عن الصراخ في وجههنّ. هذه كانت أقصى الآلام التي كنتُ أشعر بها.

كنتُ أهذي بقصص الحب الحزينة، ولم أكن قد دخلت في أيّ منها. ثمّ آخذ تلك النصوص إلى ريبيتو المايسترو العظيم. لم يكن يقرؤها بالكاد، بل كأنه قرأها. وكان على حقّ بشكل لا لبس فيه. كان يقول لي:

«عليك بالأفعال، يا طوني»

ثمّ يستدرك نفسه على الهاتف، والسيجارة تتدلّى من بين شفتيه، ويحدد مواعيد حفلات في أماكن، تبدو لي أنها ما وراء المحيط، في حين كانت ثلاث ساعات تكفي لبلوغها بالسيارة.

أمام طلبات هاتفية غامضة، كان يرفض أغلبها بكل ما أوتي من تكبّرٍ ولا مبالاة، بينما يقع الرماد على قميصه الأبيض الفاخر. أو على الأرض. ويترك الرماد؛ حيث هو إذ ليس لأحد السلطة على مسحه من هناك.

ثمّ يمرّر يده على شعره بشرود، ويقول: «لقد صدّعوا رأسي فعلاً».

لم أكن أفهم من هؤلاء الذي يصدّعون رأسه؛ لأنني كنتُ أراه بمثابة الله متجلّياً في شخصية مطرب.

أنا وديمتري كنا نذهب إلى كورنيش شارع كاراتشولو. كنا نعدّه نافذتنا على العالم. تسرح أفكارنا، فيما كل واحدٍ منا يسند رأسه على يديه المتشابكتين. جنباً إلى جنب، صديقان سيئا الحظّ، يحدّقان في مدينة كابري كأنها جثة. بعيدة مثل القمر. وأسطورية مثل العهر. كابري في تأملاتنا الغضّة، أنصاف جمل مسروقة من نقاشات الكبار في الحانات، وفي السيارات المركونة أمام المنتجعات، وتحت النوافذ المنخفضة، وبين الأزواج المتعبين ينتظرون النادل ومشروب المارتيني.

«هل تعرف كيفية النكاح؟» كنتُ مرهقاً، أتوسّل ديمتري أن يجيبني.

«لا، ولكنْ؛ لديّ بعض الشكوك.» يجيبني بما يُظهر عدم خبرته في الأمر.

وهكذا نضحك مدّة عشرين دقيقة، ثمّ نلج بعدها هاوية من السكوت الكئيب الذي يصنعه الترقّب المؤلم والسؤال المستعصي: متى يخبروننا بحقيقة الأشياء؟

لم نكن نجرؤ حتّى على تخيّل أننا نخوض تلك التجارب حقاً. ربّما كانت المعلومات عنها تكفينا.

ويستمرّ سكوتنا، ونحن نتّكئ على الصخور، نداعب الطحالب الناعمة بأيدينا، وننتظر أن يحين دورنا. بصبرٍ، لا يعرفه إلا الخالدون. هذا ما كنا نشعر فيه خلال مراهقتنا. نشعر بأننا خالدان، ومفعمان برغبة، ليس لها اتجاه معين، لكنها رغبة عارمة، وتتضوّر جوعاً. قضينا مراهقتنا بفم مفتوح. بانتظار أن يطعمنا أحدهم قليلاً من الحياة بأيّ ملعقة صغيرة.

وأخيراً، بعد أن استهلكنا دردشاتنا على كورنيش كاراتشولو، جاءت تلك الملعقة.

كانت تُدعى البارونة إليونورا فونسيكا، أرملة، تناهز الستة وخمسين عاماً. تعرّف عليها ديمتري عبر رفيقة بنت عم حفيدة أخت صديقة أمه.

إليكم البارونة إليونورا، المعروفة بالملعقة.

كانت تقيم كالأباطرة في حي سيرينيانو، حيّ النبلاء الأثرياء، في بيتٍ، حسبتُه متحفاً للوهلة الأولى، وسألتُ: «عذراً، يا سيدتي، أين منزلك؟»

لم تجبني. لكنها برمت برفقٍ عنقَها المحمرّ من التجاعيد الملتوية، بمعنى: هذا منزلي، أيها الأحمق.

ولكنْ؛ كي نفهم كيف بتنا نتردد مراراً إلى بيت البارونة فونسيكا، لابدّ أن نعرف مَن كان، ومَن يكون، ومَن سيكون ديمتري المعظّم.

وجهه يبدو لتمثال إغريقي، طويل القامة، متناسق الأطراف، أنيق مثل بروفيريو روبيروزا، تلوح في مداره شحنةٌ من البلاهة، لا تتناغم مع وسامته الموضوعية، غريب الأطوار كالحيوانات، بشكل لا يطاق، اعتاد ديمتري على قهر الحياة وسحقها بفضيلة واحدة: عدم العمل.

كان ديمتري يمرض إذا لاح أمامه طيف عمل محتمل، رغم أنّ الفرضية بعيدة كل البُعد عن الواقع. تصيبه نوبة هوجاء من التقيّؤ والإعياء واصفرار الوجه والبقع الداكنة على جلده ووجهه وأذنيه، ناهيك عن انعدام الشهية والخرس والاكتئاب. لستُ أمزح، وما من ضرورة للمزاح. كان والداه يعرفان هذا، فيتجنبان مناقشته بالموضوع خوفاً من فقدانه، ووجوب البكاء في المقبرة على ولدٍ يرحل في ربيع العمر. فالويل لك إن قلتَ في حضرة ديمتري إن ابن أحد الأقارب يخوض منافسة توظيف في مصرف، أو مؤسسة تنموية. حباً بالله. في بيت ديمتري، كانوا يتهامسون هذه الأخبار خوفاً على صحته، وقد ينتقلون إلى غرفة أخرى، أو يدخلون الحمّام في جوّ مؤامراتيّ؛ حيث يفتحون الماء؛ كي لا يسمعهم، أو يشغّلون الغسالة لإصدار ضجيج إضافي؛ كي لا تصل أحاديثهم إلى مسامعه. تهمس أمه في أذن والده، بعد أن وقعت فريسة للعذاب:

«هل تعلم أن جيجينو الأحمق ابن الناطور توظّف في مصرف نابولي؟! ماذا سيفعل ديمتري؟»

أبوه طيب القلب مثل حبات البطيخ الطازج في الصيف، يقول بلباقة كأنه رهينة بيد القدر: «حتّى ديمتري سيجد طريقه.»

لكن ديمتري لم يجد طريقه.

ذات مرّة كسر الروتين، بشغفٍ ومزاجية تشبه مزاج مارلين مونرو، وجرّب

أكثر المشاريع صعوبة، تلك التي تسمح له أن يراكم مليار ليرة خلال أسبوع واحد؛ ليعيش بعدها راضياً ومتجولاً في طرقات كابري مثل الملكات. وللوصول إلى تلك الغاية صعبة المنال، حاول أن يفتح مشروعاً لبيع جرّات غاز التنفّس تحت الماء، حاول أن يبيع سيارات ألفا روميو للعرب، حاول أن يقنع بعض رؤوس الأموال بافتتاح دار نشر، تختصّ في إصدار الأدب الإباحي، وتسلّط الضوء على مشاهد الجنس الشرجيّ.

«الناس تبحث عن المحظور، يا طوني» كان يقول لي، وهو مقتنع بكلامه جداً. ثمّ عمل كمدير أعمال ممثلة دانماركية جميلة وباردة مثل هوابط الكهوف، وجاء بسجّاد عديم الذوق من بلدة في التبت، وخطّط لاختراع كرسيّ، يجلس إليه الناس في المرحاض، وحصل على الترخيص بتجارة نوع من الشوكولا المحشوة بالجبن المدخّن، ونظّم قوافل حج مزيّف إلى مدينة لورد المقدسة محتالاً بهذا على كهول ومرضى مؤمنين، وانتحل شخصية عالمٍ، يقيّم الجواهر والماس، فإذا به يُفقر شركاءه الذين كانوا يدّخرون منذ أربعة عقود، وتظاهر بأنه بارعٌ في تصميم الحدائق المعقّدة على الطريقة الإنكليزية لقصور محدثي النعمة في بريانتسا، وألف مشروع آخر يستحيل إحصاؤها الآن. كان يفشل دوماً، دوماً. لم يستطع أن يكسب فلساً واحداً من كل تلك الأعمال.

وهل تعلمون كيف انتهت قصته؟

يعيش الآن في كابري، يتجوّل في شوارعها طيلة السنة مثل الملكة، يتلاعب بقلوب آلاف من العذارى حسب الفصول، يرتدي ثياباً كرنفالية. وهل تعلمون كيف يعيش؟ نساعده نحن، أصدقاء الطفولة. أنا وبيبينو دي كابري وآلدو وباتريتسيو. ثمّ يشاع عني بأنني لستُ طيب القلب. كل هذا من أجل ديمتري المعظّم. نقتصّ ضرائباً من نقودنا كل شهر، نجمع المال، ونعطيه إياه. وكي لا يشعر بالذلّ، نتظاهر بأنها إيرادات حقوق أغنية كان قد اقترحها على المقدّم كورادو مانتوني منذ عدّة أعوام دون أن يصله أي جواب.

وبما أنّ صاحبنا يكره التلفزيون، ولا يتابع تلك البرامج، انطلت عليه، واقتنع بأن كورادو ما يزال يستخدم ألحانه العظيمة في برامجه، ويتباهى بذلك في حانة الساحة، فيجني لامبالاة الحاضرين، ليس إلا.

أما بيبينو؛ فقد أهداه الفيلا عملياً. وما يزال ديمتري منذ عشرين عاماً يراقب الأجرة الشهرية عن كثب تلك التي لم يدفعها أبداً. فيقول له آخر كل شهر بالوداعة ذاتها: «أيمكنك أن تصبر هذا الشهر، يا بيبينو؟»

فيتفاعل بيبينو بجدّيّة، محاولا أن يكبت ضحكته، ويجيبه دوماً بالإجابة نفسها:

«طبعاً، يا ديمتري، بوسعي أن أصبر، كل ما أخشاه أن يتحوّل الأمر إلى عادة»

وهذه العادة مستمرّة منذ عشرين عاماً، وستستمر حتّى يموت أحد منهما.

فلنعد إلى أيام شبابنا، ومنزل فونسيكا.

في تلك الآونة، كان ديمتري، بنشاط غريب، يخطّط لمشروع، أقنعني جداً: كتابة دليل سياحي لأكثر الفنادق أبّهة على وجه هذا الكوكب. والطريق الأسمى لبلوغ هذا الهدف، بالنسبة إليه، تُختصر بإليونورا فونسيكا. كان يفكّر أن تقول له ما هي تلك الفنادق الاستثنائية، وأين تقع، بما أنها امرأة الحياة والمغامرات، وبما أننا لم نسافر من نابولي يوماً، ولا حتّى عن طريق الخطأ. بل وكان يتطلّع إلى أن تموّله فونسيكا؛ ليذهب، ويتحقق بنفسه من تلك الفنادق الراقية. وسأكون معه بالطبع؛ لأنني يده اليمنى. أعجّل الإجراءات التافهة، بينما يكتب هو بغزارة بروست. كنا نتخيّل أننا شيطانين، نطوف العالم مدّة أربع سنوات؛ لندخل أجنحة، لا نحلم بها، وننام على سرائر من الكتّان الأبيض، ونشتمّ الأزاهير المنعشة، ونشرب شمبانيا، لم نسمع باسمها، وننكح النادلات

الطائشات والطيّعات، ثمّ نحتسي الكوكتيلات الغازية قبل عشاءٍ على أضواء القناديل، بصحبة نساء ليّنات، يعرفن معنى الحب والحياة. أجل، هكذا بالضبط. لم نكن نعرف شيئاً عن بخل فونسيكا الأسطوري ذائع الصيت في جنوب إيطاليا كله؛ لأننا كنا جاهلين في ما يخصّ الأساطير أيضاً.

كانت البارونة إليونورا من أولئك اللواتي إذا زرتَ منازلهنّ لا يقدّمن لك كأس ماء. وإن طلبتَ الماء، بعد عناء صعود ستة طوابق؛ لتصل إلى متحفها، ترتسم ابتسامة جميلة وحنونة على وجهها، وتتذرّع بأعذار خيالية، تضاهي خيال أدباء السينما الكبار.

ذات مرّة، قالت بكل نعومة: «يا عزيزي، بودّي لو جلبتُ لك الماء، لكنّ الصنبور منذ يومين يُخرج مياهاً بنية اللون، ولا أريد أن يعذّبني ضميري. قد تموت بسببي.»

كان الناس بالنسبة إليها على اسم واحد: عزيزي.

فأجيبها بسرعة: «وكيف تتدبّرين أمرك، يا سيدتي البارونة؟»

فتجيبني، على إثر هذه الهجمة المرتدة، دون أن تفقد وقارها التي ورثته عن جدها الثالث: «أنا؟ أنا لا أشرب.»

هذا ما كانت عليه البارونة. بل وأكثر من ذلك، لم تكن لتموّل مشروعنا، ولا بثمن تذكرة. لكنها علّمتنا أصول الحياة. لم تكن تقتصد في ما يخصّ العبارات الرفيعة والرنانة، بل تهدي منها بسخاء. كانت ترغمنا، أنا وديمتري، على الجلوس إلى أرائك حمراء مرصّعة بالذهب الثخين، وتقول: «إنني امرأة جدّيّة، وأحرص على استخدام عنوان فلسفي. استأجرته من تشيخوف. تعرفان تشيخوف، أليس كذلك؟»

لم نكن نعرفه، إنما كانت تروي علينا بعض عباراته الرائعة، فتبهرنا بتلك الكلمات الجميلة. وفي طريق العودة، كان ديمتري يولول من الفرح، يقفز على كتفيّ، ويقول لي:

«لقد فهمتُ، يا طوني، سأصبح كاتباً مثل تشيخوف. سأحصل على أطنان من النقود».

كان الأدب العظيم ينحطّ؛ ليصبح مشروعاً متناهي الصغر. لكن ديمتري يتنازل عن قراره كلّيّاً بعد مرور ساعتين. وكنتُ، مثل المغفل، أتأسّف لذلك، وأغضب:

«كيف هذا؟ ألا تريد أن تصبح مثل تشيخوف؟»

فيجيبني بشرود، لا أحد يعلم أين يصل: «فلنكن واقعيين، يا طوني، هل تراني أنا أؤلف الروايات؟! العنوان الفلسفي! أنا لا أعلم ما معنى هذا أصلاً.»

كانّ على حقّ بالطبع.

لم تكن البارونة إليونورا تقدّم لنا حتّى الخبز اليابس، ثمّ تغضب، إن لم نأت لها بالحلوى المحببة إلى قلبها، المارون جلاسيه. كانت تلتهم العلبة في أربعة وعشرين جزءاً من الثانية دون أن تترك لنا حبّة واحدة. كنا نسرق من أهلنا؛ كي نجمع المال، ونشتري تلك الحلوى باستمرار؛ كي تجيبنا دوماً الإجابة المملّة نفسها:

«كم أنتُما عزيزان على قلبي! ولستُما مثل أبنائي اللصوص الذين لا يتكرّمون عليّ، ولو بقبلة الليلة السعيدة، ويريدون أن يسلبوا ميراثي. أما أنتما؛ فَقد أظهرتما نية حسنة، وتبذلان جهداً في الاهتمام بهذه البارونة المسكينة العجوز، وتأتيانها دوماً بالمارون جلاسيه.»

ثمّ تستلقي على ديوان سميك مثل سرائر الرومان، ونحن دوماً على تلك الأرائك المزعجة، والكستناء محاصر بين أسنانها؛ لتدلو بأبلغ الكلام: «الضمير الغربي غامض».

كنا سنفهم بعد عدّة سنوات أنها تقول أموراً في غاية العجب؛ لأننا نعطيها وقتها بالكلام؛ كي نجد اللحظة المناسبة، ونعرض عليها مشروعنا، ونطلب منها النقود للسفر.

لكنها تكرّر دائماً: «لم تعد للطبقة النبيلة أيّ قيمة في هذه الأيام، وخصوصاً بعد أن أصبحت نابولي في أيدي البرجوازيين السوقييّن الجلفين. حتّى عائلتيكما تنتميان لتلك الطبقة السوقية والجلفة؛ لأنها ليست عائلات نبيلة.»

لم تكن تقول هذا بدافع الإهانة، بل كان كلامها كالحقيقة الساطعة، ليس فيها نقاش. ثمّ تردّ باشمئزاز على الهاتف. كنا نسمع، من الطرف الآخر، أحد أصدقائها يشرح رأيه باستطراد وتوتّر، وحين يأتي دورها، تجيب بجمل معهودة مثل: «يا عزيزي، أنت تعرف أنني كنتُ دائماً موالية لنفسي.»

هكذا كانت تقول كلما عرضوا عليها ترأّس منتدىً، أو مؤسسة خيرية، أو مسرح صغير، يدخله أولئك الذين لا يفعلون شيئاً. كانت تقبل أي شيء، ثمّ لا تقوم بشيء. لأنها كسولة مثل المكسيكيين. وتملّ بسرعة. كانت تعيش في صحراء من الضجر، ويبدو أنّ الشيء الوحيد الذي قد يمتّعها هو ارتكاب جريمة ما.

ومع هذا، لم تكن تتوانى عن رمينا في رمال الشعر المتحركة والخطابة الفصيحة التي كنا في تلك السنّ نعدّها أسخف من مجلات الخيال العلمي.

«يا عزيزي، بيني وبين العالم ستارٌ من سوء الفهم».

كانت تتركنا لساعات على تلك الأرائك؛ لأنها تنشغل في مكالمات طويلة مع صديقاتها من الطبقة النبيلة. ويقتصر الموضوع على مزيج من النميمة المهذّبة والجدال في الهرميات المعقّدة. كنا نملّ حتّى البكاء، وما إن نحاول النهوض للتجوّل في الصالة حتّى تطلق علينا سهام نظراتها. كانت تخشى أن نسرقها، ونحن نتجول في المنزل. فجميع الناس لصوص في رأيها، ما عداها طبعاً. الصدق يبدأ وينتهي عندها. كانت تطرد الخادمات بشكل منتظم، أو يهجرنها بملء إرادتهنّ احتجاجاً على رواتبهنّ المزرية.

كنا بالكاد نتنفّس خلال سماعنا لمكالماتها الطويلة التي تتكوّن من هذه

العناصر تقريبا: «إيزابيلا كانت حادّة الطبع معي في السهرة الماضية؛ لأنها تعتقد أن الكونتيسة بوسعها الحكم على البارونة. إنها عديمة التهذيب، ولن تُشفى من هذه العلّة. وأنت - يا جوفانيلا - عليك أن تعيدي ذلك الشال الذي أعرتك إياه في شهر نوفمبر منذ اثني عشر عاماً حين كنا نلعب الورق، وكنت تشعرين بالبرد. ألا تذكرين؟ كيف لا تذكرين؟ ذلك الشال الأخضر. أخضر صنوبريّ من باردونيكيا. أرجوك أن تعيديه في أسرع وقت. إنه مهمّ بالنسبة إليّ. ذكرى من عمتي، الأميرة.»

كانت امرأة كذوباً؛ إذ لم تؤسّس عمّاتها أيّ إمارة. لكنّها تتابع بإصرار: «سيرينيلا تبالغ مع زوجها. إنه مغفل، لا شكّ في هذا. لكنه يتقاضى مليون ونصف المليون شهرياً. هذه نقطة ضرورية، تضمن لها بحبوحةً، لا تستطيع سيرينيلا أن تحلم بها إلا إذا امتهنت الدعارة.»

كنا نستعيد مزاجنا بهذه الكلمات، ونرتب جلستنا. كلمة "دعارة" تهيّئ لنا حالة من الاهتياج المباشر. نختلس النظر إلى وجه البارونة بحثاً عن تعابير شنيعة، لم تكن تلفظها.

كنا نكتشف من شيخوختها حياتها الحقيقية: أيام شبابها.

كنا نقضي على الملل بالنظر إلى عالمها الجميل الذي لم نكن نعرفه ونرغب أن نعرفه بأيّ ثمن. وحين تعود إلينا من مكالمتها الهاتفية، لم يكن ديمتري يفوّت الفرصة، فيتوسل إلى السيدة النبيلة، كما قد يفعل الشاعر ليوباردي أمام عشيقته سيلفيا:

«حدّثينا عن الحب، أرجوك، أيتها البارونة».

وهي تستغرب قليلاً. تمتلئ عيناها بالدموع السوداء. تفكّر في زوجها الراحل. تتنهّد وتقول: «آه، من الحب! لا وجود إلا لنوع واحد من الحب. الحب العاري. وهو مصيبة، بحدّ ذاته».

كنا نرغب في معرفة أنواع أخرى من الحب، ولكننا نكتفي بذلك "العاري"، وكيف ينطقه فمها المهذّب، فنتلذّذ به فيما بعد خلال الليل تحت أغطية السرير. لم تكن البارونة جميلة، ناهيك أنها عجوز. لكنّها بكل الأحوال كانت المرأة الوحيدة التي نتردد إليها في تلك الحقبة الحاسمة والهرمونية من حياتنا.

كانت هي المرأة بحدّ ذاتها.

«عليك بالأفعال» يكرّر ميمو ريبيتو العظيم على مسامعي. ولم أكن أفهم ماذا يقصد.

أما ديمتري الذي تسحقه النشوة الشبقية؛ لم يكن يخجل، فيسألها محاولاً بكل غباء أن يتكامل مع لغتها الفصيحة: «أيتها البارونة، أنا وطوني لم نذق طعم الحبّ بعد، واعذريني على التعبير: لم نعش ليلة الحب الأولى بعد. كيف هي؟ حدثينا عنها، أرجوك.»

لم تكن تشعر بالإحراج. بل إنني متأكد من أنها تضحك في سرّها كالمجانين. ولكنها تبتعد عن مجرّات الكون الفاخر؛ لتواسينا: «العجلة في الحب - يا عزيزي - علامة واضحة أنّك ما تزال بعيداً كل البُعد عن الحب. أما النساء؛ لا يرغبن أن يأتي مستعجلاً؛ كي لا ينتهي باكراً؛ لأنهن لا يرغبن أن تنتهي أبداً.»

وتغمز بعينيها كأنها تتآمر علينا، لكننا لم نفهم أيّ شيء. بقينا أنا وديمتري نتأمّل تلك العبارة الرفيعة، ونحلّلها، ونركّب عليها الفرضيات حتّى الخامسة صباحاً دون أن نصل إلى أي نتيجة. النساء لا يرغبن أن يأتي الحبّ مستعجلاً؛ كي لا ينتهي باكراً، كلام يضيّق أنفاسك وتفكيرك. ما معنى هذا الكلام المنيوك؟ كان برهاناً على مستوانا الهابط في جهل أشياء، لا قيمة لها.

عموماً.

كانت تقرأ جريدة الصباح بصوت مرتفع أحياناً؛ كي تثقّفنا. ونحن نموت من الضجر، نحلّق قلباً وعقلاً خارج نافذتها، باتجاه ذلك البحر النظيف الذي كنا نراه من كل نوافذ صالاتها المكدّسة واحدة ضمن الأخرى دون ممرّات.

كانت البارونة تعتقد أنّ كثرة الممرّات في البيوت الحديثة إحدى العلامات الواضحة على انحطاط العالم، أسلوب مريعٌ في الهندسة، تشمئزّ منه بقدر ما تشعر بالقرف من الرجال الذين كفّوا عن وضع قبّعاتهم على رؤوسهم في الطريق. كانت لا تنام الليل، وهي تفكّر بهذه المظاهر المقرفة. والويل للجريدة إن خصّصت الصفحة الأولى لزعماء تلك الحقبة، تفقد رشدها، وتزأر: «هؤلاء النصّابون يحسبون أنهم سادة البشرية».

ثمّ تستغلّ ارتفاع صوتها؛ لتنادي مارشيلو، كبير الخدم عندها في التاسعة والسبعين من عمره، فيعبر صراخها الأوبرالي أكثر من ثماني عشرة غرفة : «يا مارشيلو، أريد السمك على العشاء.»

وما إن نسمع هذا الصوت، حتّى نستمني في سراويلنا أنا وديمتري دون الحاجة إلى تذكير بعضنا بذلك. نتشبّث بصوتها الأنثويّ؛ كي نرى الجنس الحيّ من جهة ما. كنا نفقد صوابنا. أعرف. فالعذريّة التي كنا نتّصف بها آنذاك تحرق أعصابنا.

يظهر مارشيلو بمعجزة في الصالة، ويدلي بالاعتراض نفسه كل يوم: «يا سيدتي البارونة، الجو بارد في هذا المنزل. علينا أن نشتري الموقدة، وإلا قدّمتُ استقالتي.»

فلا يرفّ للبارونة رمش، وتدلي بالإجابة نفسها بهدوء محكَم: «الفقير ينام على سرير من خناجر. الراحة دليلٌ على التفاهة.»

ثمّ تقلب الصفحة، فتصطاد صورة لأحد أفراد الأسرة الملكية البائدة. وحينها تزدهر الابتسامة على وجهها، كانت أسنانها جميلة جداً نظراً إلى

عمرها. تعلّق: «خذ. هذا رجلٌ من آل سافويا. إنها عائلة ثقيلة الظل، ولهذا السبب تحديداً، أراها خفيفة الظل.»

ثمّ يتكرر المشهد ذاته. تغلق الصحيفة على حين غرّة. ترفع نظرها نحو السقف. تلوح على وجهها تقاسيمٌ غريبة مثل بت دافيس، وتهمس بالسؤال نفسه دائماً: «هل تسمعان صرير الدرّاجات؟»

فننزلق بسرعة البرق من الإثارة الجنسية إلى الخوف. نطأطئ رأسينا علامة على النفي. لكنها لا تستكين: «الدرّاجات. الأشباح تركب الدرّاجات على السرير. كلّ يوم في الساعة نفسها. إنني خائفة. أنا امرأة وحيدة. كيف يُعقل أنكما لا تسمعانها؟».

وحينها، لا أدري إن كان من شدّة التأثير أم أنها الحقيقة، يتهيّأ لنا صوت عجلات وسلاسل طويلة وغامضة. كنا نسمع الدرّاجات فوق رؤوسنا.

فتهمس، بنظرة حادّة كمزيجٍ من الذعر والمتعة؛ لأن مسألة الأشباح تنتشلها من السأم: «فلنصعد، ونتأكد».

نتبعها أنا وديمتري بمزيدٍ من الهلع. كانت تسبقنا على سلّم ضيّق ورطب ومظلم، يثير فينا الخوف أكثر من الأشباح، إن كانت موجودة حقاً. وكنا نتصبّب عرقاً، ونوشك على التغوّط، لكننا نواسي أنفسنا بالنظر إلى مؤخّرتها التي تسمح لنا بالشرود عن التفكير في تلك العفاريت.

وحين نصل إلى السطح، نرى الشمس البهية تنشر الوئام. لا درّاجات. لا أشباح. سوى بعض الثياب البيضاء الناشفة على حبل الغسيل، والبحر الواسع في الأفق. ولا نكاد نلتقط أنفاسنا حتّى تسحرنا بقولها:

«إنني على حقّ. ها هي الأشبا ح».

ديمتري يغضب قليلاً، ويتجرأ: «كيف، أيتها البارونة؟ ألا ترين أنه لا يوجد أحد هنا؟».

«طبعاً. أيّ أشباح هذه التي بوسعك أن تراها؟».

فأقول معترضاً بعقلانية: «حسناً، الأشباح لا تراها العين، ولكن الدرّاجات على الأقل».

تغيّر الموضوع. تتلمّس ذراعيها، وتقول: «الجو بارد هنا. فلنعد إلى الأسفل، إنني أحتاج إلى فنجان من الشاي. وقد أحدّثكما عن فندق في لندن، قد يكون مفيداً للدليل السياحي.»

تصعقنا الكهرباء مجدداً ظنّاً منّا أن الوقت حان؛ لنطلب منها بعض المال.

كم كانت حياتنا مختلفة عمّا آلت إليه بعدها بقليل. كم باءت سذاجتنا بالفشل. كأنني شخصٌ آخر عمّا كنته في منزل البارونة.

حتّى جاء يومٌ، فاجئتنا فيه تلك المرأة. ندخل بيتها على مضض، فتقول بغتة:

«هلا رافقتماني غداً في نزهة إلى البحر؟».

أنا وديمتري نجيب بسرعة الفهد:

«إلى كابري؟ بكلّ سرور.»

تنظر إلينا كأنها ترى جرذين، يثيران اشمئزازها. «ما هذه السوقية؟ كابري! لا تصلح إلا لأبنائي الأنذال. أرض بذيئة وفاجرة وسوقية إلى حدّ كبير. بل سآخذكما لاكتشاف ما لا تعرفان»، وراحت تزأر عند المدخل مثل الساحرة التي ينجح سحرها: «فينتوتيني».

تبادلنا أنا وديمتري النظر. أقسم أنها كانت المرّة الأولى التي أسمع باسم ذلك المكان. قد يكون في إسبانيا بالنسبة إلينا.

في المساء، رحنا نرصد الخريطة؛ كي نحدد موقع ذلك المكان العجيب

على شواطئ لاتسيو، بينما أخواتي وأخوات ديمتري يجمعن لنا المال؛ كي نستمتع بالرحلة، بما أنّ البارونة لم تكن لتدفع لنا ثمن تذكرة القارب حتّى لو هددنا بإغراقه.

اللهم؛ اجعلها نزهة. كنا عمليّاً نتحدّى بحراً هائجاً، كأننا في عرض المحيط. الأمواج تتقاذف القارب على إيقاع سورياليّ. واليابسة تبدو كالحلم، ثمّ تختفي خلف جدران المياه الجاحدة. والرياح أشبه بضربات بندقية شريرة.

لم يرنا الله. فلتنا من تحت أنظاره ذلك اليوم.

لم يكن غيرنا على متن القارب، نحن الثلاثة الحقراء الوحيدين الذين لا يعرفون أن ذلك اليوم لم يكن مناسباً لركوب البحر.

نسيتُ إليونورا في لحظة واحدة كل شجرة عائلتها النبيلة التي تنحدر منها منذ أربعة قرون. راحت تتقيأ، وهي تصدر أصواتاً، يستغربها البشر والأطباء والدارسون في هذا المجال، بل وحتّى وحوش الغابة. نتناوب أنا وديمتري على الإمساك بجبينها. وبذلنا جهداً؛ كي لا تسقط البارونة من سياج القارب، فتلتهما تلك الأمواج العاتية.

أهدت البحر ما تناولته من السلطة ووجبة السمك في اليوم السابق. ظلت تتقيأ لساعتين. فأنهكتنا كأننا نحمل أثاث المنزل.

ثمّ هدأ البحر فجأة على بُعد أقل من ميل عن فينتوتيني، وأصبح مسالماً وراكداً كالبحيرة. وكانت فينتوتيني تبدو كمعبد، تمّ تشييده للتوّ. كأنّها جزيرة بكرٌ حتّى شعرنا أننا طلائع المستكشفين.

نزلنا إلى اليابسة. لا شيء. لا أحد. سوى أكواخ الصيادين. انبثقت الشمس الدافئة من أكوام السحاب. تسلّقنا إلى ساحة جميلة. فيها كنيسة بسيطة وأساسية. أعجبتنا. ليست مثل كابري، لكنها أعجبتنا. غمرت السعادة قلوبنا أنا وديمتري؛ لأنها كانت أول مغامرة نخوضها. ثمّ ظهر ثلاثة فلاحين،

لم يعيروا اهتماماً للغرباء، كانوا يعملون في أحد الحقول المجاورة. ثمّة حانة، لكنها مغلقة. ثمّة ما يشبه المطعم الشعبي، لكنه مغلق. الجزيرة تبدو في غيبوبة. وعند منتصف النهار، استعادت البارونة عافيتها. وكانت جائعة، لكنها لا تستطيع أن تتناول شيئاً. وبينما كنا نتجوّل عن غير رشد، أخرجتُ أنا وديمتري شطيرتين من اللحم المقدّد، حضّرتهما أخواتنا الحنونات في اليوم الماضي. إليونورا تخطف أنظارها الوقحة إلى طعامنا. أنا أفكّر بنقاء ودقّة: وحقّ الله، سأنتقم اليوم من كؤوس الماء التي كانت الملعونة ترفض إغاثتي بها.

لكنّ ديمتري يكدّر عليّ الصفاء. يخاطب إليونورا بمودّة: «هل نتقاسم الشطيرة، يا سيدتي؟» ويقسم شطيرته، ويمدّها إليها. فتشكره بابتسامتها التي تظهر أسنانها الجميلة. فأفعل مثله؛ كي لا أبدو شريراً. بالنتيجة، تناولت تلك البارونة الحقيرة شطيرة كاملة، نصفٌ مني، ونصفٌ من ديمتري.

نصعد إلى الأعلى، قبالة جزيرة سانتو ستيفانو الصغيرة التي تستضيف سجناً، يقبع على أحجار بركانية مشؤومة. هنالك صمت بليغ. البحر شديد السكون. إن ركّزت الإصغاء، بإمكانك سماع حياة السجناء اليومية. همساتهم وصرير ملاعقهم ولعبهم بالكرة. كومة من الأصوات المطمئنة التي تخبرك بأنّ هنالك حياة ما، بينما تبدو فينتوتيني ميّتة، يعمل الفلاحون في أريافها. غامضة مثل أتباع الماسونية.

أنا وديمتري والبارونة السيّاح الوحيدون. نتابع سيرنا المرهق، وننزل درباً ممهّداً بالحصى والغبار. نخاطر بالوقوع، ونتدحرج مثل براميل، إلى أن نصل الشاطئ. فنجد أنفسنا في مشهد بديع. البحر ورائحة الحرية. فيزداد شرودنا الواسع أصلاً. نستلقي على الرمل. البارونة تقرأ الجريدة. أنا وديمتري لا نتوانى عن نزع ثيابنا، والركض كالمجانين، ثمّ الغطس بعشوائية. المياه باردة، وصافية مثل مياه الصنبور في منزل البارونة، تلك التي لم يحالفنا الحظّ في تذوّقها

أبداً. الأسماك تلامسنا، فنصرخ، ونقفز كالمغلين. أحرار. أحرار. أحرار من شيء، لا نعرفه بالضبط. تنظر إلينا البارونة، وتبتسم، فنردّ الابتسامة، ونحييها بأسلوبٍ مسرحي، كأننا في وداع مصطنع.

وفجأة يظهر زورق أبيض بمحرك آلي. يقترب من الساحل. يقوده رجل يناهز الثلاثين عاماً. يطفئ المحرك برفق ويقفز بطريقة حيوية عن الزورق. يربط الحبل بصخرة كبير. يوكزني ديمتري، فلا أفهم ماذا يريد. ألتفت. فأنظر، ولا أصدّق. الرجل الثلاثينيّ عارٍ تماماً. لا يدوم انبهاري كشاب في السابعة عشر من عمره، فأخضع لانبهار أشد عنفاً؛ إذ تخرج من الزورق فتاة، لم نرها قبل لحظة. وهي عارية تماماً، كما خلقها الله.

إنه يوم القيامة.

تملّكني الإحساس، أنا وديمتري، بأننا قاب قوسين أو أدنى من الحداثة. ما أجمل الحداثة حين تأتي دفعةً واحدة.

لم نكن نرى أجساد النساء العاريات إلا على صفحات المجلات، والآن نرى تلك الأنثى على الهواء مباشرة، كأنّها من دمى المخلات. كاملة الأوصاف. إيحاءٌ من جنّة النعيم. كنا في فينتوتيني أواسط الخمسينات، لكننا شعرنا بوجودنا في ماليبو أو سان تروبيز، أماكن يستحيل بلوغها حتّى لو توفر المال والنية الحسنة. تسمّرنا في مكانينا. لا نحيد أبصارنا. كأننا ميّتان بسروال السباحة المبلل. ديمتري يتبول.

لم ينتبه العاريان إلى وجودنا أصلاً. استلقيا على الشاطئ برفقٍ؛ ليخضعا لحمّام شمسي تحت ثلاثمائة وستين درجة مئوية. كانت الرؤية مبهرة وطوباوية حتّى إننا لم نشعر بأي رغبة جنسية تجاه تلك الفتاة العارية، أو في تلك اللحظة على الأقل. ننظر بحياء إلى البارونة، فنُصعق بأنها لم تشعر بالانزعاج أو الحرج أو الصدمة. بل كانت تنظر إليهما ببساطة، كأنها قد رأت هذا المشهد مراراً، ثمّ تعاود قراءة الجريدة.

أمّا نحن؛ أصابنا الخرس، ومشينا على غير هدى، مثل أحصنة البحر. أنظارنا إلى الأسفل. نتأمل بتركيز مثل أفلاطون، ولكنْ؛ دون إعمال العقل في أي فكرة، سوى كلمات غير مترابطة، تجول في الذهن. كنا نشعر بالغربة. والحزن. فالحياة تتغيّر وتتطوّر أمام أعيننا، ونحن ما نزال عذارى. اللعنة! لقد تخلّفنا عن الموكب. كنا نتخيل كيف ينتهي نهار هذين العاريين، بعد أن تغيّر الحرارة لون جسديهما، فيستلقيان على سريرٍ في غرفة مزوّدة بشرفة. ثمّ يتلو هذا عرض جنسي ضبابي، لا يخصّنا. لم نتألم كهذا قبل ذلك اليوم في فينتوتيني.

نمعن النظر في جسديهما الداكنين بعد أن غفيا من شدّة الخمول. ونتمشى على طول الشاطئ؛ كي نقترب أكثر، فنرى زغب تلك الفتاة الرملية. كان زغباً حقيقياً، لا يكفّ عن إبهارنا. وهكذا حتّى بات جسداهما محمرّين مثل رداء الشيطان.

عدنا إلى نابولي مساء اليوم نفسه.

كنا نحن الثلاثة جالسين جنباً إلى جنب، على متن القارب الذي يشقّ طريقه فوق ذلك البحر الراكد. أصابنا الخرس والصدمة، وبتنا نحدّق في العدم أمامنا. كنا نشعر بأنّ الأمور على وشك التغيّر للمرّة الأولى. لا شيء سيبقى على ما هو عليه. كأنّ البراءة تودّعنا، بينما تلتصق بنا الحياة الحقيقية كالتصاق ثيابنا على أجسادنا المحترقة. كم تمنّيناها، هذه الحياة الحقيقية، والآن وقد وصلت لم نكن نعلم ماذا نفعل بها.

كنا نشعر بالوحدة. والمسؤولية. والرشد.

يضحكني أن أذكر ذلك اليوم الآن؛ إذ يبدو لي بوضوح أنّ شيئاً عظيماً لم يحدث.

حاولت أن أحرك الأجواء الراكدة التي كنا نغرق فيها ببطء، فذهبتُ إلى

السياج. نظرتُ إلى الأسفل. البحر يثور في مشهدٍ صادم. رأيت جحافلَ من قناديل البحر اللامعة، تتعلق ببعضها كالغرقى في حالة من الفزع. لم أناد على البارونة أو ديمتري. أردتُ أن أبقي جمال هذا المشهد لي وحدي. كي أتذكّر ذلك اليوم الساحر إلى الأبد. لكنه لم ينته بعد. فاسمعوا ما حدث.

ها قد وصلتُ أخيراً إلى بيتي، واستلقيتُ على سريري بعد الرحلة إلى فينتوتيني. باغتتني الحرارة في وقتٍ متأخر من المساء. شعرتُ أنّ حرارتي بلغة تسعة وثلاثين درجة، فخشيتُ على عصفوري المنقبض من ذلك الحريق المزدوج، حرارة جسمي وتلك الفتاة العارية المطبوعة في رأسي مثل لوحة على الجدار. دخلت أمي إلى الغرفة، وقالت:

«صديقك الأحمق ديمتري يريدك على الهاتف».

أجرّ نفسي على مضض في الممر. أنا متأكد من أنه استعاد حواسه، ويريد أن يعلّق على المشهد العظيم، بينما كنتُ أفضّل أن يكون لي وحدي.

أمسك السماعة، فأسمعه يقول:

«علينا الذهاب إلى البارونة الآن».

«ولماذا؟».

«دخل ببغاء إلى بيتها، يرفرف بجنون، وستموت من الفزع».

أتأفّف مستاء. ويقول لي قبل أن يغلق: «فلنلتق في المتحف بعد نصف ساعة».

أركل المكنسة. لقد قطع عليّ الفيلم في أكثر مشاهده إثارة. المشهد الأساسي كان الاستمناء الذي لابدّ منه.

أصل إلى حي سيرينيانو في منتصف الليل. أطرق باب البارونة. يفتح مارتشيلو كبير الخدم، وهو يحمل شمعداناً، فيه ثلاث شموع هزيلة. يبدو كأنه دراكولا. أقول له:

«ماذا؟ هل انقطعت الكهرباء؟».

«لا، ولكننا نقتصد.»

لم آت إلى بيت البارونة في المساء قبلئذٍ. كان المشهد مختلفاً كلّيّاً. ثمّة مناظر أخرى مبنية على الظلمات. فأجزع، وأتشنّج. أفكّر في درّاجات الأشباح. أتلعثم:

«هل وصل ديمتري؟»

«لقد اتصل، وقال إنه لن يأتي؛ لأنه متعب. وقال أن تفكّر أنت في مسألة الببغاء.»

أفكّر في سلاحٍ يساعدني على قتل ديمتري في الغد. أعود إلى الواقع، وأقول:

«وأين هذا الببغاء؟».

«يبدو أنه في المكتبة».

«فلنذهب معاً».

«أنا خائف».

«وهل تظن أنني لستُ خائفاً أنا أيضاً، يا مارتشيلو؟ أم كنتَ تحسبني أخصائياً في الببغاوات التي تنتهك حرمة المنازل؟».

«حسناً، ولكنْ؛ تقدّمْ أنت».

«ولماذا؟»

«لأنك ما تزال شاباً».

لا أفهم شيئاً. أتقدم أنا والعجوز مارتشيلو وسط حالة من الخوف الخزفيّ.

نعبر غرفاً، لا حصر لها تحت نور ذلك الشمعدان الواهن، حتّى تنتهي فتيلة إحدى الشموع الثلاث. تخفّ الإضاءة، فينبري الخوف من كل شيء، حتّى التحف الفضية على الطاولة تثير الخوف.

أحاول أن أثقب ذلك الصمت المروّع: «أين هي البارونة؟».

«أقفلت على نفسها في غرفة النوم. إنها خائفة».

أحاول أن أشدّ من عزيمتنا: «هل تركتُم إحدى النوافذ مفتوحة؟».

«نحن لا نفتح النوافذ هنا منذ سنتين».

«كيف دخل هذا الببغاء المنيوك، إذنْ؟».

«إنه لغز» قال «كما الكثير من الأشياء في هذا المنزل».

«أنت لا تساعدني هكذا، يا مارتشيلو. إن أردتَ أن تستمر على هذا النهج في الإجابة، فإنني سأنصرف» أقول بخوفٍ جليّ وواضح.

ثمّ أرتكب خطأ فادحاً، لا يُغتفر. أسأله:

«هل سمعتُم صوت الدرّاجات اليوم على السطح؟».

فيجيبني بكل بساطة وسذاجة: «طبعاً سمعناها. نسمعها كل يوم».

أكاد أموت من الذعر. لقد أدخلت نفسي في نقاش، لا مخرج منه. أتوسل إليه:

«حسناً، ولكنّكم تسمعونها خلال النهار، وليس في الليل».

مارتشيلو لا يفوّت أيّ فرصة، يتابع بدقّة واندفاع: «لا، لا، أحياناً نسمعها في الليل أيضاً».

جفّ لساني. أقول بنبرة المصاب بنقص التروية: «ولكنْ؛ ليس هذه الليلة، أليس كذلك؟».

«يبدو لي أننا سمعناها هذه الليلة أيضاً».

ثمّ أقول بتصميم: «مارتشيلو، إنني أتغوّط من الخوف. سأشعل الضوء».

«أجل، أجل. اذهب، وأشعل الضوء. هل أتيتَ باللمبة؟».

«ماذا يعني هذا؟».

«هذا يعني أن البارونة قد أزالت كل الأضواء من المنزل؛ لأن الخادمات كانوا يشعلونها خلسة».

أقول في سرّي: هذه الليلة سأخنق البارونة، وغداً ديمتري. أفكّر جدّيّاً، ولستُ أمزح.

وفي أثناء ذلك، انقشعت حرارة التشمّس عني.

نصل إلى المكتبة الكئيبة أخيراً. وهي عبارة عن رفوف خشبية غامقة اللون، تحمل كُتُباً غامقة اللون، بعبارة أخرى، نحن في قبر بسبعين متراً مربعاً. بلاط الأرض كرقعة الشطرنج أبيض وأسود، لكن القطع البيضاء تبدو سوداء تحت هذه الإنارة الطفيفة.

ومثل زورقين بلا بوصلة في عرض البحر، كذلك أنا ومارتشيلو وسط الغرفة. تلمس آذاننا همسة خفيفة؛ لتجعلنا نستطعم ما يسبق الذبحة القلبية بلحظات.

لقد مرّ الببغاء بقربنا مسرعاً. ثمّ سمعنا صوتاً خفيضاً، كأنه ارتطم بزجاج النافذة.

وحلّ سكونٌ مريعٌ.

طويلٌ.

تعيس.

أتفاءل: «ربّما مات! ألم تسمع الضربة؟».

مارتشيلو يتشاءم: «لا أراهن على ذلك».

وهكذا أكتشف أنّ المتشائمين على حقّ دائماً في هذه الحياة. أكتشف أنه لم يمت فحسب، بل إنه ليس ببغاء أساساً.

إنه مخلوقٌ، لا أتمنى أن يصادفه ديمتري أو موسوليني، لو كان ما يزال حياً.

إنه خفّاش. مجنونٌ. برّي.

وكان يفقد السيطرة؛ لأنه يشعر بالحواجز والجدران في كل مكان، ويختلّ دماغه في كلّ لحظة تمرّ. وها هو يرفرف بعبثّية؛ ليجعلنا نموت ببطء من الخوف. أنا ومارتشيلو ننبطح أرضاً من شدة الهول، كأننا في مسابقة مَن يتغوّط قبل الآخر. وحينها يرتكب مارتشيلو خطأ، يجعلني أشعر بالبكاء. يقع الشمعدان من يده، فتنطفئ الشمعتان.

أهلاً بالظلام الدامس. بينما يحوم ذلك الكائن الملعون مثل إبليس. ما العمل الآن؟ ليس بوسع أحد أن ينقذنا. حتّى أشباح الدرّاجات ستلوذ بالفرار.

«ماذا نفعل؟» أولول. فيجيبني مارتشيلو بما سيصبح فيما بعد من أشد النكات طرفة.

يقول جدّيّاً: «ننتظر أن يموت من الشيخوخة».

لا أضحك. لأنّ ذلك الخفاش يفضّل مشاريعَ أخرى على أن يموت من الشيخوخة. يحاول أن يطير مغمض العينين؛ كي يحطّ مباشرة في شعري. داخل شعري. ويحاول الخروج عبثاً. فأرى الغيبوبة قادمة؛ لأنه يضايقني، كأنه عنكبوت ضخم. أبكي حقاً. تظهر حياتي القصيرة على مشاهد سريعة أمام عينيّ؛ لتنتهي بصورة تلك الفتاة العارية فأموت، أو يغمى عليّ.

وحينها تتبدّل الموازين. فالمرء لا يصبح كبير الخدم عن طريق الصدفة،

بل لأنه قادرٌ على حلّ أكبر عدد من المشاكل الصغيرة والكبيرة. حين أستعيد حواسي، أرى مارتشيلو يجلس على الطريقة الهندية. كان قد أنار الشمعدان مرّة أخرى، ويبكي. يبكي كطفل، وينظر بين يديه. أنظر، فأرى الخفّاش بين يديه. ميتاً. يقول لي متألماً:

«ألا يثير مشاعرك، يا طوني؟».

«جداً» تغمرني السعادة والحياة من جديد.

ننهض، نتجه إلى سلة القاذورات في المطبخ؛ كي نرمي جثة الخفاش، فإذا بصوت جهير يعصف من العالم الآخر، ويقول: «يا عزيزي».

مارتشيلو ينظر إليّ، ويقول عن سابق تجربة: «البارونة تريد أن تشكرك. اذهب إليها. خذ الشمعدان، فأنا سأخلد إلى النوم».

ويختفي في هنيهة واحدة. أنا وحيد في سكون هذا المنزل وظلامه؛ ليبدو متحفاً للصراصير الفرعونية. أود أن أموت، أو بكل بساطة أن أعود إلى البيت. ولكنني كنتُ شاباً صغيراً، والتربية ما يزال مفعولها قوياً. أما سوء التربية؛ سيلقي ظلاله عليّ في وقت لاحق. عليّ الوصول إلى البارونة في غرفة نومها. وهي آخر غرفة في المنزل طبعاً. أجتاز المنزل الفاخر في رحلة طويلة. حتّى إنّ أبناءها كانوا يتجوّلون بالدرّاجة عندما كانوا يعيشون معها.

استنفد الخوف قواي، إلى أن وصلت.

«ادخل» تقول.

أتشجع قليلاً، وأدخل. أسند الشمعدان على الدرج؛ ليكون منبع الضوء الوحيد.

«اجلس على السرير» تقول لي بهدوء وهيبة في وسط السرادق. كان نصف جسدها يتّشح بالغطاء، والنصف الآخر بثوب النوم الثقيل المزركش بأشياء، لا أفهمها.

أجلس على حافة السرير، كأنني عاملٌ في الخدمات الجنائزية.

«هل نلتُما منه؟» تسألني.

«في النهاية، أجل».

«النهاية؟ ما هذه إلا البداية» تقول.

لا أفهم. أفتح فمي مطالباً بتوضيحات، لكنها تستبقني: «هل أتيتَ لي بالمارون جلاسيه؟».

انظر بما تفكّر هذه الممسوسة. نحن على وشك الموت في أثناء تلك السفاري، وهي تنتظر الكستناء المحلّى بالسكر، كأن شيئاً لم يكن. لكنني أقاوم بدبلوماسية، وأقول:

«كانت المحلات مغلقة».

لا تصدّقني، فالنهم يتلف عقلها الذي لا يميّز بين الأولويات.

«الجامبرينوس يبقى مشرعاً حتّى وقت متأخر. الجامبرينوس يبيع المارون جلاسيه».

أحاول أن أكظم غيظي: «لم يكن لديّ وقت. كانت مشكلة الببغاء حاضرة».

«حقاً» تقول. ثمّ تنعطف نحو غير المتوقّع. «آتني بالمشط من الدُرج».

أفعل. أقترب منها. أمدّ لها المشط، فلا تأخذه مني. ترتب جلستها وسط السرير. ترفع يديها، وتنثر شعرها الذي لطالما رأيتُه معقوداً. تكشف عن شعر ناعم وطويل، يصل حتّى مؤخّرتها. يساورني العجب ممّا أرى. العجب حين تفرض الحميمية نفسها بغتة بين الأشخاص الذين تجمع بينهم علاقة رسمية. تبتسم بأسنانها الجميلة، وتأمرني:

«مشّط لي شعري».

يرتجف فخذاي، ولكنْ؛ ليس من الخوف.

أدور حولها. أجلس خلفها. تنحني إلى الأمام؛ كي تمدّ شعرها. يتراءى لي ثدياها الكبيران كيف يستريحان على بطنها. فتختلط الأمور ببعضها: صدر وبطن. تكوير كبير!

يأخذ قضيبي شكل المطرقة، ومضمونها في لحظة واحدة.

أمشّط شعرها المنثور بارتباك، وفخذي يرتجّ على ومضات عند أسفل ظهرها. كأنّه تمرين رياضي.

البارونة لا تقول شيئاً. لا تفعل شيئاً. لا تبوح بشيء. لا تنوّه إلى شيء.

دماغي يركض بسرعة ثلاثة آلاف كيلومتراً في الساعة. أشكّل كل الأفكار ونقائضها. أتوهّم أشياء جنسية، ثمّ أخيب آمالي تلقائياً. أقول لنفسي: أنت مجنون، متوهّم، ضحية الخيال، تصوّر لو أن البارونة ... النبيلة ... بعمرها الذي يناهز الستين عاماً، أمّ وجَدّةٌ ومثقّفة، صيتها الذائع وصل حتّى فيينا، أين تذهب، يا طوني باغودا؟

أعيد اتصالي بالواقع، وأقنع نفسي أنني هناك؛ لأن البارونة ترغب أن يمشّط أحد شعرها نيابة عنها. وبالفعل إنها تؤكّد قناعاتي حين تقول بحيادية: «حسناً، يا عزيزي، هذا يكفي».

وها أنا أنهض على قدميّ. أضع المشط على الدُّرج، وأفكّر بصعوبة اجتياز ذلك الممرّ الموحش والغارق في الظلام. أواسي نفسي بأنني سأجتازه راكضاً، فإذا بها تقطع سلسلة أفكاري: «والآن، يا طوني، خذ المشط مجدداً، ومشّط شعر الشقّ».

أنظر إليها بنفس الطريقة التي ينظر بها التقنيون إلى محركات السيارات

حين تتعطّل؛ أي بغرابة. كلغز معقّد وبسيط في آن. ماذا يعني شقّ؟ هل في رأسها شقّ، لم أنتبه إليه؟

«ماذا تعنين بالشق، أيتها البارونة؟».

تنظر إليّ بابتسامة لعوب. تستلقي ثانية على ظهرها. ترفع عنها الثوب شيئاً فشيئاً. تفرج فخذيها الثخينين. لم تكن ترتدي السروال. أركّز النظر في بقعة ضخمة وسوداء مثل مكتبتها. لديها بالوعة مظلمة بين ساقيها. تفوح من ذلك الحرش روائح الجزر البعيدة. ثمّ تشير إلى فرجها العظيم، بإصبعها المكبّل بجوهرة هديّةً من زوجها يوم الزفاف، وتستغني عن المقدّمات والاستعارات؛ لتقول: «هذا هو الشقّ».

الله موجود، إذنْ، وها هو يحفظني بنظرته الرحيمة.

المطرقة تنبض على وزن ٤/٤ مثل القلب.

وفجأة أكتشف أنّ لي دماً بارداً، سيرافقني العمر كلّه في ما يخصّ الجنس؛ إذ أتجه بلا مبالاة نحو الدُّرج، أمسك بالمشط دون أخذ أحاسيسي الجيّاشة بالحسبان. أقترب ببطء إلى ما بين فخذيها، وأبدأ بفصل الزغب الطويل، كالألسنة السوداء، يميناً شمالاً بكل عناية.

أسمعها تتأوّه من المتعة، تصدر مقاطع صوتية شبيهة بتلك التي أصدرتها على القارب، وهي تتقيّأ. كان هذا مجرّد تفسير؛ لأنني لم أكن أعرف كيف تكون المتعة الأنثوية.

أضحك في قلبي، وأفكّر في ديمتري الأحمق؛ لأنه ضيّع هذا المشهد الذي انتظرناه أعواماً.

وأظل أمشّط، بانتظار أوامر أخرى، حتّى أشعر بالجوهرة تطرق على رأسي. ثمّ تمسك رأسي بيديها الضخمتين، وتدفع به إلى كسّها المظلم. ما تزال نكهة البحر حاضرة عليه. يبتلّ لساني، فتتلوّى كسفينة سياحية تنعطف عند المرفأ. تولول بكلام غير مترابط، لكنني أسمع اسماً ما. أجل. إنه اسم حقاً.

«فيتوريو حبيبي» تقول.

إنه اسم زوجها.

«فيتوريو، يا عزيزي، ها قد عدتَ أخيراً» تكرّر.

ثمّ تمسك بذراعي، وتدفعني فوقها، فألتقط أنفاسي مجدداً. الشمعة ترسل ضوءها؛ لينعكس على جوهرتها، فتزداد بريقاً. إنني على بُعد سنتمتر واحد من وجهها.

أصطدم بالواقع وشروره؛ لأنني أدرك أنها امرأة قبيحة. لكنها تقرأ أفكاري، فتتضامن معي، وتطيل انتصابي:

«لا تفكّرْ أنك معي. تخيّلْ أنني تلك الفتاة التي رأيناها اليوم على الشاطئ».

بعد مرور أعوام، فكّرتُ في هذه الجملة، وغلبتني مشاعري. لكنني، حينذاك، فهمتُ شيئاً على الفور: النساء وحدهنّ مَن يعرف الجنس. أما الرجال؛ يجتهدون، ويظلّون مغفّلين ومتردّدين حتّى عندما ينكحون سبع آلاف امرأة. في مسائل الجنس، يبقى الرجال مبتدئين دائماً.

ولكنني فهمتُ - أيضاً - كم على الإنسان أن يحتمل من مهانة؛ كي يحصل على فتات المتعة والنشوة. كلمات البارونة جريمة نكراء، بحقّ الكرامة. فهمتُ أموراً كثيرة في لحظة واحدة فقط.

ثمّ أنزلق في كسّها. تمدّني بالإيقاع، جوهرتها ترتطم على جسدي. إنها تعطيني الدرس رَقْم اثنين: كيف نمارس الجنس؟ حرّكتُ نفسي ستّ ثواني، سمعتُ خلالها صوت الدرّاجة التي تركبها الأشباح على السطح، وها قد بلغت الذروة للمرّة الأولى. ألتصق بها، أشعر بالنشوة والسعادة. أستيقظ من كابوس العذارة، خلال ستّ ثوانٍ فقط.

هذا كل شيء. أدخلتني البارونة إليونورا فونسيكا في سنّ الرشد.

ألفظ روحي بأنفاس منتظمة، فتبعدني عنها برفق؛ لأستلقي بجانبها. الآن تريد أن تعلّمني كيف أتصرّف ما بعد الجنس. وهذا هو الدرس الثالث، وربّما كان أكثر غرابة؛ لأنه غير متوقّع. أراها تتمدّد في الظلام نحو الدُّرج، وتتقلّص ثانية، وبيديها صحن. فأتأثر جداً؛ لأنني أفكّر أنها المرّة الأولى التي تعرض عليّ شيئاً غذائياً. ومَن يدري، برتقالة، قهوة، قطعة حلوى. وسرعان ما أشعر بالإحباط؛ لأن الصحن فارغ. كلا. ليس فارغاً. ثمّة مادّة بيضاء. آه، فهمتُ. بعد الجنس، يحتاج الجسد المرهق إلى السكّريات؛ كي يستعيد قواه. تُخرج، من حيث لا أعرف، قصبة ذهبية صغيرة، وتدخلها في أنفها. ثمّ تنحني على الصحن، وتستنشق جزءاً من تلك المادة البيضاء. تمرّر لي القصبة، فأتلهّف لتقليدها. كنتُ ساذجاً حتّى صدّقتُ أنني أتعرّف على نوع جديد من السّكّر، يتمّ اِستنشاقه أيضاً.

أنحني على ذلك الغبار الأبيض، فتقول لي: «يا عزيزي، لا تخطئْ كما يفعل جميع الناس في المرّة الأولى. إيّاك بالنفخ، عليك أن تستنشق».

لا أخطئ. فأنا بارعٌ في شؤون الكوكايين، كما تعلمون.

تستريح. تغمض عينيها. أفعل مثلها. ثمّ تخبرني:

«إن رويتَ ما حدث بيننا، فإنني سآمر الأشباح أن تقتلك».

بلغتُ سنّ الرشد بكل ما تعنيه الكلمة؛ لأنها لم تعلّمني الجنس فقط، إنما السرّ أيضاً.

وفي ذلك المساء نفسه، ينتفخ صدري بالمجد، فأُهرع لاهثاً إلى بيت ميمو ريبيتو. الساعة الثانية ليلاً. أطرق الباب. يفتح مرتدياً بزة رسمية. أسمع دردشات أصدقائه من الصالون. لا يعرض عليّ الدخول. يسقط الرماد من سيجارته التي تتدلّى على شفتيه. ينظر إلى وجهي. يقرأ أفكاري. فيبتسم ابتسامة أبويّة، ويقول:

«أجل. فهمتُ. وأخيراً فعلتَهَا. موافق، سأدعك تكتب لي أغنية. ولكنْ: لا تظنّ أنك فهمتَ كل شيء بمضاجعة سريعة. عليك أن تشعر بالموت يجتاح عظام وجنتيك؛ كي تفهم الحياة. هل فهمتَ، يا باغودا الصغير؟ تذكّر هذا! الموتَ في عظام وجنتيك!».

هذا هو ميمو ريبيتو.

أمّا الآخرون: العاريان على شاطئ فينتوتيني، مارتشيلو كبير الخدم، البارونة إليونورا فونسيكا، ديمتري المعّظم. وذلك الفرد، هناك في خلفية الصورة المحروقة: أنا حين كنتُ سعيداً.

-١٠-

إنها تمطر

السماء تتمزّق

والبحر يغرق

ريكاردو كوتشانتي

مثل هزّة أرضية، تزلزل ثبات الحياة، تنتبه أنّ شيئاً ما تغيّر في أعماقك. بلا أسباب مقنعة، يوحى إليك بأنك تواجه نهاية مرحلة ما في معركة قاسية. أصدقاؤك المقرّبون يتحوّلون إلى كومبارس شفّاف. لا تراهم العيْن. تجتازهم كأنك تعبر الهواء. يخسرون الدافع في عينيك.

في وقت مضى، كانت التجارب تسعدك، لكنها - الآن - تسبّب لك الضجر والإحباط. الحياة تفلت من بين يديك لسبب بسيط، هو أنك عشتَها كلها. وفي الوقت نفسه، تنظر إلى المرآة، وترى أنك ما تزال حياً، لم تبلغ مائة عام بعد. تنتابك الحيرة، بما يجب فعله كحمّىً شنيعة. تحتاج إلى صفاء في دماغك؛ كي تتّخذ قراراً. أنا في رأسي ثمّة مدينة ملاهٍ صاخبة كيوم الأحد مليئة بالأطفال المشاكسين، فضلاً عن بقايا الكوكايين التي تجرّعتها بلا هوادة، ولم أقوَ على التخلّص منها. حاولتُ أن أغسل دمي في لوزان، وأنفقتُ رَقْماً خيالياً، ندمتُ عليه أكثر من أي تبذير آخر. خدعتني لعبة التوقّعات. كنتُ أظن أنني بعد عملية غسيل الدم، سأبدأ حياتي من جديد بكل سعادة وسرور، مثل أول مرّة، استنشقتُ فيها أربعة غرامات دفعة واحدة. كان عمري عشرين عاماً، وكنتُ أبدو شاباً متألّقاً عكس الحقيقة. قال

لي الطبيب السويسري، دون مراوغة لفظية، أو مصطلحات علمية. بصراحة سويسرية، مشيراً إليّ بسبابته الطويلة:

«يا صديقي، عليك أن تستريح حقاً. وضعك الصحي أسوأ من كل أعضاء فِرَق موسيقى الروك البريطانية الذين يأتون هنا للعلاج كل شهر.» هذا ما قاله لي، وهو يخاطبني بخفض الكلفة بشكل غريب. لكنني ظننتُ أنه من أتباع التشاؤم في الطب الغربي. تحذير مبالغ فيه، قلتُ لنفسي.

لكنه كان على حق. خرجتُ من هناك، وأنا أشعر أنني مثلما دخلتُ، وربّما أسوأ قليلاً؛ أي متثاقلاً ومنهك القوى مثل جبن الموتزاريلا سيئ التحضير. الدم، رغم ضرورته التي لا غنى عنها، لا يؤثر كثيراً على الحالة النفسية؛ لأنّهما يعملان في قسمين منفصلين.

بعد أن أطلعتُكم على حالتي البدنية والنفسية، ليس من المعقول أن يُطلب مني تنظيم أفكاري وأفعالي. إنني مجنون، أو طموح، أليس كذلك؟! أشعر بألم، يشبه ألم الأسنان حين يتوعّد: سأجعلك تعاني مريراً. أشعر أنني على آخر موقف من طريقٍ ما. فليكن واضحاً أنني لستُ تراجيدياً، لا أتحدّث عن الموت والأمراض، بل أرى الأمور من زاوية واقعيّة. ثمّة نهاية لأيّ شيء. تتغلغل التعاسة في باطني، وتخبرني بشيء، لا أستطيع معرفته.

أفكّر في هذا، بينما أعود سيراً على الأقدام من عند ريتا إلى بيتي. الساعة العاشرة والطقس ليس بارداً. المدينة موجودة بالنسبة إلى الآخرين بالتأكيد، ولكنني لا أراها. أعرف هذه الأماكن كلّها حتّى تبدو لي غريبة، ولا يربطني بها أي شيء. ما الذي يحدث، يا طوني؟ أشعر بالخوف أيضاً الآن، خوفٌ طفيفٌ عابر. قد يتحوّل إلى اكتشاف للحياة، إن أخذ منحىً صحيحاً.

أمرّ بموقف مليء بسيارات الأجرة. جميع السائقين يعرفونني. يلوّحون بأذرعهم، ويبتسمون، مستعدّين لتوصيلي إلى البيت مجاناً. لكنني أريد

الاستمرار في المشي؛ كي أناور أفكاري؛ إذ لم تؤثر فيّ الجرعة على سلالم ريتا، سوى خدرٍ عند الذقن.

قبل عشر دقائق، كنتُ أريد الاستحواذ على حياة الآخرين جميعهم؛ كي أغرق حتّى القاع في الألم والمتعة، في النظام والفوضى. كهدّاف يسعى إلى جمع أكبر عدد من النقاط. لكنه الآن يترنح منهكاً، ولا يزال على قيد الحياة.

تبدو لي نابولي، بكل ما فيها من بشر وضوضاء وصعاليك، مثل حوض سمك، لم ينظّفه صاحبه منذ أعوام. إنني أفقد معنى الانتماء، هذا المعنى البسيط والمعقّد في آن واحد. وأخيراً يتضح شيء ما تحت أكوام الغبار الأبيض التي في رأسي. حدّدتُ المشكلة، إنني في حاجة إلى عالمٍ جديد، ينفتح على احتمالات، لا حصر لها، فلا أخاف من السقوط، ولا أتوه في الحيرة. حياتنا الخرائية مجرّد تتابعٍ منطقيٍ لأكثر الأمور بدائيّة. هل فقدتُ حسّ الانتماء؟ جيد جداً، حان الوقت؛ لتجد مكاناً آخر، ووجوهاً أخرى، وحياة أخرى. لديّ قدرٌ، لا بأس به من المدّخرات، كنتُ قد أودعتُها في البنك لعلاج أسناني. لا مشكلة، لن أكسر البندق بأسناني. فأيّ معنىً لأسنانٍ سليمة، إذا كان بوسعك اختيار مكان بعيد، والتوجّه إليه؟ كل شيء سيكون سليماً. يا إلهي، يجتاحني إحساسٌ صبيانيٌّ، كما عندما أخذني عمّي إلى الصيد أولّ مرّة في قناة بروشيدا، برفقة أصدقائه. إنني طفلٌ لم أطلب من حياتي أكثر من نكات الكبار؛ كي أشعر بتميّزي. هذا ما يريده الطفل، أن يخذل التوقّعات.

وعليه فإنّ طوني كان في حاجة إلى استراحة، ولم يكن يدرك هذا. الفكرة منطقية، تفقد معنى الانتماء، وتحصل على النتيجة في النهاية. نتيجة تسمّى الحرية.

يتكرر المشهد الحيوي في ذهنك حتّى الإعياء، وتذكره بوضوح: أنت كالآخرين، لا أكثر، ولا أقل. ترغب في الحياة وتحدّي الطبيعة. لم تعلّمك سير

الآخرين أن تكون مختلفاً. يا لها من شيوعية لعينة تهيمن على الأجساد. تتغيّر أرقام السنوات التي تعيشها، والأساليب واللهجات، حتّى تجد نفسك متّجهاً إلى البالوعة، مَن كنتَ تحسب نفسك، يا رأس الأير اللعين! وهذا ينطبق عليّ، علينا، عليكم، عليهم، على السيد المسيح، وجميع الرسل والأولياء.

أقترب من حي سيرينيانو. وأخطف نظرة واهنة إلى ذلك المبنى الأثري. توفيت البارونة فونسيكا. ماتت نابولي الخمسينات. مات الفتى باغودا المراهق. أجل. أجل. وها نحن نبدأ مرحلة جديدة من الحسرة والحنين. اهدأ، يا طوني، اهدأ، ما يزال هنالك وقت.

أصل ساحة سانازارو؛ حيث السياراتِ في سباق، لا ينتهي. الغيوم تنخفض على ارتفاع الطابق الثاني من البنايات دون سابق إنذار. كأنّنا فوق الجبال الشاهقة. رياح البحر تهبّ على زوابع عشوائية، تحمل معها الأوراق وعلب الكوكا كولا والفانتا. أتعلمون أن مبتكر الفانتا من أصل نابوليتاني؟! قيل إنه ملياردير من تكساس، لكنه من نابولي. لقد عرفتُه ذات مرّة. أراد أن أغنّي في حفل تعميد ابنه. كانت المشروبات على المائدة متنوعة، باهظة الثمن وصعبة المنال. ثريّ للغاية. سمّى منتجه "فناتازيا"، ذلك المشروب القميء الذي صدر مباشرة بعد الحرب. ثمّ اشتراه الأمريكان، وحوّلوه إلى "فانتا". لقد ابتكر الخلطة، وحصل على براءة الاختراع، وبات من أثرى الأثرياء.

كل شيء يدور. الريح تهزّ الأشجار الكسولة، فتفوح روائح الشتاء في الجوّ. أشمئزّ من التلوّث. أشعر بالراحة، قسماً برأس ألبرتو، وابنتي، أو أيّ أحد. أتمشّى، أشعر بالريح وروائح الشجر، وقد تهطل الأمطار، فأحسّ بأنها ستُمطر فوقي معنىً جديداً للحياة. عاصفة من البساطة، هذا ما كنتُ أبحث عنه. مثل أمي. شدّوا وثاقي. فإذ أقول أمي، أصبح عبداً لذكراها. شدّوا وثاقي، إن رأيتُموني أغرق في الشاعرية الوردية والمملة.

أنا في حصانة من لا شيء. أعرف ذلك. لأن أمي ما تزال أمي. والحب لم

يبتكره المطربون. لكنّهم حوّلوه تجاريّاً إلى علاقة بين ثنائي. كنا نتحدث عن الأمهات في الأغاني. هذا هو الحب الأصيل المتجذّر فينا، الحب الوحيد الذي لا يُستبدل بآخر.

ولكنْ؛ متى استهلكنا ذلك الشقّ الذي لا يندمل؟ لا يمكننا تجاهل ما يحدث، لاسيّما حين يكون الحدث أليماً. لماذا أشعر باشتياق مخيف، يهيّئني لموت هادئ حين أنظر إلى صور أمي؟ تلك الصور لم أكن موجوداً فيها. هذا ليس حنيناً طبيعياً، وليس غنج طفلٍ ملول, بل إنه شيء آخر، عذابٌ ينبثق من محتوى. وأنتم - أيضاً - تتعذّبون، كلما نظرتُم إلى صور أمهاتكم. كلها متشابهة حتّى لو بدت مختلفة. أنا أعرف ما الذي يجعلني أبكي بلا انقطاع، حتّى عندما أذهب لشراء السجائر، وأتظاهر بالضحك على نكات الأصدقاء. أعرف. في تلك الصور يعيش شيء، لم يعد ينتمي إلينا. إنها البساطة. في تلك الصور اللعينة، يوجد مفهوم الحياة البسيطة التي فلتت منا كلّيّاً. فأضحت حياتنا عقدة مصطنعة، لا لزوم لها.

في صور أمهاتنا متعة الحياة وبساطتها. بساطةٌ تجعل حياتنا مقبولة. والمقبول مرادفٌ للسعادة؛ لأن البسيط لا يعني المتخلّف. حذار أن تختلط عليكم تلك المفاهيم المتشابهة والمختلفة في آن. نحن نتآمر على أنفسنا، فنظن أنّ البسيط يعني السخيف.

كم كنا قادرين على ارتكاب الكوارث.

كنا نستخفّ بفرقة شيترا مع أنّ أغانيهم الشيطانية تذكّرنا بذلك. كنا نتّهمهم بأنهم شاخوا باكراً. ولم نؤمن بفرقة "الأغنياء والفقراء" الذين غنّوا للهو والطعام والشراب، فيما ننهال على قوافيهم بأقذع الشتائم، وهكذا نعترف بعد عشرات السنين أنهم كانوا على حقّ، كانوا يبدون لنا حمقى بكل بساطة.

كان علينا أن نؤمن بألعاب الطفولة، لكننا بعنا عقولنا لأفكار الفلاسفة الأوغاد، وأردنا أن نجعلها أفكارنا بأيّ ثمن دون أن نفهم مغزاها. كم كنا

حمقى. احتال علينا الطبّاخ العظيم، ورحنا نقلّد طريقته المشكوك بأمرها. أوهمونا بأننا نملك كل الأدوات لحلّ مشاكلنا. كذبة كبرى، أنتجها المئات من الأثرياء الموهوبين. الكائن البشري مثير للسخرية: يعقّد حياته؛ لأنه لا يرى أنها قد تكون سهلة وسالكة. لماذا نرتكب هذه الأخطاء في التقييم؟ ومَن يدري؟! أسأل نفسي دون أن أعثر على إجابة بسيطة. وقد تكون الإجابة البسيطة مقنعة، لكنها لا تفضي إلى أيّ نتيجة. لقد انقرض البسطاء، وظهرنا نحن عابسين متشائمين، نتظاهر بالضبابية، وندّعي معرفة أسرار الحياة. كنا نظنّ أننا أصبحنا معقّدين، بينما كنا نتألّم من كوننا معقّدين. وهذا شيء حزين فعلاً. كنا ما نزال نركض ضاحكين إلى أحضان أمّهاتنا، فإذا بهم يقبضون علينا في مكان آخر. حبسنا أنفسنا في النوادي الليلية والجامعات، وعلى اليخوت وفي المصانع. مسألة جاذبية اجتماعية، وحظوظ أوصلتنا إلى الإعياء المفرط. هذا يكفي. الآن أترك كل شيء. أقسم بالطفل في الحظيرة بجانب البقر والحمار.

تطلّب الأمرُ حرباً حامية الوطيس طيلة يوم الأحد؛ لأتخلص من ذلك الدُّرج الذي كان يُعربد في رأسي. أنا الآن مليء بالبساطة. كما حين كنتُ صغيراً، وأذهب برفقة أبي وأمي إلى شارع كاراتشولو في عطلة الأحد. كنتُ أودّ رؤية البحر فقط، واستنشاق رائحته النتنة، وتناول الحلوى الطازجة. وما تبقّى كان على عاهل والديّ اللذين لم يكونا مشغولين كثيراً. ندخل المطعم، نتناول الباستا وبعض اللحوم. ما أجمل الحياة البسيطة. كنتُ أرغب المكرونة بالصلصة والقليل من النبيذ المنزليّ. أرغب بحلوى الحساء الإنكليزي، أو شيء أجنبي حديث: كريم كراميل.

«ما هذا الخراء؟» يسأل والدي مستاءً وخائفاً من تقدّم الخياة.

«كريم كراميل؟» يقول النادل فخوراً بالمنديل على ذراعه وحذائه المنهك من ألف كيلومترا ذهاباً إياباً داخل المطعم، ويطوّل الشدة على الياء الأخيرة: كرامييييل. «إنها ثورة في عالم الحلوى» يضيف.

إذ كنا نعتقد أن أي شيء يأتي من فرنسا، لابدّ أن يحمل شيئاً من الثورة. ولكنْ؛ ألم يبدأ انحطاط هذا العالم بالكريم كراميل الخرائية؟ ثمّ ضعنا بين الرز بالشمبانيا والباستا بالفودكا والمعجنات بماء الزهر، لنستسلم للفشل الذريع. العالم يتغيّر وفقاً لقوائم المطعم، ونحن لا ننتبه لذلك. لكن والدي ينقذني بركلة زاوية. لا يريد أن يسمع الحجج:

«ابني سيأخذ الحساء الإنكليزي» ينهي الحوار بغطرسة دكتاتور من أمريكا الجنوبية؛ لأنني كنتُ أمقت الحساء الإنكليزي، وأرغب أن ألتهم الثورة.

وكنا بعد الغداء، نذهب لننظر إلى قاربين على كاسر الأمواج الخشبي المترنّح. كان والدي يتمنّى الحصول على قارب صغير. واستأجر واحداً لعدّة أيام ذات صيف؛ لأنه يؤمن بأسطورة الصيد. لكنه لم يكن يصطاد إلا سمكة غبية، تصلح لحساء قميء. ثمّ نضحك طيلة السهرة. هكذا كانت الحياة التي عددناها موتاً. كم كنا أغبياء وحمقى! ماذا أضيف؟ أغبياء وحمقى فقط. ولكنني، وحق الله، سأستعيدها. تكفيني طائرة تقلّني إلى شاطئ وكوخ وبلدة متخلفة. أريد أن أرمي الشباك، وأعود راضياً حين لا يعلق شيء بتلك الشباك. أكل وشرب ولهو، ببساطة. كأمنية فرقة "الأغنياء والفقراء". أريد أن أعيش مثل فرقة "شيترا". سأضع الستائر على النوافذ، وأقضي على الضجة بقدح بابونج. لا شيء آخر. أريد قبلات خلف العنق، ومضاجعةً جيدة، وتناول المشروبات الخفيفة في العصرية، والبكاء عند الغروب مثل ريكاردو كوتشانتي. أريد أن أبدو ضعيفاً، كما أنا عليه في الحقيقة. أصفّي المسائل المعقّدة دفعة واحدة. أريد أن أنظر إلى الشيخوخة. وأنتظر الشيخوخة.

وبفضل هذه الأسباب، كنتُ أستمتع بالهدوء مثل بوذا حين أدخلتُ المفتاح في باب بيتي. انتبهت زوجتي ماريا لهذا على الفور، لكنها للأسف بقيت على حالها، لا تتغيّر مثل الكاردينال.

كانت تمكث هناك، ذابلةً على الديوان، وقد صبّت ست قوارير من

الدموع على طاولة الكريستال. تريد أن تبدأ من حيث انتهينا. تريد أن أؤذيها كالعادة، وإلا فإنها لا تصدّق أنها على قيد الحياة حقاً. فإذا بها تصطدم بشاحنة من الهدوء والسكينة. تتملّكها الحيرة في عدم معرفتي جيداً تماماً في اليوم نفسه الذي أعرف فيه نفسي حقاً. المرأة الحديثة تلحّ على الشجار، تودّ استفزاز الأرواح الميتة. المرأة الحديثة مثل البقّ، تصعد الجسد ببطء، وتمتصّ جرعات من الدم. تحصل على مبتغاها من المشاجرة الدائمة. أبداً. أبداً. إنها جدل، لا ينتهي. تعتقد أن الحلّ يكمن في المشكلة. ونظراً إلى أنّ الحل معقّد بالنسبة إليها، فلا بدّ من الشجار الطويل حتّى الإنهاك. وإن رأيتَها تستسلم، فتأكدْ أنه مجرّد فاصل إعلاني. هذه هي الاستراتيجية، تلتقط الأنفاس؛ لتهجم من جديد بانفعال أقوى. ولكنني أتصرف كالأصنام، منعاً للدخول في معركة. أودّ لو أنفجر بالصراخ، ولكنْ؛ ليس الآن. فأنا أشعر بالانسجام والعودة إلى البساطة بعد خمسة وعشرين عاماً من الغياب.

تخطئ الهجوم، ماريا تهمس كأنها تحت القبر: «أريد الطلاق».

تبدأ ثانية من حيث انتهت. وتظن أنها تفتتح حرباً، تدوم أربع ساعات على الأقل. لكنها لا تعلم أنها أنهت الحرب هكذا. أقول بنبرة صادقة، لم تسمعها مني منذ خطوبتنا: «موافق».

أراها مصدومة متحجّرة في مكانها. كما حين نوشك على الوقوع في الوحل، نفقد حواسّنا لجزء من الثانية، ولا نعرف كيف وأين سنقع. هذا هو الفزع.

ربّما وقعت، ولم تشعر بألم؛ لأنها تجد الخلّ وتخطو إلى الوراء بجملة معنوية: «ألا تفكّر بابنتك؟»

«أجل، أفكّر. لكنها باتت كبيرة. ستتفهّم الأمر. عليها أن تبدأ حياتها. والحياة الحقيقية غالباً ما تبدأ بمعاناة كبيرة».

تخرج من فمي هذه الزوبعة من الكلمات الطيبة؛ لتحني رأسها جانباً

خمس عشرة درجة. الصدمة شرسة، لدرجة أن عينيها تجحظان كأنها تنظر إلى قبة متحف الفاتيكان.

تفتح فمها، فأنتبه إلى جمال فمها الساحر، لم أكن قد رأيتُه بهذا الجمال من قبل. تنهض من الديوان بعد أن أنهكها العجز. أقترب منها، وأعانقها برفقٍ لم تعرفه عني يوماً. ثمّ أقول:

«الآن أوضّب حقائبي، وأرحل».

في اللحظة التي أبتعد عنها، تجد أمامها الرجل الذي لطالما رغبت فيه. رجل حنون. رجل متفهّم. رجل هادئ. في الخلاصة، رجل محل ثقة.

يتداعى العالم فوق رأسها. تفكّر في أن تتبعني إلى آخر الدنيا، تماماً حيث أوشك على الذهاب. نادراً ما تتقاطع حياتنا، ولهذا ترانا نعاني مثل أطفال إفريقيا الوسطى، بلا ماء أو غذاء. وإن توفر القليل من النوايا الحسنة، لوجدنا حلاً لمشاكل إفريقيا، بينما من المستحيل أن نعثر على حلّ لمشاكلنا.

معاناتنا تستعصي على الممرّات الإنسانية.

ترتجف ركبتاها، شفتاها تصبحان كخيطين هزيلين، عيناها تغمضان، ويُغمى عليها فوق السجادة. كانت في حاجة إلى الفاصل الإعلاني، وعثرتُ عليه. انزلقت دون أن تؤذي رأسها، وهذا مهمّ؛ لأنني - الآن - أستطيع أن أوضّب حقائبي دون اتصال بالإسعاف، أو شعور بالذنب. لكنني لستُ سعيداً. إنني بارد الأعصاب، ولئيم بشكل لا إرادي. إنني إنسان بكل بساطة. مثل الآخرين.

في غرفة النوم، أتسلّق الرفوف العيا كالطرزان المتقاعد. أفكاري واضحة وبسيطة حتّى أشعر أنني أنا مَن صنع العالم. ولهذا أضع القمصان الصيفية والناعمة وبنطالاً من الكتان. أجهّز حقيبة صغيرة، بينما أسمع آهات ماريا من المطبخ. استعادت وعيها، واختارت المطبخ نعشاً.

أمسك بصورة ابنتي حين كان عمرها سنتين، ثمّ أغلق الحقيبة. أعبر الممر، وأنا مستعدّ لوداع بسيط وملموس. أنا شخص آخر.

«سأتصرّف كرجل نبيل. سأترك لك كل شيء، البيت والسيارة والباقي، سآخذ بعض النقود فقط؛ كي أواجه بدايات الحياة الجديدة. لن تحصلوا على أخباري، ولكنْ؛ كونوا مطمئنين، تخيلوني حياً سعيداً. سأخبركم عن حياتي مرّة واحدة فقط، حين أموت. ليس قبل أن أتخذ كافة الإجراءات بخصوص جنازتي. والآن لا تبك، يا ماريا. أنت تبكين؛ لأنك تظنين مخطئةً أنّ في هذه الدنيا ثمّة حياة واحدة فقط. إنما يوجد على الأقل ثلاثة حيوات، وربّما أربعة. تذكّري ما أقوله لك الآن جيداً. فهذا أفضل ما يمكن أن نذكره في الحياة أنا وأنت.»

لم تعد تسمعني. تريد أن تبكي بأيّ ثمن. لكنها ستفهم كلامي؛ لأنه أصيل ومشجّع.

ألتفّ وأذهب دون أن أقول شيئاً، دون أن ألقي نظرة على البيت، دون أن أودّع المدينة، دون أن أودّع سامانتا ولا المايسترو ميمو ريبيتو، لا أحد. لا ينبغي أن أستنشق شيئاً؛ لأنني قد أسترجع رائحة الحنين النتنة الثاقبة. ما هو إلا جهد صغير، وأكون خارج هذا العالم الحقير.

في سيارة الأجرة التي تقلّني إلى المطار، يحاول السائق أن يرطّب الأجواء. أفهم أنه يراقبني عبر المرآة العاكسة، وهو يغلي من شدة الفضول. ثمّ يتشجّع، ويهدم الحياء؛ لأنه رجلٌ راشدٌ، ويسألني: «هل حضرتك المطرب؟».

خلف النافذة، على الطريق السريع، ثمة مدينة غريبة عني أعرفها منذ أن وُلدت. لا ألتفت نحوه. لا أتحرك، بينما تسقط عيناي على لاقطات الإشارة المكدّسة فوق الأسطح، وأقول بصوت أجش ومتعب: «لا، لستُ أنا».

لا يصدّقني. لكنه يعرف الحياة، ويدرك أنني لستُ في مزاجٍ مناسب للدردشة. عاود النظر أمامه، وتابع القيادة.

تراودني فكرة بسيطة: هذا الرجل سيبقى هنا إلى الأبد، وأنا أنصرف من هنا إلى الأبد. لا تبدو الحياة الجديدة جديدة حقاً. لكنه إحباط عابر، وطبيعيّ قبل أي رحلة عادية، فتخيّلوا رحلة بلا تذكرة عودة.

عندما التفتُّ ثانية؛ لأرى المدينة، لم أجدها. انصرفتْ. كان هنالك ضبابٌ على درب الشاحنات وبعض النباتات البرّيّة. كأنّ المهندس الذي صمّمها كان مستعجلاً. انصرفت المدينة، وتلاشت معها زوبعة التعاسة التي رافقتني في المساء. حينها - فقط - أدركتُ أنني وحيد. كما كنتُ دائماً.

لكنني الآن أكثر وحدة من قبل.

-١١-

أفتح الباب
في ذلك الصباح
الرمادي
لقد انصرفوا
بصمت مطبق
تاركين أجسادهم على
السرير.

جينو باولي

لا أشعر بالوحدة، فأنا محاط بملايين من الأصدقاء هنا في البرازيل. اجتاح القمل رأسي، ثمّ أوعز لرفاقه، فانضمّ قمل العانة أيضاً. لا عذاب أسوأ من الحكّ في هذه الحياة. الحكّ الهائج الذي لا ينتهي.

كنتُ أنظر إلى قارورة دواء كروز فيردي، وأجهش بالبكاء، أفكّر في ذلك العالم الكيميائي العظيم الذي ابتكر الدواء، وودتُ أن أقبّل جبينه، وأهديه الأزهار. لابدّ أنّ جائزة نوبل محض ادّعاء، إن لم تُمنَح لهذا العبقري الذي ابتكر الحلّ. من الغريب أننا لا نعلم ما اسمه. ثمّ يقولون إن للنجاح أسساً ثابتة. أجل. لكنها أسسٌ متأرجحة. هل يعقل أننا نعرف اسم الغبي الذي يقدّم برنامجاً عن أنواع الجبن، ولا نعرف شيئاً عن هذا الفطحل؟! آهِ، لو سلّموني رئاسة دولة ما؛ لجعلته عمدة مدى الحياة، أو وزيراً للصحة إلى الأبد. يا إلهي! حتّى اسم الدواء عظيم. كروز فيردي. يبدو مشروباً إفريقياً، يُحيي الموتى، بل كأنه قصيدة أرجنتينية! أو اسم مطربة كوبية شهيرة! أو عاهرة بانميّة خبيرة!

ولكنْ؛ قبل أن يقوم الشعر بمفعوله، عشتُ أسوأ لحظات حياتي. لا تكفي يدان؛ لتحكّ رأسك وخصيتيك ومرفقيك وإبطيك في آنٍ واحد. عليك أن تحدّد الأولويات، وأن تُرضي كل شبر من جلدك المتعطش لأظفارك. في الليل، كنتُ أحلم أن بعض القطط المدرّبة تساعدني بمخالبها، وفي النهار، أرغب أن يهشّمني فهدٌ، وأموت، فأقضي على الحكّ ببراثنه المدبّبة.

تطلّب الأمر أطناناً من كروز فيردي. سلّمني إياها عامل الفندق في ريودي جانيرو مباشرة، ستّ علب مثل البيرة.

وفي المساء، على خشبة مسرح ليندو، كان الجمهور ينتظرني؛ كي أعيد اللازمة، بينما لا أفكّر إلا في وسواس واحد: الحكّ. وانتبهتُ بطرف عيني إلى أولئك المنغوليين، أعضاء فرقتي، يضحكون خلسة. كانوا سيدفعون حياتهم ثمناً؛ ليروني أحكّ هكذا، مثل النمس في القفص. ضحك الأوغاد بلا انقطاع، بينما يعاني جيني أفروديت معي، وهو جالس في الصفّ الأول، قلقاً لحالتي. كان يتفهّم وضعي؛ لأنه يبدو أنه مطّلع على المعاناة البشرية في كل تفاصيلها وخفاياها. يعرف خبايا الألم. إنه حكيم في الثلاثين من عمره، كما لو أنه عالم أو رئيس دولة.

ما سبب هذه المأساة؟ كان ذنبي أنا طبعاً؛ لأنني لم أستطع أن أنام ليلة أمس بسبب ضغط الطائرة، فنزلتُ بكامل قواي العقلية إلى شاطئ الفندق، واستلقيتُ على غطاء قديم منصوب على المضجع. دخّنتُ إحدى عشرة سيجارة روثمان، بينما كان القمل، على غفلة مني، يستولي على جسدي الناعم، كأنني حافلة مدرسية. ثمّ جعلني فارق التوقيت الملعون أغفو على المضجع، بينما يحفر القمل، ويخبّئ بيضه. لا أفهم كيف تمارس هذه المخلوقات الجنس؟! جعلوا من جسدي عشاً للزوجية.

والآن أناضل مثل السنجاب على الدولاب، وأنا عارٍ تماماً، في غرفة الفندق، بمساعدة الكروز فيردي والشفرات. حلقتُ زغبي كله حتّى بدوتُ

أبشع ولد على وجه الأرض. لكن كل شيء يهون مقابل القضاء على ذلك القمل الشغوف. كم من السهل أن تقتل آدمياً، وكم من المعقّد أن تقتل مخلوقاً، لا يتجاوز الملمتر، ليس له وعي، ولا ضمير. ولا أحد يعرف ماذا كان يجول في رأس الله حين كان يخطّط لهذا المشروع الطموح. واضح. يبدو أن الكون كان أكبر منه، ويفوق إمكانياته، إلى أن افتعل انفجاراً عظيماً، وانغمس في الأوراق مثل الموظّفين المولعين بالبيروقراطية، بينما انشغل الإنسان، طيلة مائتي ألف قرن، وهو يحاول عبثاً إيجاد حلول وقطع تبديل لملايين المشاكل والحوادث الهائلة التي يخلقها الله كل يوم. الله دعيٌّ، لم يحصل على شهادة، والبشر صبروا طويلاً على عبثه الذي لا ينتهي.

على أي حال، أنهيتُ الحفلات الغنائية الثمانية. لم أفعل شيئاً خلالها، غنّيتُ وحكيّتُ، غنّيتُ، وحكّيتُ، لا كوكايين ولا مطاعم ولا برازيليات حسناوات بمؤخرات مرتفعة وأفخاذ متباعدة. لا شيء. واظبتُ على حكّ جلدي القذر الذي تراكم عليه إرهاق عشرات من الأعوام. لا يحدث الخلاص عبر حمّام ساخن، بل عبر شركة خبيرة بالمبيدات. كان عليّ أن أنزع كل شيء. ورحتُ أحكّ بأظفاري كلّ الذكريات التي داهمتني حينها. كنتُ أرى أعضاء فرقتي المهابيل من النافذة، لا يفعلون شيئاً سوى الاستلقاء عند المسبح، ويضحكون ويسخرون ممّا أصابني.

كنتُ ضعيفاً أمام أعينهم للمرّة الأولى. وقد ابتهجوا لهذا، ومَن يدري لماذا؟! لكنني كنتُ أرجّح الغفران على كل شيء. حين يتغيّر فيك شيء، تداهمك التناقضات؛ كي تنغّص عليك. لكنني لا أفكّر بالثأر ولا الحسد. أراهم هناك محاصرين من السمنة والعاهرات اليانعات. لكنني لا أقيم اعتباراً. أراهم كيف يتأبّطون الأفخاذ والأرداف بشغف لا يُقهر، لكنني لا أرغب أن أكون بينهم، ولم أفكّر بتلك المعادلة البدائية التي تقول إن رفض الجنس تعني المثلية الجنسية.

إنني أعيد تأهيل نفسي، مثل الدولة الحديثة. ألغيتُ البيروقراطية من

رأسي، وتأكدتُ أنني لا أشعر بضرورة الكوكايين، ولم أستنشقه خلال ثمانية أيام. وهذا ما لم يحصل أبداً فيما مضى، باستثناء أعوام المدرسة والطفولة الأولى حتّى تلك الليلة مع البارونة فونسيكا.

وجاءت المكافأة الكبرى: تفاعل الدواء أخيراً، وتلاشى الحكّ نهائياً. أسمع تأوّهات جنسية من الغرفة المجاورة. يدفعني الفضول للالتصاق بالحائط؛ كي أسمع أكثر، وهكذا أفهم أن شاباً ألمانياً ينكح برازيلية، لا تتجاوز الاثني عشر عاماً. أسمع حتّى صرير النقود الشنيع، ثمّ همهماتهما الخجولة. هذا جنس، ليس له تبرير. لا يمكن أن تجد تبريراً للجنس حين يفقد حسّ الدعابة.

وها أنذا أتأكد أنني لستُ أكثر الرجال شرّاً في العالم. قطعاً. ولم أكن يوماً كذلك. ما تزال لدي إمكانية في مستقبل جديد. ما يزال أمامي ما أجرّب، وما أقول. لن يخيب أملي هذه المرّة، سأقضي على الحياة، ما دام أنها لم تقضِ عليّ.

وعند العودة إلى إيطاليا، أصل إلى مطار ريو أملس البشرة، أشعر بالانتعاش؛ لأنني حدثٌ جديد، وابتسامتي مطبوعة على وجهي بعد أن تصالحتُ مع نفسي. ولكنْ؛ ليس هذا ما يفاجئ رفاقي، بل يصدمهم لباسي؛ إذ أرتدي قميصاً زهرياً وبنطالاً قصيراً، وأنتعل الخفّ، ولا أحمل أيّ حقيبة. ينظرون إليّ، وهم يتصبّبون عرقاً لجرّ عرباتهم المكدّسة بالحقائب والآلات الموسيقية، ولا يفهمون شيئاً. وحدها عين جيني أفروديت تذهب أبعد من ذلك، وتفهم كل شيء. يا له من ذكي! وبوسعي أن أقرأ حركة شفتيه، بينما أتقدم نحوهم. يقول مكتئبا بنبرة، لا تخلو من الهزل:

«يا رفاق، أنتم من اليوم فصاعداً عاطلون عن العمل».

أجل، جوني أفروديت فهم كل شيء حقاً. لأنني لن أعود إلى حياتي الخرائية أبداً. لن أغني مجدداً، ولن أرمي نفسي إلى أيّ جسد يمرّ، ولن أبحث عن الكوكايين في الدرك الأسفل من نابولي. لن أعود لأداء دور الزوج

والأب والعاشق وصديق الجميع. لا أريد أن أفعل شيئا أبداً، أبداً. إنما أريد ستائرَ على النافذة. وجوني يعرف هذا؛ لأنه يرغب في أن يفعل مثلي تماماً. يعرِف النظرية، والآن يشهد على تطبيقها. لكنهم لم ينتظروا تصرّفاً كهذا مني. كانوا يعدّونني رهينة العادات السيئة والسطحية. يجهلون أنّ السطحية مصدرٌ مهمّ، فهم لا يعرفون عن الحياة وعاداتها السيئة إلا ما قصصتُه عليهم. ولهذا يهاجمونني بأسئلتهم المتناقضة والحاسدة والفوضوية. لا يصدّقون، فقلوبهم مزّقها الجهل، لا يعرفون حقيقتي بعد. أختصر كل الأسئلة بإجابة واحدة:

«يا رفاق، إنّ التعب أفضل صديق للحرية. المرء يقضي حياته، وهو يظنّ أنّ الإرادة والتطبيق والعزيمة تقرّبه من الحرية. كلا. التعب وحده ما يحملك إلى تلك الغرفة الشهيرة بلا جدران، الحرية. المتعب من كل شيء بوسعه أن يقول: لا، لن آتي. لن أشارك. لا، ولا، ولا. الحرية هي أن تقول دوماً لا.»

أقول قولي هذا، وأظن أنني كنتُ مبتذلاً، لكنّ عيني تيتا تمتلئان بالدموع. أظهر عاصفة من الحنان على وجهه، لم أعرفها عنه، إذ كنتُ أنتظر كل شيء من الحياة عدا أن يتأثر هذا الجاهل بإحساس، ليس فيه منفعة. لكن الإنسان مثل علبة الكوكا كولا. يكفي أن تثنيه قليلاً حتّى يهرأ من كل جانب. دمٌ ومشاعر. دفءٌ وندم. وهكذا ينفجر ببكاء مفتوح، وصوت مرتجف: «وما الذي ستفعله وحيداً في البرازيل، وأنت في هذه السنّ، يا طوني؟»

الإجابة جاهزة. أجل، الإجابة على رأس لساني، وحق الله.

«سأفعل ما لم أفعله حتّى الآن، يا تيتا».

«ماذا؟».

«سأستريح» أقول، وأنا أشعر بالراحة حقاً. يصدّقونني. تتبدّد شكوكهم وصدمتهم وميلهم إلى المزاح. فأضيف: «لقد انتظرتُ كل حياتي لأفعلها، يا رفاق. كنتُ أريد أن أستريح، ولم أكن أعرف هذا. حين تضغط عليك المودة

الغالية، وأنت في طور التعلّم، تبقى جاهلاً للكثير من المعارف الأساسية. إحداها هي الريلاكس. ولابدّ أن أعطي هذا الريلاكس حقوقه كاملةً.»

لكن رينو باباالاردو لا يستسلم. يبكي هو أيضاً. إنهم يكنّون لي المودة، ولم أكن أعرف هذا: «ستمضي ستة أشهر؛ لتفقع خصيتيك، ثمّ تعود؛ لتبحث عنا مرّة أخرى».

«سنرى» أقول بنبرة جدّيّة، ليس فيها تحدّ، ويدركون أنني أعي ما أقول، حتّى إن جيني يقترب مني للمرّة الأولى، ويفعل شيئاً لن أنساه ما حييتُ: يقبّل جبيني الحليق ببطء. ثمّ يقول بصراحة مخيفة، وهو يتخلّى عن غموضه المعهود للمرّة الأولى: «إنني أعبدك، يا طوني».

«أنا رجل بسيط» أقول.

«أجل، لكنني أعبدك».

«ولكنْ؛ عليك أن تُشبع فضولي، يا جيني، الآن وقد انتهى كل شيء. وهكذا تشبع فضول الرفاق جميعاً؛ لأننا نشكّ في هذا الأمر منذ أعوام».

«قل.»

«هل أنت مدمن على الهيروين، يا جيني؟»

يبتسم بتألق، يُحسد عليه، وببساطة لم أكن أتوقّع أنه يملك مثلها: «كان بوسعكم أن تسألوني عن هذا منذئذٍ. كنتُ سأجيبكم فورا. أنا مدمن على الهيروين، وهل تعلمون لماذا؟»

«لا، يا جيني، لا نعلم. إنها عادة غريبة عن جيلنا» أقول بنزاهة.

«لأن الحياة الحقيقية متعبة جداً» ويبتسم مثل طفل وديع.

ماذا أقول؟ لم أكن مخطئاً، لطالما عددتُه حكيماً حقيقياً، لا يخشى الموت.

يسكت مطار ريو كلّه لثانيتين. وهذا يحدث غالباً إن انتبهتُم. قد تكونون في أكثر الأماكن ضجيجاً في العالم، ثمّ تشاء الصدفة، لمؤامرة ما، أن يسكت جميع مَن حولكم لمدّة قصيرة من الزمن، بشكل لا يصدّق. وهذه واحدة من تلك المرّات. أقبّل جبين جيني أنا أيضاً، ولكنني لا أملك إجابةً هذه المرّة، فأنا لستُ بفيلسوف.

أقبّل الرفاق واحداً واحداً، أستدير، وأجرّ خفّيّ على أرضية المطار اللامعة. لا ألتفت للنظر إليهم؛ لأنني أعلم أنّ هنالك دموعاً خلف ظهري. أخرج من المبنى، فينقضّ عليّ القيظ الاستوائي الذي لن يتركني أبداً. أشفى من مشاكل الدورة الدموية دفعة واحدة، بعد سنين من الانتظار ونفاد الصبر. الحرارة صديقي الجديد الآن، وقد تخلصتُ من القمل. أجد نفسي وحيداً من جديد. ولكنْ؛ لا بأس، فأنا في البرازيل، على الأقل؛ حيث كل شيء ممكن ومستحيل، بلا تناقضات.

ولكنّ المجريات لم تكن بهذا الانتظام الكامل، فالحياة الجديدة ليست حتمية في تبدلاتها، وليست واضحة، كما يريدون لنا أن نعتقد. لا أنكر أن القرارات المتهوّرة لها تأثيرها، لكننا نستسلم بعض الأحيان للحنين، ولما أسمّيه بغريزة الشعور بالفقدان. لقد عشتُ عشرين عاماً في البرازيل، وحافظتُ بحزم على قراري بعدم العودة إلى الوراء، ومن جهة أخرى، سمحتُ لنفسي بالقليل من الاستثناءات العابرة. ترددتُ إلى الحانات، واشتريتُ الكوكايين، وضاجعتُ عدداً لا بأس به من الصبايا. لكنّ قريحتي اضمحلّت، ونفسيتي ارتاحت، وعشتُ حياة طبيعية نوعاً ما. الشيء الوحيد الذي تخليّتُ عنه كليّاً هو الغناء. لم أغنّ أبداً، ولا حتّى تحت الدوش، أو بعد استمناء ناجح. لا شيء. كانت الأغنية غريبة عني تماماً. وكي لا أجعل الحنين يغلبني، عمدتُ على عدم الاتصال بإيطاليا أبداً. تواصلتُ بريدياً لمرّة واحدة مع جيني أفروديت؛ ليحوّل لي مستحقاتي، وأعيش حياة متواضعة. البرازيل بلدٌ جميل، وعزيز على قلبي، تجد الستائر على النوافذ، والحياة فيه هادئة

وعقلانية. ولا أخفي أنني مللتُ كثيراً، غير أنني كنتُ على يقين بأنّ أي اتصال بصديق ما أو بزوجتي أو ابنتي كان سيهدم ذلك الحصن المنيع. كنتُ سأستقلّ أول طائرة؛ لأغلب الشكوك التي قد تواجهني. وحمداً لله أنّ شبح الحياة الأوروبية المرهقة كان ما يزال يرافقني. خلال هذه الأعوام، لم يكن أحد في إيطاليا يعلم أين كنتُ. ولا أعلم إن انشغلوا باختفائي حقاً، لأنني كففتُ مع الوقت عن متابعة التلفزيون الإيطالي، ولم أشتر أي جريدة إيطالية.

لم أكن أقاوم في البدء، فأراني أجول بين الأكشاك بحثاً عن مجلة إيطالية، لكنني لم أندفع وراء موجة الحنين السخيفة للبلد الجميل. كنتُ أشهد ظهور أسماء إيطالية جديدة، فنحن أفضل الشعوب في إحداث الزوابع في الفناجين. حتّى أقلعتُ تلقائياً عن شراء الجرائد، وأنفقتُ أموالي في أشياء أخرى لا معنى لها. تشعر بشباتك حين تعي أنّ الأخبار لا تعنيك، فأنت رجلٌ مميّز، لا تقيم اعتباراً لأخبار الدنيا.

لكنني لم أقلع عن التدخين؛ إذ لم أشعر بأنني نقيٌّ أصيل. انعدم الفساد الذي اعتدتُ عليه، لكنه لم يختف إلى الأبد. يبقى مثل الحرّاس عند بوابة الملهى، ولا يمنعه شيء من الدخول حين ينصرف الزبائن؛ لينهال عليك بالكلمات، وأنت وحيدٌ وسكران. قد يختفي الفساد، ولكنْ؛ بشكل نسبيّ. إنها مسألة وقت، اللهم إلا إذا جاء الموت قبل أوانه.

في أول سنتين لي في البرازيل، كنتُ أقضي الوقت على الشاطئ، على موعد متواصل مع الذكريات؛ في ناتال. موقع جميل على تلك المياه الغامقة؛ حيث تمرّ آلاف الأسماك الأطلسية الخيالية. لطالما رغبتُ ببيتٍ على البحر، ولم تكن أجرته باهظة. غرفتان مع شرفة، تطلّ على المحيط. بإمكانك أن تصبح ثريّاً في المكان البعيد، عليك أن تنتقل إليه وحسب.

كانت النساء تقترب مني بلباقةٍ، لم أجدها إلا عند قمل الفندق اللعين. وكانت هذه مناسبة؛ لأبدو رجلاً غامضاً، يرفض العروض الجنسية السخية

والمجانية. كنتُ أرفض الذكور المثليين أيضاً، كانوا يجهلون أنني مرهق. وفي غضون شهرين، حصلتُ على شهرة الرجل الضبابيّ الزاهد. فالمرء حين يرفض التمتّع بالنعم التي تجود بها الجنة البرازيلية، فهو إمّا مجنون، وإمّا زاهد. وبما أنني لم أكن أتصرف كالمجانين، فَعَدّوني تلقائياً مواطناً إيطالياً من أتباع الدالاي لاما. وحظيتُ بثقتهم ما إن بدأوا يقتربون مني؛ كي أعطيهم نصائح لمعاناتهم. من السهل أحياناً أن تخدع الكائنات البشرية. حتّى المحتالين البرازيليين. عليك أن تقوم ببعض التصرفات الحاسمة؛ لتحصل الخديعة. لم أكن اعتيادياً بالنسبة إليهم، وهذا يكفي لتحيط بي هالةٌ من الضباب.

إنها مسألة منطق: كلّما امتنعتُم عن الحديث مع الناس، اقتربوا منكم أكثر، وانهالوا فوق رؤوسكم كحبّات العنب. التبعيّة مريحة أكثر من الاعتماد على النفس، لكنها مملّة جداً.

كان يكفيني ادّعاء أنني أقرأ المستقبل، فيصدّقوني على الفور. هكذا يولد السَّحَرَة والدّجّالون وأطباء النسوية المزيّفون. يرتجلون خفايا الأمور، ويصدّقهم الناس؛ لأنهم ليس لديهم ما يخسرونه. البشرية مؤسّسة اجتماعية، تظنّ دوماً أنها على شفير الهاوية، بينما هي تعيش الحياة ليس إلا. يخلطون الرتابة بالكارثة. وهذا خطأ شائع، لكنهم يقعون فيه عاجلاً أم آجلاً، بمَن فيهم الراهب التبتي والممثل الإباحي. انعزلْ عن البشر، ترَ كيف يلتفّون حولك مثل النار الموقدة في ليالي السمر؛ لأنهم فضوليون، يتوقون لمعرفة كيف تعيش منعزلاً، ليس لأنهم يريدون تقليدك في هذا. قطعاً. فهم يريدون الحياة بكلّ ما فيها. يبتغون أولاداً، لم يستطيعوا إنجابهم، وأموالاً، لم يعرفوا كيفية الحصول عليها، ونساء، فشلوا في إغوائهنّ، وعلاجاً لأمراض، لم يُشفوا منها، وأزهاراً ذبلت بين أيديهم، يريدون تحقيق مواهبهم التي لم يعتنِ بها أحد، يريدون اتباع الآخرين بأيّ ثمن. هذه الرغبة في التقليد سرّ وجودهم ومعناه. يحضّرون غاياتهم، ويخططون لمشاريعهم، وهذا ما يجعلهم مثيرين للشفقة.

إنهم كالبغال في آخر عمرها، يتخذون قرارات حربية، وسرعان ما يستسلمون لمصاعب الحياة. ينظرون إلى مستقبلهم بتفاؤل، كأنه نصب أعينهم، في حين أنّ مستقبلهم هاجر إلى كندا. يستخفّون بالتأثيرات البدائية بغية التميّز، ثمّ يشعرون بالأسى مع مرور السنين. ويقعون فريسة للسَّحَرَة الجدد الذين يقولون أشياء ليس بإمكان أحد أن يثبت مصداقيتها، حتّى لو كان الله بذاته. ولكنهم مرغمون على تصديقها؛ كي يبقى الأمل على قيد الحياة.

من بين الغرائب مثلاً هنالك امرأة توسلت إليّ؛ كي أشفي كلبها المصاب بشقيقة نصفية قاتلة. يبقى تشخيصها لمرض ذلك الحيوان لغزاً كبيراً، لكننا نخترع الآلام؛ كي نملأ فراغ أوقاتنا. لم نعد نكتفي بالقليل من الرخاء إلا إذا ارتدى الرخاء قناع عاهرة فتّانة. عليهم أن يصرخوا الرخاء في وجوهنا، كما يفعل الجنود في تحية العلم. يبدو الرخاء خدعة حين تخيّب العاهرات آمالك، ويخلدن للنوم؛ ليتركوك وحيداً، تفكّر أنّ الرخاء يتجسّد في كأس ماء عند الصباح.

لا نعدّ أنفسنا قادرين على فعل أي شيء. فالجميع يحلم بالشواء على الشاطئ والنكاح الطويل قبل أن يحصل على الرخاء. وهذا هو الالتباس الكبير. تشوّش أذهاننا تربية الشوارع، وكي نعوّض نصف الحقيقة، نفضّل أن نموت بسرطان البروستاتا على الرحيل فجأة بذبحة قلبية. حين تكون معافى، تتعرض لنوبة آمال قاتلة، ولا تهدأ إلا إذا هشّموا رأسك وخصيتيك بالمطرقة.

بدأتُ أفهم أنّ حياتي الجديدة ستخلو من المغامرات، بالمعنى التقليدي للكلمة. سأخوض نوعاً جديداً من المغامرات، قوامها الروتين الذي لم أكنِ أعرفه، تكرار ممتع لحركات بسيطة، فراغ واسع، يشعرني بالسلام مع الكون والأشياء المحيطة التي تعدّ قليلة في البرازيل، لدرجة أنها مدعاة فخر لهذا البلد. لا ملحقات، تسبّب لك الشرود أو الشعور بالحماقة. كنتُ أنام في الحادية عشرة ليلاً، وأغطّ في نوم عميق مثل الأطفال المهذّبين. أتناول الفطور في الصباح الباكر، كأنني في فندق. الحياة الهادئة جذّابة بما لا

يوصف. تحرّك الستار، وتبدأ نهاراً جديداً جميلاً، تهاجمك الروائح دون أن تؤذيك. تقوم بنزهة، ثمّ تتناول الكالاماري، وفي المساء، تتناول ما زاد من الكالاماري. تستغرب من أن لا شيء يحدث. تحضّر القهوة على مهلٍ، وتشربها حتّى القطرة الأخيرة دون تعجّلٍ؛ إذ لا شيء عليك القيام به. تنكفئ للقيام بطقوس يومية. تستحمّ ببطء، تحدّق في جسدك عبر المرآة لساعات. تعتني به، كما لم يخطر في بال أيّ طبيب رياضيّ. تعشق ثناياك وتجاعيدك، تكتشف المسام، وأدقّ تفاصيل البدن. العزلة رفيقة درب أمينة، أو شريكة، كما كنا نقول في ملاهي ميلانو الرائعة والمروعة. كم تردّدتُ إلى ميلانو في الماضي، ولو طُلب مني؛ لكتبتُ أكثر من سبع روايات عن مغامراتي الفظيعة في تلك المدينة.

تخطّط لأشياء تافهة، كأنك تخطّط لثورة. تشعر أنك قمتَ بعمل عظيم حين تذهب لشراء عدسة مكبّرة؛ كي ترى الزغب عن قرب. قضاء الوقت ببطء شديد يعيد إليك التواصل مع جسدك. تتلمّس يدك، وتقول بدهشة: هذه يد، وليس أداة للّمس فقط. يا لها من معجزة، تستحقّ الإعجاب!.

ثمّ تنتابك السعادة حين تظهر أعراض الحمّى، في حين كانت تزعجك في السابق؛ لأنها تعرقل حياتك المسعورة. تتحول الحمّى إلى مضخّم لنقاط الضعف والقوة. الحمّى، في العزلة، تجعلك تبكي، لكنه ألمٌ تحرّري أقوى من الأسبرين.

أن تشعر نفسك مثل القطط التي تعيش بهناء؛ لأنها لا تهتمّ بشأن أحد، لا تبحث سوى عن الوضعية المناسبة على الأرض. إنّ القطط مقيتة لهذا السبب؛ لأنها حلّت المشكلة دون أن تعرفها. وهذه ميزة، من الصعب أن يحصل الكائن البشريّ عليها.

كنتُ أقضي ساعاتٍ، وأنا أنظر إلى الناس من النافذة. البرازيليون لا يعرفون معنى العجلة، وهو طبع راسخ عندهم؛ حيث ترتفع نسبة البطالة.

يتميّز البرازيل عن البلدان الأخرى بهذا الأمر؛ إذ يسيطر البطء على حركاتهم حتّى تظنّ أنهم باتوا تحت سيطرتك. أستلقي على الأريكة، وأدرس المناورات بين الشبّان والفتيات. وأضحك من كلّ قلبي، كأنني رأيتُ هذا المشهد من قبل. يستحوذ الجنس على رؤوسهم، ويأملون، عبر ممارسة الجمباز، أن يعشقوا، ويستمتعوا، ويضحكوا، فلا يشعرون بالوحدة. كمّيّة الأمل التي يضعونها في الجنس لا تُضاهى. نسبة الأدرينالين مرتفعة في أجسادهم، وقد تؤدي وظيفتها لدقائق معدودة، ثمّ يهيمن الكسل على حركاتهم من جديد.

لكنّ الشاطئ يُشعرك بالملل على المدى الطويل. تستمتع به في البداية حتّى ينال صوت الأمواج المتكرّر على نفسيّتك، لا سيما حين يشتدّ عليك الأرق. حتّى مراقبة الفتية الذين يلعبون الكرة، ويعدون بمستقبل أوروبيّ زاهر، يقضي عليك تدريجياً، ويشعرك بالحزن. فواكه البحر المدهشة وحبّات البطيخ العملاقة تصبح بلا طعم بعد أن كانت توفّر لك رعشةً الرخاء. لا يمكنك قضاء حياتك كلها قبالة البحر. فالبحر في الشتاء يجعلك عاجزاً عن مصالحة الطبيعة الهمجية. تلك الريح العاتية تصفع وجهك، والمظلة لا تنفعك حين ينهمر المطر بشكل أفقي. سوء الطقس في البرازيل أسوأ منه في آيسلندا. يرتفع الرمل بلا رحمة، ويغشي عينيك، ثمّ يُتلف أظفارك، ويتغلغل بين زغب ذراعيك. ليس بإمكانك أن تقارع الخوف الذي يأتي به المحيط الأطلسيّ في الشتاء. ولستُ من محبّي المناظر الطبيعية، أحبّ أن أبقى حيث يتعب البشر، ويموتون، وأحبّ أن أتنقّل كالغجر من مكان لآخر. ففي النهاية نحبّ التغيير لغاية التغيير ليس إلا، ولا ينبغي أن نزعج اللّه بتحرّكاتنا البائسة.

وهكذا انتقلتُ إلى ماناوس، المدينة الكبرى في قلب الأمازون؛ حيث لا تهبط الطائرات التجارية الإيطالية. وهذا عاملٌ في غاية الأهمّيّة؛ لأنني بتّ أشعر أنّ ناتال باتت بلدة إيطالية صغيرة. لكنني سرعان ما فهمتُ أنّ حياتي ستتعقّد بفعل كائن، لا يُستهان به.

هنا في ماناوس، يتعايش الناس مع الصراصير، سواء كانوا محافظين أم متحرّرين. صراصير ضخمة وقبيحة، تبدو كالكلاب الممشّطة. لونها الأسود اللامع يُذكّرك بالكرة رَقْم ثمانية في لعبة البلياردو. تدبّ القلق بطريقة اختفائها المبرمج. الصراصير تعبر الشارع بعد التأكّد من خلوّه، تنظر إلى اليمين وإلى الشمال؛ كي تتجنّب الموت تحت السيارات. صراصير ماناوس بناةٌ حقيقيون في غاية النشاط والهمّة. تتنزّه في كل الأحياء بسرعة أولمبية، وليس بإمكانك الاعتياد على وجودها أبداً.

خفتُ منها في أول يوم وصلت فيه إلى ماناوس، وبقيتُ أخاف منها طيلة ثمانية عشر عاماً قضيتُها في البرازيل. تعيش معك خلف السرير، وتستحمّ في مغسلتك. تضحك مثل رجال المافيا حين تصادف المبيدات، تشربه كالخمر بلا مكسّرات كل ساعة. وهذه إحدى معاركي الخاسرة التي أخوضها بمفردي، فالسكان الأصليون يتعاملون مع المشكلة كأنها غير موجودة. يتجاهلونها، وكم أحترمهم في قدرتهم على تجاهلها، ويحافظون على فوقيّتهم ونبلهم في لا مبالاتهم بطبقة الصراصير البروليتارية.

بعد عدّة أسابيع من السؤال هنا وهناك، تعلّمتُ حيلة ما. وضعتُ تحت السرير أربعة أوانٍ مليئة بالماء؛ كي أصدّ تقدّمها إليّ. ولكنْ؛ هيهات. كانت الصراصير تنظر إلى المشكلة بكل برودة أعصاب، تحلّل أسبابها بمنطقية وحرفية عالية، ثمّ تحلّها في غضون ثلاث ثوانٍ. يا لها من حالة صعبة، لا يسعك حيالها سوى البكاء، وتفتح فمك متعجّباً. ولكنْ؛ حذار أن يقفز الصرصار، ويقع في فمك، فإنه قادرٌ على هذا أيضاً. كانت الصراصَير تغطس في الوعاء، تسبح على ظهرها، ثمّ تتسلّق على أقدام السرير. بوسعها أن تفعل أيّ شيء، الصراصير مدجّجة بعند لا يُقهر، تمارس كل الرياضات. ما هذه الحشرات اللعينة؟ لا أعرف، ولكنني واثق أنّ الزنوج سينسحبون من دورة الألعاب الأولمبية إذا ما تمّ قبول صراصير ماناوس فيها. صرصار ماناوس بمثابة الله دون منازع.

إلا أنّ أكثر ما يثير الدهشة هو ضخامة الصراصير. صراصير ماناوس كأنها صروح، تتجاوز مفهوم الحشرات إلى فصيلة القطط. تبهرك دوماً، كأن تعيش في حديقة الحيوانات، ورغم هذا لا يمكنك أن تعتاد على الزرافة، أبداً. الزرافة لغزٌ غامضٌ بالنسبة إلى الزرافة نفسها. والشيء ذاته ينطبق على الصراصير. تفاجئك دوماً بالأشياء ذاتها. سرعتها تصيبك بالقشعريرة مثل محطّم الرقم القياسي في الجري على مستوى العالم.

وغالباً ما يحدث اللقاء الحميميّ في الليل، الصرصار فوق أنفك. لا يعطيك الوقت للقفز عن السرير؛ لأنه أسرع من الفهد بكثير. يجعل منك ألعوبته، ويذكّرك دوماً بأنك لا تستطيع إلحاق الهزيمة به؛ إذ من المستحيل أن تفوز بسباق ضدّ السرعة نفسها. تتعجّب أنك لم تمت بنوبة قلبية، بينما يكون قد وصل إلى بيت السيدة في الطابق الأعلى، بسرعة النجوم الهاوية. تنهض؛ لتبحث عن هذا الكائن المنيوك، لكنك لا تجد له أثراً. فتهمهم بترنيمة وثنية، تستنجد فيها بالأشباح والعفاريت. قضيتُ حياتي في ماناوس، وأنا أطرح السؤال ذاته: أين يكون الصرصار؟

وقد تسحق أحد الصراصير، لكنك لا تشعر بالرضا، فأنت تعلم جيداً أنك لم ولن تحلّ المشكلة. تقتل واحداً؛ لتجد نفسك أمام مائة. لا جذور لشيء في الأمازون سوى لتلك الحيوانات المريعة والنباتات المتسلّقة. حين تنام، تنفجر الكوابيس، وأنت تهذي بأن الصراصير تباغتك من كل جانب. تراهم في الحانة، يلتصقون بالبيرة، ويشربون النخب. تراهم في المطعم يأكلون كل شيء حتّى لتجسبهم أسياد الأرض، ويزحف البشر على أطرافهم الأربعة بطريقة غبية، لا تضحك عليها الصراصير أنفسها.

الصراصير في ماناوس هي التي تعفو عنك، وليس العكس. إنها نشيطة كالنحل، سريعة كالفهد، محتالة كالثعلب، حسّاسة كالنمل، جائعة كالنسر، وحذرة كالسنجاب، ولا تنام أبداً. أبداً. أقسم لكم بهذا. لم أر صرصاراً نائماً في حياتي. ليس للصراصير وقت للنوم، تريد غزو العالم، وقررت أن تبدأ هذا

التوسّع الحتميّ من حيث أعيش أنا الآن، في الطابق الثالث من شقّة في حي لا اسم له من مدينة ماناوس. هذا هو معقلهم قبل أن ينفّذوا سلسلة من الانقلابات العسكرية في أرجاء العالم. تريد أن تدخل التاريخ، ولكنْ؛ دون نشر الخبر في الجرائد ولا الظهور على التلفاز. إنها كفرقة ماسونية. ليس لديها وقت للعبث مثل الضباع وأبناء آوى، فمشروعها كبير جداً.

الوسواس الآخر هو الرطوبة.

إذا تحدثتُم مع أحد هنا عن معنى "هبوب الريح"، فسيعتبركم مجانين، أو كائنات آتية من كوكب آخر. لا يفهمكم؛ لأنه لم ير الريح تهبّ، ولا حتّى عن طريق الصدفة. وكيف لها أن تهبّ وهي محاطة من ملايين الأشجار الأمازونية الباسقة بارتفاع خمسة وثلاثين متراً. يظلّ الأكسجين متسمراً في الفراغ، ولم تتغير الأنفاس هنا منذ حقبة الديناصورات. لا وجود إلا للرطوبة والصراصير وأجمل النساء على الأرض. في الماضي، جاءت بعثة من الألمان بحثاً عن مادة الكاوتشوك، والبرازيليات أيضاً. فحسنّوا النسل بأعينٍ زرقاء، وقاماتٍ طوال. وهذا حال النساء في ماناوس اليوم. أجمل مشهد في العالم. الغبي المغفّل وحده يظنّ أنهنّ مكافأة عن الصراصير والحرارة اللزجة. هذا ليس صحيحاً؛ لأنهن كالآلهة، لا يمكنك النظر إليهنّ أكثر من ثلاث ثوانٍ، وسرعان ما تدرك أنك أصبت بعقدة الدونيّة. عددهنّ كثير، يمشين في شوارع المدينة، على مدار الساعة، غير واعيات لسطوة جمالهنّ. تجدهنّ في الخارج ليلاً؛ لأنهنّ لا يقدرن على النوم بسبب الرطوبة والصراصير. لو كان للكمال وجودٌ، فهو ليس إلا النوم في غرفة مليئة بنساء ماناوس. جمالهنّ مدفونٌ وسط طبيعة خيالية ووعرة، يحبسن أنفاسك إلى الأبد. تنظر إليهنّ، فتروي ظمأك، وأنت واثق من عدم استطاعتك الحصول على أيّ منهنّ. فالأعمال الفنية لا تتعرّض للاغتصاب، لا يمكنك أن تلج قضيبك في لوحات كارافاجو مثلاً. كلا، هذا لا يعقل. الكمال لا يُمسّ أبداً. ربّما يفضي بك مباشرة إلى الانتحار. وقد تستغربون أنني أتحدث عن لوحات المتاحف، لكنني أعرفها جيداً بفضل دروس فونسيكا، رحمها الله.

عليك أن تتخذ الحيطة في ماناوس من النساء والصراصير، وإن قمتَ بنزهة، فاحذر من ثعبان الأناكوندا وأسماك البارانيا والعناكب السوداء وحشرات أخرى لم يصل إليها العلم بعد. أدغال ماناوس هي حرب الله ضد الإنسان. منازلة بلا تاريخ. ففي الأمازون فقط عرف الإنسان قيمة الصديق، وضرورة الصداقة. تكفيك لسعة من ذيل تمساح؛ لتودّع الحياة الدنيا. حينذاك، عليك أن تطلب من أحد أن يغلق نعشك جيداً، وإلا جاءتك تلك المخلوقات الخرائية السوداء لمرافقتك هناك أيضاً. عرفتَم مَن أقصد بها طبعاً.

دفعتني ضراوة هذه المدينة الفريدة أن أبحث لنفسي عن صديق عزيز. صدّقوني، فحين تحرمكم الصراصير من النوم، وتقطع الرطوبة أنفاسكم، وتعدم فيكم النساء الرغبة، فحينها أنتُم في مساس الحاجة إلى صديق يواسيكم، ويقف إلى جانبكم.

وكان صديقي يُدعى ألبرتو. إيطاليّ من أنجري، أقذر ضاحية في العالم، يعيش هنا منذ زمن بعيد، وخلافاً عني أراد أن يخاطر بحياته، فتزوج إحدى تلك الإلهات المحلية بطول متر وخمسة وسبعين سنتمتراً. وهو أقبح رجلٍ في الكون، تبدو قدماه كحاملة الرافعات، بوسعه أن يحرّك أبنية بأسهل ما يكون.

تعرّفتُ إليه هكذا. كنتُ في حانة، أشرب القهوة على إحدى الطاولات بصحبة ستة صراصير حين رآني هذا الرجل البدين والمكتنز والمضغوط مثل حجر الإسمنت المسلّح، وراح يصرخ كأنه في حفلة غنائية:

«سحقاً للآلهة! إنه طوني ب!»

أسعدني أنّ شهرتي وصلت إلى أدغال الأمازون. التفت نحوي جميع البرازيليين الذين كانوا في الحانة، وظلّ المجنون يصرخ: «سحقاً للآلهة! ألا تعرفون مَن هذا أيها الزنوج؟ إنه أحد تجلّيات الله. إذا غنّى هذا الرجل تسجد الأشجار. هل فهمتُم، أيها الأوغاد؟»

نظروا إليه، كما ينظر المرء إلى الفراغ الرهيب. لم يكن بوسعهم أن يدركوا الأمر، حتّى أمسك بذراع شاب، وأمره بطريقة مهينة: «اذهب، واشكر هذا الإله العظيم الذي يغنّي أفضل من سيناترا». وحينها ضاق البرازيلي ذرعاً، فأخرج سكيّناً بسرعة خيالية، وصوّبه نحو كرش ألبرتو المفلطح.

لابدّ أن تعرفوا أنّ ألبرتو فقد أربعة أصابع، ثلاثة من اليد اليمنى وواحدة من اليسرى؛ لأنه عمل أيضاً كدليل سياحي في الغابة الأمازونية؛ حيث قد تفقد حياتك كلها إن لم تحسن التصرّف مع الحيوانات.

ومع هذا، استطاع ألبرتو أن يصفع وجه الشاب بيده اليمنى دون أن يقيم اعتباراً لتلك السكين، فحلّق البرازيليّ حتّى ارتمى عند قدميّ؛ ليمسح بجسده بقايا البيرة الليلية من على البلاط الأملس، واصطدم بالباب كطائرة ترتطم بالجبل. أفضل ما في المشهد أنه سحق ستة عشر صرصاراً دفعة واحدة. أما سكّينه؛ فصارت بيد ألبرتو. وفي تلك اللحظة، نهض الجميع عن الطاولات الرثّة، أربعة عشر برازيلياً، لا يوصى الاقتراب منهم مهما كانت الظروف. راحوا ينظرون إلى ألبرتو بإصرار، لا يُطمئن البتة. رمى ألبرتو السكين أرضاً باشمئزاز، كأنه يقول: وإن كنتُ وحدي ضد أربعة عشر رجلاً، فإنني لن أواجههم بالسكّين!

يتصف ألبرتو راتو بكل شيء عدا الخسّة. رفع أصابعه الستة، وقال بثقة لم أسمع مثلها في حياتي، حتّى من زعماء المافيا الأكثر جبروتا: «الآن سأمزقكم إرباً إرباً، مهما كنتم، أربعة عشر منيوكاً، أو أكثر».

لم أصدّق ما رأته عيناي، وما سمعته أذناي، فنطقت الفكرة التالية: «افعلها، يا صديقي!»

وأشعلتُ سيجارة روثمان خفيفة؛ كي أستمتع بالمشهد الذي كان سيزلزل الحانة. فكان واضحاً أننا بصدد مشاجرة العصر. أمّ المشاجرات.

أرجوكم، لا تدّعوا الثقافة والتمدّن والحضارة، لا تدّعوا التهذيب، وتقفوا ضد الطبيعة. فالمشاجرة رائعة، بغضّ النظر عن كل شيء. أجمل من مطارحة الغرام مع أي حسناء وعاهرة. ومَن يدّعي عكس ذلك، فإنه مريضٌ نفسياً، لن يُشفى حتّى لو كان فرويد طبيبه الشخصيّ.

المشاجرة جميلة جداً. عظيمة.

استغربتُ كيف ارتبك أولئك الرجال من وعيد ألبرتو. وربّما قالوا لأنفسهم: ليس من الصواب أن نجابه رجلاً، لا يكترث لأربعة عشر برازيلياً، قد يفتكون به. ولكنْ؛ سبق السيف العزل، فلا عودة إلى الوراء في هذه الأجواء الشيّقة. تجمّعوا قرب بعضهم بعضاً. وقلتُ لنفسي: هذا لا يُعقل، لعلّ ألبرتو يخبّئ رشاشاً في سرواله، أو ستصل فرقة مدرّعة من أصدقائه في الحال. لكنني أخطأتُ. كان بمفرده، هو وأصابعه الستة.

لم يكن لشيء أن يقف في وجهه، حتّى ولو كان الله جلّ جلاله، حتّى ولو حُكم عليه بالسجن المؤبد. كانت إرادته تملي عليه أن يمسح هؤلاء عن الوجود، كما سحق صديقهم الصراصير. كان مغواراً؛ إذ ليس لديه ما يخسره. وأنا أشعر بالضعف أمام الرجال الذين ليس لديهم ما يخسرونه. أتكهرب، كأنني ابتلعتُ كيلو من الكوكايين دفعة واحدة. أبكي وأضحك متأثراً بجبروتهم.

هذا النوع من الرجال يسبّبون الإعياء حقاً، ولكنني خلافاً لبقية الناس لا أتعجب بالعادة، لا أعيش الحالة كمشكلة. لا أتكيّف مع الدنيا، ولهذا أنا وحيد. الآن عثرتُ على مَن يغيّر حالتي. هذا الشيطان ألبرتو راتو، المولود في أنجري، بلدة كأنها الخاتم المفقود بين الشمبانزي والإنسان، أنجبت كثيراً من الكائنات على شاكلته. لا يؤاخذوننا سكان أنجري. فهذا ثناء، وليس هجاء.

اندلعت أمّ المشاجرات، كما في الأقاصيص الخيالية. ولو طلبوا مني اثني عشر ألف دولار لرؤية هذا المشهد، لما توانيتُ. أحمد الله أنني رأيتُه

مجاناً. وتأثرتُ بما رأيتُ، كأن ترى أعظم لاعب كرة في العالم، أن تقرأ أعظم كاتب في العالم، أن تدرس حركات أعظم نجّار في العالم، أن تسمع أعظم مطربي العالم. اغرورقت عيناي بالدموع. ليس لدى هذا الرجل مصاعب؛ ليجتازها. إنه في ملعبه الطبيعي، خلافاً لأولئك البرازيليين. إنهم في حاجة إلى عامل الزمن الذي لا يهديك إياه أحد أبداً. ولا سيّما ألبرتو راتو، وإلا وقع بين هؤلاء الوحوش، وكسروا عظامه.

عليكم أن تتخيّلوا الآن كرة عملاقة تدور في الحانة، كأنها ترقص بسرعة، لا توصف، بعنف همجي، وتطرح أي شيء تلتقي به على الأرض، ما عداي؛ لأنني انبطحت تحت الطاولة بصحبة الصراصير. تلك الكرة الحية هي ألبرتو راتو بلا شكّ.

لا يفرّق راتو بين الأشخاص والأشياء، يقتلع كل شيء بفوضوية هائجة. يمحو ما يجد أمامه: رجال وفناجين قهوة وقناني البيرة والتقويم المعلّق على الجدار والنادلين والصندوق وصاحب الحانة والصراصير والراديو القديم والنقود وأكياس التنظيف والكراسي والطاولات والكؤوس والفوانيس ومروحة تناضل عبثاً ضد الرطوبة. كل شيء. كل شيء. كل شيء.

إنه إعصار أقوى من كل الأعاصير. قنبلة نووية.

في غضون ثماني عشرة ثانية لا وجود لأي شيء، سواي أنا صديقه الجديد. مشهد لا يوصف خصوصاً أنّ راتو يبلغ الخمسين عاماً، وليس فتيّاً. وبعد رياح الموت هذه، لا أسمع شيئاً، لا إساءة، لا شتيمة، لا أنفاس متعبة. هذه لحظته الجادّة التي لا توحي بطبعه المزوح والطيّب. لحظة يركّز فيها حياة طويلة مليئة بالشرود والتسكّع. يحبّ أن يعمل كما ينبغي، أن يحطّم الحانة بما ومَن فيها. إنها مسألة مبدأ. يريد أن يذكر التاريخ هذه الحانة بما قبل مرور راتو وما بعده. كلّ إنسان له طريقته في إعلاء رايته فوق صفحات التاريخ. وألبرتو اختار هذا المكان؛ ليدرسه التلاميذ في المدرسة.

لم يعد أيّ شيء في وضعية مستقيمة. الرجال والأشياء على الأرض. بدا المكان أكبر من قبل، مثل البيت الفارغ حين تشتريه، وتجده صغيراً، ومخيباً للآمال حين تملؤه بالأثاث الخرائي. هنا حدث العكس. أرفع نظري نحو ألبرتو، أقرأ في عينيه تعبيراً عن الرضا رغم الدم الذي يسيل من كل أنحاء جسده.

لكنه لا يعير اهتماماً لدمه النازف أبداً! عاد إلى طباعه الهادئة والمرحة. إنه يبتسم، وهذا بديهيّ بعدما أنجز عمله على أكمل وجه. أقلّ ما يمكنني فعله أن أرافقه إلى المستوصف؛ كي نضع حدّاً للنزيف. فيقول لي بشعور رقيق لا يُنسى، كأنه فتىً يذهب إلى بيت رفيقه بعد نهاية الدوام المدرسي: «ما أجمل أن ترافقني. شكراً، يا طوني!»

ثمّ يضع يده بيدي، كأننا أصدقاء منذ الطفولة، ويقودني على طول الطريق المدبّبة، ودمه يقطر خلفنا. لا يكترث لما حلّ به، بل نسي في لحظة واحدة تلك المجزرة التي ارتكبها منذ لحظات. تحول إلى رجل آخر. لأن الحياة لا تنتظر. وخلافاً لأي كائن بشري آخر في حالة موازية، لا يعود إلى موضوع المشاجرة، لا يستذكر، لا يعلّق. كأن شيئاً لم يكن بالنسبة إليه، بينما بوسعي التحدث عمّا حدث سنيناً. راتو يرى الأمر روتينياً، لا بدّ أن ينساه؛ لأنه حادث مزعج قليلاً. يسألني عن مشاريعي الغنائية في المستقبل، ناسياً أن يسألني عمّا أفعله في ماناوس، كأنه من الطبيعي جدا أن يلتقي واحداً مثلي في حانة منسية كتلك.

حين نصل إلى المستوصف تبدو الأمور أكثر تعقيداً، ممّا توقّعنا. هنالك زحمة كبيرة بانتظار الطبيب الوحيد في الخدمة. ثمّة أطفال مهشّمون ونساء حبلى وكهول على وشك الموت.

حالة لا تحدث حتّى في الكونغو خلال المجاعات والحروب الأهلية. لكن ألبرتو يقوم بحركة أضحكتني، كلّما تذكّرتُها. يشير إلى ممرض متأمل، ويقول له بسموّ إمبراطوري: «لقد وقعتُ في كومة شائكة من القشّ، ولي الحقّ في الأولوية».

يعجز الممرض عن الردّ. هذه المرّة الثانية التي يقضي فيها ألبرتو على العنصر الأساسي: الزمن. وبينما يحاول الردّ، يفتح ألبرتو الباب على مصراعيه، ويقبض على الطبيب حرفياً بأصابع يده اليمنى، الإبهام والبنصر، ويقوده دون نقاش إلى حلّ مشكلة النزيف واقتلاع الشظايا. يركّز فيه الطبيب، ويقول بحذر: «علينا أن نسرع قبل أن تموت من النزيف».

فيجيبه ألبرتو بهدوء وتواضع ليس له مثيل في التاريخ البشري:

«إنّ رجلاً مثلي لا يموت من النزيف، يا دكتور».

إجابته هي الحقيقة التي لا تقبل الشك. نتبادل النظرات أنا والطبيب، وتجول الفكرة نفسها في رأسينا: «إنّ رجلاً مثل ألبرتو لا يموت.».

بدأ الطبيب يعقّم الجراح، ويزيل الشظايا برفق من ذلك الجسد العملاق. فعلاً إنّ هذا الرجل لا يموت، هذه هي الحقيقة. ها هو يوارب عينيه بخفة، كأنه يوشك على إنجاب فكرة عظيمة، لكنه يلتفت نحوي، ويقول بوداعة البابا بيو التاسع: «والآن، يا طوني، حدّثني عنك بالتفصيل».

هذا الرجل يسبّب لي الجنون. أقع في غرامه فوراً. ولو لم يكن متزوجاً بأجمل امرأة في ماناوس، لما ترددتُ من الزواج به، قسماً بالله. وكنتُ لأستغني عن كل أفكاري العنصرية والغبية تجاه المثليين. لا أستطيع تجميع أفكاري، هذا الرجل يفتّنني. كلّما حاولتُ تكهّن أقواله وأفعاله يفاجئني بعكسها تماماً. إنه زوبعة من الأشياء الجديدة والمباغتة. لا شيء يقف في طريقه، لا أحد بإمكانه أن يعرقله، هذه طريقته الخاصة في البقاء رغم كل المخاطر التي قد تخدق به. إنه دوماً على حقّ. يفعل ما يريد دون بذل أي جهد. أما ما يدوّخني؛ فهو أنه ليس طموحاً، لا يستغلّ قدراته. أريد أن أتزوّجه، لن أكرّر كلامي هذا.

بالمحصّلة، هكذا تعرّفتُ على ألبرتو راتو. كانت بداية مدهشة لصداقة

عظيمة، وكنتُ أمثّل في حياته الهدوء والسكينة. لم يكن يأخذني معه في جولاته الليلية الفظيعة، التي تجمّد القلب، وتضفي صفة الموت الوشيك على حياته التي يعيشها بكل سعادة. لم أعد شاباً؛ ليستغلّني في مهالك الليل البرازيلي، وكنتُ سعيدا لهذا؛ لأنني تابعتُ حياتي المللة والرتيبة، كما كنتُ أريدها. بالمقابل، كان راتو قريباً مني على الدوام، لم أقع في مشكلة إلا ووجد لي حلاً لها، كان على أهبّة الاستعداد لنجدتي بأصابعه المبتورة دون أن ينتظر أي مكافأة على شهامته. لا تستخفّوا بالأمر. جرّبوا أن تقضوا ثمانية عشر عاماً في شقّة رديئة مطليّة بظلام الرطوبة البرازيلية، ومؤثّثة بالصراصير الهاربة من الحرب الفيتنامية.

ومن إحدى صفات ألبرتو العظيم أنه يتعامل مع ماناوس، تلك المدينة الخرائية التي لا يعرفها أحد، كأنها باريس، أو نيويورك. يراها بلا حدود، ويتغاضى عن الفروقات الواضحة. بل يعتقد أن الفروقات تكمن في أذهان الناس فقط. قد يظنّ أحدهم أنه متعصّب، أو مجنون، لكنه حكيمٌ، وعلى صواب؛ إذ تصبح ماناوس بين يديه مثل باريس في الزمن الجميل، مثل نيويورك في الثلاثينيات، مثل روما في فيلم دولتشي فيتا لفيلليني. تتدفّق طاقاته مثل النهر في كل المدينة. وحين يمرّ في الشوارع، يتحوّل البؤساء إلى سعداء والكسالى إلى فضوليين، وهذا ليكسبوا رضاه. غالباً ما يكون ألبرتو موضوع أحاديثهم: «أين ذهب؟ ماذا قال؟ ماذا فعل؟».

يا له من مشهد عظيم. أذكر حين ذهبتُ بصحبته إلى مسرح الأوبرا في ماناوس. يظهر في بيتي مثل الحشرة التي تدخل من النافذة، متأنّقاً كالسفراء، ليقول لي: «هيا، يا طوني. ارتدِ برّتك الرسمية. سنتحرّك في غضون نصف ساعة».

أنظر إليه وسط كومة من الثياب المغسولة. أعلم أنه سأفعل ما يريد، فالصراع معه نتيجته الهزيمة المؤكدة، لكني أجرّب: «عمّ تتحدث، يا طوني؟ برّتي الرسمية تركتُها في نابولي».

لا يتنازل حتّى لو أبلغوه بموته بعد سبع دقائق. يُهرع إلى الهاتف، بينما يشعل سيجارتين من المارلبورو. يمدّ إليّ إحداها، ويتصل برَقْم ما، ويقول بالبرتغالية: «كارلوس، آتني ببزة رسمية إلى بيت طوني حالاً. حاول أن تكون هنا خلال عشر دقائق».

كلمة "حاولْ" تعني أن يصل قبل مرور عشر دقائق. جيد جداً.

كارلوس، مساعده في الأدغال، هنديّ بلا ذراع، يصل إلى بيتي خلال ستّ دقائق بإحدى عشرة بزّة رسمية. وكالعادة، لا يعطيني راتو الوقت لأفكّر. كما حين كنا في المدرسة، أنت تفكّر في حل المعادلات الرياضية، وزميلك الشاطر يملأ ورقة الامتحان. هكذا تُعجب بألبرتو الذي يثبّت ساقيه في المستقبل دون جهد أو إرهاق.

ألبرتو يأخذ البزّات الرسمية. يقبّل خدّ كارلوس بودّ، ويأمره بالانصراف. كارلوس يبتسم بسعادة. يلتفت راتو نحوي كلاعب جناح الرغبي، ويقول لي:

«جرّب هذه البزة، بينما أشرح لك شيئين أساسيين عن طبائع الهنود».

لديه طبعٌ متعجّلٌ، لدرجة أنه لا يركّز كل تفكيره على التعجّل. إنه حيوان رفيع المستوى. أسلّم أمري لله، وأرتدي البزّة، فتليق بي، بينما يشرح ألبرتو:

«اسمع، يا طوني، حين تشعر بالضجر من هذه الحياة، بإمكانك أن تحتقر أيّ شخص تريد. بمَن فيهم أنا، لأنني أتفهّم الوضع. ولكنْ: هنالك صنف من الناس لا ينبغي أن ترتكب بحقّهم هذا الخطأ. أبداً. وهؤلاء هم الهنود الذين يعيشون في الأدغال. ليست مسألة ثقافية، أو مناهضة عنصرية، أو احترام أقليات في طريقها للاندثار. هذا الكلام السخيف لا ينطلي عليّ. المسألة أبسط من ذلك بكثير. الهنود لديهم قوة عضلية، لا نحلم بالحصول على نصفها. وبما أننا ليس لدينا جيوش وأمم تساندنا، فعلينا أن نأخذ كامل حذرنا. أنت تعتقد أنني ملاكم قوي، ولكنني أؤكد لك أن كارلوس،

بذراع واحدة، أو بدونها، إن أراد، بإمكانه أن يطرحني أرضا كخرقة بالية بعد أن يمسح بي الأرض. حين تشبّ على تربية العقارب والأناكوندا ترى الرجال نملاً. بوسعهم أن يسحقونا بكعوب أقدامهم الحافية. بينما كنا نحن نتدرّب على التمارين السويدية في الصالة الرياضية الباردة، كان هؤلاء يتقلّبون على بساطٍ من التماسيح. هل أنت معي؟».

كنتُ أركّز في كلامه دون أن أفهم لماذا يخاطبني بصوتٍ منقبض جالساً القرفصاء. ثمّ ألتفتُ إليه، وأفهم. بينما كان يتحدث، كان يأخذ مقاساتي؛ ليثني البطال الطويل، بسرعة الأفاعي وهدوئها. ويتحدث بصوت منقبض؛ لأنّ فمه مليء بالإبر التي لا أعرف من أين حصل عليها. الزمن يسبقنا، ونحن لا نعلم، وكم من مرّة في الماضي ظننّا أنّ السهرة بدأت لتوّها في حين كانت توشك على نهايتها. انتهى الدرس عن قبائل الهنود، يقف على قدميه، ويقرر:

«انزع عنك البنطال؛ كي أثنيه».

أفعل وأتوسل: «أين علينا الذهاب؟»

يستغرب من كلامي كأنني الرجل الوحيد في العالم الذي لا يعرف أين علينا الذهاب: «يا إلهي، يا طوني! علينا أن نذهب إلى مسرح الأوبرا. سيغني كارل هرمان شومان للمرّة الأخيرة في حياته الفنية. تعرفه، أليس كذلك؟».

«ألم يكن ممثلاً؟».

«كم أنت جاهل بأمور كثيرة! سأشرح لك الآن، يا طوني».

يجلس على كرسي، وهو يحمل خيطاً وإبرة؛ ليثني البنطال والسيجارة تتدلّى من بين شفتيه. ألبرتو يعرف القيام بأيّ شيء. مثل الصراصير والنساء الإيطاليات من زمن غابر. أنظر إليه منتشياً، أكتشف مزاياه التي لا حصر لها، ويزداد إعجابي به. في آنٍ واحد، تتكامل الخياطة بالتدخين والكلام: «كان

شومان من أعظم مغنيي الأوبرا الألمان، وكان الرجل الأكثر وسامة أيضاً. رجلٌ بملامح وحشيّة ألمانيّة. بعد أن نجح في التمثيل توقّف عن الغناء الأوبرالي، لكنه قرّر أن يحيي حفله الأخير هذا المساء».

«وهل تتمنى التعرّف إليه؟».

«بل هو الذي يتمنى التعرّف إليّ. وعلينا أن نقوم بواجب الضيافة».

قد يظنّ أحدٌ ما أنه كان يكذب، لكنني لا أشك بكلامه لوهلة. قال الحقيقة كما هي، ولا أستغرب لأنّها ليست المرّة الأولى التي يزرونا فيها رجالٌ عظماء؛ ليطرحوا أوّل سؤال على استعلامات الفندق: «هلا عرّفتُموني على ألبرتو راتو؟».

بعد أربع دقائق، يسلّمني بزّة رسمية، تبدو مصممة لأجلي من خياط محترف في نابولي أو لندن. أرتديها، وأسرّح شعري أمام مرآة الحمّام، وهو ينتظرني على العتبة حاملاً كأس نبيذ أحمر، أتى به من المطبخ دون أن يطلب إذني. ينظر إليّ، ويقول بحيادية: «ما تزال رجلاً وسيماً. صدّقني. كل ما قاله الآخرون في الماضي لا يساوي شيئاً».

إنني أتأثر بكل كلماته، يحطّم فؤادي وخصيتيّ. وهو يعلم ذلك لأنه، دون أن ينظر إليّ، يقتطع من ورق الحمّام، ويقترب مني؛ ليمسح عن عينيّ دمعة، لم تسقط بعد. ثمّ يهمس في أذني، بسعادة تنافس العريس الريفيّ في ليلة زفافه: «علينا أن نصل حالاً إلى هناك. بيلا تنتظرنا.».

أتأثر مرّة أخرى، فاسمها يصيب الرجال بحالة هذيان: بيلا. زوجة ألبرتو. التي تكاد لا تخرج من البيت؛ كي لا تلّوث جمالها.

وهل تظنّون أننا نسكن الكهوف؟ أنتم مخطئون. ماناوس أيضاً فيها طبقة برجوازية غنية، ولها أسلوبها وطريقتها الرفيعة. هاهم يملؤون المدرج الضخم بثياب أنيقة، ويدردشون ريثما يبدأ الحفل. نصل أنا وراتو على متن سيارته،

بينتلي رمادية اللون، والتي قادها كارلوس بذراعه الواحدة. وسرعان ما نجد جمعاً من رجال الأعمال والنساء المبهرجات الجميلات، يتقدمون للسلام على ألبرتو الذي يبادلهم التحية بحرارة. لا يتعالى. يتصرف بوديّة، لكنّهم لا يصلون إلى مستواه. وأتساءل ما الذي يفعله راتو وسط الأدغال حين أرى الكهول يلهثون لإلقاء التحية عليه. ما نوع الأعمال التي يقوم بها؟ يبدو زعيم دولة عظيم الشأن، بينما كان جاثياً على ركبتيه منذ نصف ساعة؛ ليأخذ مقاسات بنطالي. يا له من لغز! لا يُعقل أنه مجرّد دليل سياحي كغيره في الأدغال. ومن الوارد أن لا أحد من الحاضرين يعرف سرّه. لم أتعرّض لمتاهة مثل لغز ألبرتو. لا أجد أيّ إجابة على أسئلتي الكثيرة. مجرّد فرضيّات عامة، وأغلبها خاطئة. ربّما سحر الجميع بطريقة عيشه، كما سحرني في الحانة أول مرّة تعارفنا.

وعلى حين غرّة، تتوقف الحياة. تظهر الإلهة من قلب المدرج، بفستان أسود في غاية الروعة. بيلا. بيلا. بيلا.

بيلا راتو، وقبل أن تتزوج هذا الديناصور كان اسمها بيلا كويمبرا دوس سانتوس. بيلا جميلة، اسم على مسمّى. تشبه العذراء سوى أنّ بشرتها سمراء. وهذا الفستان يُظهرها كملكة جمال العالم، وليست ماناوس وحدها. بل تصل سمعة جمالها إلى المجرّات الأخرى. لا تعريف لهذا الجمال. أسمع الآن نبضات القلوب تتسارع بشكل مخيف. قلوب الجميع، رجالاً نساءً. قلبي وقلب ألبرتو أيضاً. حتّى الببغاوات الملونة تتلمّس أعضاءها التناسلية على الأغصان. النساء الحاضرات يتأرجحن بين الحسد والإعجاب. سحرها يطغى على كل شيء. الأيادي تتعرّق لاحتمال مصافحة يدها. فترى الجميع يمسحون أياديهم الدبقة بثيابهم. ألبرتو يهمس في أذني متأثراً: «أرأيتَ ما أجمل الفستان الأسود؟ لقد صمّمتُه وخيطتُه بنفسي. هل يعجبك؟».

أذكر أنني أومأتُ موافقاً، إذ كنتُ مندهشاً من سير الأمور على هذا النحو.

عيناها الزرقاوان كعيني فهد طيّع وصعب المراس في آن. تنزل السلّم بحياء يضاعف هالة الشبق التي لا يرتقي إليها خصب الخيال. يتداعى العالم على وقع خطوتها.

تصل إلينا أنا وألبرتو بعدما اجتازت ألف عين جاحظة. تبتسم لي؛ لأنها تعرفني. أرى فيها والدتي. كانت والدتي جميلة في صباها. فيدفعني ضميري لأنحني وأقبّل أناملها التي تبدو كنبوءة دينية.

راتو ينظر ويبتسم بسعادة؛ لأنني لم أخيّب ظنّه بلباقتي. بيلا تبتسم لقبلتي، ثمّ تتوجّه إلى الحدث الأهمّ: زوجها راتو العظيم. تنظر إليه. ينظر إليها. وجميعنا ننظر إليهما. طولها مترٌ وسبعة وسبعون سنتمتراً، وهو يقصرها بعشرين سنتمتر. يبتسمان كأنهما في حالة بوحٍ للمرّة الأولى، مع أنهما متزوجان منذ سنواتٍ طويلة. تنحني بيلا، ببطء الثعبان ذي الأجراس قبل لحظة من ابتلاع الفأر، فتبرز مؤخرتها الممشوقة بإتقان كأنها شمسٌ في المغيب. تلتهب عُقد الذكور، وأكاد أسقط أرضاً. لكن بيلا الأرستقراطية، لا تنحني بدافع التحريض، إنما مرغمة على الانحناء؛ لتصل إلى فم ألبرتو. وبالفعل يتبادلان القبل. أربع دقائق كاملة. مثل المراهقين بين السيارات في مرآب ما. تعبث بتسريحة زوجها، وتقرص أذنه الضخمة، وتداعب أصابعه المتبقّية، بينما تكاد تبتلع لسانه. وهكذا يتحوّل الضفدع إلى أمير على مرأى المدينة كلّها. يغمرهما الحاضرون بالتصفيق الذي يتتابع تدريجياً. لم أر في حياتي تصفيقاً على قبلة حتّى في صالات السينما. لكنّ هذه القبلة تستحقّ التصفيق فعلاً. يرفع راتو إصبعيه علامةً على النصر دون أن يسترجع لسانه من فم زوجته. تنتهي القبلة، فيستردّ الأمازون هدوءه. يعودان إلى الواقع الذي لا يبدّد تلك الأنوثة الماجدة. يصيح ألبرتو بالحشد: «فلندخل؛ كي ننعم بطيب الموسيقى.».

الأوبرا حدثٌ جدّيّ في ماناوس، وليست للتسلية. لطالما أنعشت النقاشات، وأضرمت المشاجرات بين الأصدقاء والمثقفين والنسوة

المنزليات. لكنّ هذا المساء، استطاع حفل شومان أن يضع الجميع على وفاق. حتّى الصراصير.

ندخل جميعنا إلى المسرح، وننتظر ظهور شومان القدير من الباب العلويّ. اهتزّت الشمعدانات، وأومضت الفوانيس، واشتغلت الميكروفونات بصوتٍ ثاقبٍ، قضى على مسامع المدعوين من أرذل العمر. صوّب الجميع أنظارهم نحو ذلك الباب الذي سيظهر منه، بين لحظة وأخرى، مطرب المطربين، نجم السينما الألماني الذي أدّى بصوته بعض الأفلام الهوليوودية الشهيرة. لكنّ هذا السيناريو البليغ لا يحفّزني على معاودة الغناء. أنتشي للحظات الترقّب، لكنني لستُ شومان في النهاية. ولن أحظى بحفاوة كهذه أبداً. حين نبلغ عمراً معيناً، لابدّ أن نسمّي الأشياء بمسمّياتها.

وأخيرا يظهر شومان. شعره مبلّلٌ، استحمّ لتوّه، لكنّه لا يبدو على ما يرام. إنه يبذل مجهوداً فوق طاقة البشر، ناهيك عن إحماء حباله الصوتية، وهو في هذه السنّ. الشعب يحبس أنفاسه؛ لأنّ شومان فائق الوسامة، ماكر وخطير كالممثل الشهير كلاوس كينسكي.

يبقى واقفاً على العتبة، يلهث مثل ملك الغابة قبل أن يموت بنظرة نفّاثة، تخترق الجدران. شعره طويل بتسريحة عبثية، قبّعته عريضة بيضاء، وبزّته من الكتّان الأبيض، والعكاز عاجيّ اللون، تتكئ عليه سيرته الفنية الحافلة. له كاريزما بائع التبغ الخبير بأنواع السجائر. شومان لا يعرف أين يضع هذه الكاريزما الفائضة التي عمّت أرجاء العالم. يودّ الجمهور أن يتراكضوا نحوه، لكنهم يخشون أن يزعجوه. هذا هو المجد. أحبس أنفاسي. يا لها من سهرة عظيمة!

ثمّ يحدث شيء عجيب وغير متوقّع. ينقسم الحضور إلى صفّين، بتخطيط مسبق، ويركعون واحداً تلو الآخر باتجاه شومان. ألبرتو راتو يفعل الأمر ذاته، وبيلا أيضاً لا تقيم اعتباراً لجمالها الذي يفيض من فستانها الأسود. الجمال أيضاً يحترم الفن، يا إلهي!

أحني رأسي أنا أيضاً، وأسحق صرصاراً دون أن أعي ما يحدث. كنتُ أنتظر تصفيقاً حادّاً عند ظهور القدير، فإذا بي كأنني داخل كاتدرائية ما. لكنني استسلمتُ للتأثير، فاللحظة تبدو مهيبة. ألف شخص يطأطئون رؤوسهم دفعة واحدة. ثمّ عرفتُ أننا نؤدي طقساً روسياً، يحتّم الركوع أمام الممثل العظيم أو الممثلة العظيمة. شومان يقفز جذلاً ممّا يرى. يتأثر. فهذا أكبر إشادة وثناء حصل عليه خلال مسيرته الطويلة. أتفهّم مشاعره ودموعه. يمشي ببطء على طول البساط الأحمر وسط هذا الحشد الغفير من الخاشعين. لا نسمع سوى طقطقة عكّازه العاجيّ وكعب حذائه، بينما يهمس كأنّه البابا المهذّب: «شكراً ... شكراً ... شكرا لكم جميعاً.».

كالأطفال يبكي في نهاية مسيرته، يذرف الدمع ثمناً لهذا التبجيل. لن أبكي في حفلة اعتزالي، كونوا مطمئنّين. ينبغي أن نحافظ على كرامتنا، مهما كانت الظروف، حتّى لو كنّا نعترف في الرمق الأخير.

لم أكن قد رأيتُ شيئاً من هذا التقدير طوال مسيرتي الفنية، باستثناء حالة سيناترا. لم يركع لي الجمهور، إنما اكتفيتُ بأربع نساء مجنونات، أُعجبن بي جنسياً، وتبعنني إلى غرفة الاستراحة. لا أجرؤ على ربط مسيرتي بالنجاح. لم أكن قد عرفتُ النجاح أصلاً قبل أن أحضر هذه الحفلة. كلمة النجاح مرتبطة مباشرة بالله، صدقاً، بلا وسيط. أما أنا؛ فكنتُ أظنّ أن لي موهبة صوتية، لأنني لم أر شومان في حياتي. صدّقوني أنّ الموهبة من عند الله؛ لأنها حصرية ببعض الفنانين.

يجتاز هذا الرسول الألماني جموعنا الساجدة، ويتوقف قرب ألبرتو راتو. فينهض الأخير على قدميه. أنا وبيلا نرفع أعيننا، ونسترق السمع. شومان يعانق راتو بحرارة، وراتو يبتسم في وجه شومان.

«حدّثني عنك قائد أوركسترا، صديقٌ لي يقيم في روما، وروى عنك أشياء طريفة» شومان يتكلم بالإيطالية.

«قادة الأوركسترا يبالغون. إنهم مصابون بجنون العظمة، ويرغبون في العزف على كل الآلات» ألبرتو يقلّل من مديح شومان.

«هذا صحيح» يردّ شومان مبتسماً. ثمّ يعتدل مزاجه، فهو ينهي مسيرته الفنية، وليس حياته. ورغم اعتياده على التهاني والحفاوة، يقول بنبرة غامضة خجولة: «ما الذي أعددتَهُ لي هذا المساء، يا ألبرتو؟».

«أنا؟ لا شيء» يجيبه ألبرتو، ويثير دهشتنا كالعادة.

يستاء شومان: «لا شيء! كيف؟ ألم تفكّر في سهرة العشاء؟ أو حفلة على شرفي؟».

«لا» خير الكلام ما قلّ ودلّ.

نتبادل النظر أنا وبيلا بطرف العين، ونضحك في سرّنا خلف شومان العظيم الذي ترتجف يده؛ ليثبت لنا أنّه مغفّل. ثمّ يرفع صوته: «كيف لم تحضّر شيئاً؟ هل تسخر مني؟».

راتو يشعل سيجارة. أدرك أنّ القصة خطيرة وطويلة ومعقّدة. ينهض الحشد، وننتقل من جوّ مقدّس إلى آخر علمانيّ بلحظة واحدة. منذ ثلاثين ثانية، كنا نحتفي بالله، والآن قد ننقضّ على أطباق الحلوى، إن وُجدت، فهذا الرجل لا يعي مشكلة ماناوس التاريخية: الذهاب إلى المطعم بعد المسرح ليس من التقاليد المتّبعة هنا. فالمطاعم كلها مغلقة، ومن الوارد أنّ هذا المايسترو لن يقبل أن ينام بمعدة فارغة. عموماً. راتو يقذف الدخان، ولا يقول شيئا؛ لأنه لا يعرف ماذا يقول. وشومان قد يتغاضى عن أنّها المرّة الأولى التي لا يستمتع فيها بعد الغناء خلال خمسة وثلاثين عاماً، ولكنه لن يرضى ألا ينظّم له أحدٌ أي شيء بعد حفلته الأخيرة. يحاول كتم غيظه، لكنّ عينيه تقدحان شرراً، والعَرَق يتصبّب من رأسه.

«لا أصدّق ما أسمع! لابدّ أن هنالك خطأ ما. أين عمدة ماناوس؟».

«العمدة لم يأت. يعاني من داء البواسير. أوفدني لاستقبالك نيابة عنه. لا وجود لأي خلل» راتو يجيبه بهدوء.

يفقد كارل هرمان شومان السيطرة، فيقع عكازّه أرضاً. أكتشف في نفسي الفطرة على خدمة الناس، فألتقط العكاز، وأعيده إليه. يمسك به دون أن ينظر إليّ، أو يشكرني. لأنه يركّز في تحدّي ألبرتو. يريد أن يعرف إلى أين سيصل بعدم احترامه فائق العادة. أنظر إلى صديقي، وأرتجف. لأنه، وسط هذا الجوّ المشحون، يعقد حاجبيه، وهذا يعني أنه يفكّر في شيء واحد: المشاجرة. لطفك، يا رب! كل شيء يهون عدا أن يموت أكبر مطرب أوبرا في العقود الثلاثة الأخيرة لكماً ورفساً. لابدّ أن أتدخّل.

«فلنهدأ، يا سادة. إنني متأكد أننا سنجد مكاناً ما».

أتلقّى طعنة في الظهر من بيلا الجميلة التي تقحم نفسها؛ لتزيد الطين بلّة.

«أنا أرغب في العودة إلى المنزل، يا ألبرتو. أشعر بالتعب قليلاً».

شومان يكرهها، مثل أيّ مثليّ جنسي في العالم. لا يحتمل أن تتدخّل النساء في شؤون الرجال. فيقول بنبرة مشمئزة، لا يمكن السكوت عنها: «ومَن هذه المرأة؟».

يتجهّم ألبرتو. عليّ أن أهرب من هنا بسرعة صرصار عدّاء؛ كي لا أشهد على المأساة البشرية التي قد تنفجر بين لحظة وأخرى؛ لتدمّر سحر هذه السهرة الخالدة.

«إنها زوجتي» يزأر ألبرتو.

«قل لها ألا تتكلم في وجودي» يقول شومان، وهو يدير ظهره إلى بيلا، وينظر بفخر نحو الأعلى. لكنه لا يتحرك. قرر أن تخرس بيلا، وأن يجد له ألبرتو حلاً للمعضلة: يريد أن يتسلّى بعد الحفلة.

ابتعدتُ قليلاً؛ كي أرى ردة فعل ألبرتو بعد أن تجرأ أحدٌ على احتقار زوجته لأول مرّة في تاريخ زواجه بها. لا يفعل هذا إلا مجنون مستهتر. حتّى قائد القوات البرازيلية المسلّحة لا يفكّر بفعل هذا. لكن شومان فعلها. كما لو أنه قام بأبسط فعلٍ مناسب في الدنيا.

يتهيّأ لي ألبرتو، القادم من آنجري، كفلاح يفكّر بحلّ لمشكلته الأبدية في الزراعة والحياة: الحدود. أتخيّل البنكرياس والكبد والدماغ وباقي العضلات تتعرّض لهزّة أرضية في جسمه، بينما تنطلق السيالات العصبية من جهازٍ لآخر، وهي تصرخ: «استعدوا للحرب، أيها الرفاق. ثمّة عدوٌّ يهاجمنا. إنه فنانٌ ألماني. وربّما يكون نازياً. واسمه شومان». هذا ما يتضح على ملامحه الخارجية، يبدو مستعدّاً لمواجهة سرّيّة كاملة، فتخيلوا بمنيوك متعب ومدلّل في أرذل العمر.

يخطو ألبرتو إلى الأمام. أغمض عينيّ، وأحاول ذكر دعاء ما، فأخفق في هذا طبعاً. ثمّ يتغيّر المشهد كلّيّاً. تدخل بيلا على الشاشة؛ لتؤدي دور البطلة. ليست مجرد امرأة في غاية الجمال، بل إنها إنسانٌ، يتقن التصرّف في الظروف السيئة. تمدّ أصابعها الرقيقة إلى ذراع زوجها الثقيل، ثمّ تقول بصوتٍ مخملي، يقضي على جيوش من المراهقين الشهوانيين:

«ألبرتو. إنّ كارل هرمان شومان فنانٌ عظيمٌ، ويحقّ له أن يقول ما يشاء. سأبقى ساكتة شرط أن تنظّم له أمسية، لا ينساها».

شومان ما يزال يؤدي دور الفخور السعيد. يا له من أحمق! لا يعي أنه كان على وشك الموت بسبب تفصيل صغير ضدّ مَن أنقذ حياته الآن.

أتنفّس ملء رئتيّ، وأنا أرى صديقي يعود إلى الحضارة. كلام زوجته منزّل كأوامر أبيه. ينفّذ بلا نقاش. وفعلاً يلتفت إلى شومان، ويقول له بلطف: «لديّ مهمّة مستعجلة في أخطر فافيلا وسط الأمازون. ويسعدني أن أصطحبك لزيارتها، أيها المايسترو شومان».

يشمئزّ الممثل العظيم: «أنا أدخل إلى فافيلا؟».

«أجل، يا سيدي. أنت ستدخل إلى فافيلا؛ كي أريك الحدّ الفاصل بين الحياة والموت».

شومان يتأمل جدّيّاً. ثمّ يلتفت نحو ألبرتو راتو. ينظر إليه من عليائه. يبتسم، ويقول بنبرة واهنة: «أجل. هذا يعجبني». ثمّ يرمي ذراعيه على عنق راتو بمأسوية شكسبيرية نادرة، ويسأل جزعاً: «ولكنْ؛ أليس هذا خطيراً؟».

ألبرتو يبتسم، وينهي الموضوع: «لا يوجد أخطر مني هنا.».

سأقول لكم للمرّة الثانية، وبالفم الملآن: أريد أن أتزوّج هذا الرجل. ألبرتو راتو.

جلسنا في حانةٍ، لا تدلّ على أنها حانة، لا تدلّ على شيء سوى أحجار من الكلس الحيّ بلا أبواب. هذا مركز الحياة الاجتماعية في أكثر فافيلا ماناوس فقراً وخطورة. على الأرض ثمّة جحافلٌ من الصراصير، أكبر وأكثر من تلك التي تقتحم منزلي. تتسكّع بهمجية مثل فقراء البشر. تتبوّل أينما يحلو لها. وهنالك برّاد أفقيّ قديم معطّل، وليس فيه مثلجات، بل خنزير نحيف يموت ببطء. وباقي ما تبقّى يرمز للموت الحتميّ. الطاولة لزجة بفعل الرطوبة، قد تبقى يدك ملصقة فيها إذا وضعتَها. وهنالك طفل عارٍ يتغوّط في الزاوية. الصراصير تفسح له المجال، وتبتعد. صاحب الحانة، في الستين من عمره، جالس خلف الصندوق ورأسه الضخم بين يديه. جفناه أكبر بكثير من مساحة وجهه، يحاول أن يشاهد التلفاز المعلق كيفما اتفق. يتأبط مسدساً برّاقاً، وغير مرخّص. ليس لديه رغبة في شيء، ولا يتكرّم علينا بأيّ نظرة.

أنا وبيلا وشومان جالسون بلا حراك على الطاولة، أمام ثلاث قوارير بيبسي كولا، لا نشربها خوفاً واشمئزازاً. الرطوبة تعدم أنفاسنا. وفقر هذا الحيّ يخنقنا، فقرٌ شاقوليّ، لا قرار له.

ألبرتو ليس معنا. كان يقوم بمهمّته المستعجلة في الجوار. مهمّاته الغامضة كالعادة. شومان لا يتنازل عن استعلائه، وبيلا لا تشعر بالخوف. جمالها ونبلها الطبيعي لا يتوافق مع المكان إطلاقاً. يدخل رجلان في الثلاثينات. يحملان رشاشاً وحقيبة نسائية، لعلهم سرقوها منذ ساعات. شومان يقبض عكازه العاجيّ بين يديه تحسّباً. أحدهما يلاحظ وجود بيا، فتتجنّب هي النظر إليه. أنا أرتجف، لكن الرجل سرعان ما يحيد أنظاره عنها كأنه شعر بالحياء. بينما يواصل الآخر تفتيش الحقيبة. يخرج منها بطاقة عليها رَقْم هاتف، تذكرة حافلة، قلم كحل. يضع كل شيء في جيب بنطاله. يبحث عن محفظة السيدة. لا يجدها. سرق فقيرا مثله. يغمغم بشيء ما لا أفهمه.

في الخارج يهيمن السكون، لا نسمع سوى شخير بعيد. الفافيلا نائمة. لا أبواب أو نوافذ لأكواخ الصفيح التي يقطن فيها أفقر بني البشر.

تأخر الوقت. وشومان يتضور جوعاً، لكنه لا يبوح بهذا، ولو وضعوا الرشاش في رأسه. يخاف من قائمة الطعام. ومن جودة الطعام أيضاً.

يظهر راتو مستعجلاً، ويقول: «هل احتسيتُم المشروبات؟»

نهزّ رؤوسنا مع أننا لم نمسّ القوارير. يدفع ألبرتو الحساب، لكن صاحب المحل يرفض. لا يريد أن يقبض المال. هكذا بلا سبب. كل شيء له سرّه هنا.

ثمّ يقول ألبرتو: «فلنتنزّه قليلاً».

ننهض بصعوبة، فيما يحاول الرجلان توخّي أنظار راتو. الجدّيّة تهيمن من جديد. لا أحد لديه رغبة في المزاح. ولعلّ المزاح ممنوع هنا شرعاً.

نخرج في الظلام.

نعبر أكواماً من الوحل والصراصير.

يتلطّخ حذاء شومان الأبيض، لكنه لا يعترض.

نتقدم في ما يشبه الزقاق.

نختلس النظر إلى داخل البيوت؛ حيث لا أبواب ولا نوافذ.

نشعر بحرارة الجوّ القاتلة.

في زاوية ما، نصادف عاهرتين عاريتين ومريضتين.

وفي أخرى، نجد أماً، تحتضن طفلها المصاب بالحمّى، وتبلل جبينه بخرقة قماش قذرة.

الصراصير دوماً، أينما قلّبتَ وجهك.

نسمع صوت ضراطٍ جهير من هنا وهناك.

لا أحد يعلّق. لا أحد يضحك. لا أحد يفعل شيئاً. نمشي فقط. ببطء لا يشبه النزهة على أي حال. نشاهد كثيراً من النيام. مكدّسين فوق بعضهم كاللاجئين كالناجين من الغرق.

شومان يفكّر في أوشفيتس. في ماثوزن.

الوقت متأخر، أكرّر. ساعة الفجر تقريباً.

يمرّ حمارٌ. بمفرده. يعرج. لديه ساق أطول من أخرى.

نصل إلى ما يشبه ملتقى الطرق. أوسع بقليل من الأزقة السابقة.

يبزغ الفجر. نرى بشكل أفضل. ولم نتفوّه بكلمة واحدة.

تظهر أربع نساء أمامنا.

ثلاث منهنّ شابات، وواحدة عجوز. يمشين بصمت، وينظرن إلى العدم. يحملن علبة مثلثة صغيرة، مفتوحٌ أعلاها.

يوجد في العلبة طفلٌ رضيع. لكنه ميّت.

هذا هو الحدّ الفاصل بين الحياة والموت.

حين يغلبني الملل، أرتدي بنطال البرمودا، وأنتعل خفّاً رياضيّاً، وأذهب لزيارة ألبرتو في مكتبه الصغير المزوّد بما لا يُحصى من مراوح وأرائك جلديّة مريحة. أجلس أمام المنضدة، بينما ينهي أعماله الغريبة على الهاتف، وهكذا يحدّثني عن حياته العجيبة؛ حيث لا يعرف سالغاري وفيرن ماذا تعني كلمة "مغامرة" بالمقارنة مع قصص ألبرتو. كنتُ أزوره في المكتب ثلاث أو أربع مرّات في الأسبوع طيلة ثمانية عشر عاماً، ولم يكرّر على مسامعي الحكاية نفسها. حياته مثيرة ومتنوّعة، وتحظى بذاكرة صاحبها الذي لا يُقهر.

ما أزال في صالة الانتظار المليئة بقوارير الماء والكلورفورم. فيها حشرات ميتة منذ زمن بعيد في الغابة الأمازونية، لاسيّما عناكب الرتيلاء والأرامل السوداء. ورغم أنّ هذه الحشرات نهشت أصابعه، فإنه ما يزال يحتفظ بها، ينظر إليها كل صباح. "عليك أن تحترم مَن تسبّب لك بالأذى" هذا ما يكرّره ألبرتو عليّ منذ سنين، بابتسامة عريضة.

يتحدّر ألبرتو من عائلة، تعمل بالفلاحة، وانتقل إلى نابولي في سنّه العشرين، فاجتاحها كالرعد، أو كما الريفُ يجتاح المدينة غالباً. الفلاح مغبون في الريف فقط، ولكنْ: ما إن يكتشف المدينة، يستحوذ عليها ببساطة. يطبّق على أهل المدينة قوانين الدجاج والماعز. يحلّل نفسيّات السياسيين المعقّدين، كما يراقب كلابه التي تحرس الحظيرة. يا له من منطقٍ ظافر، يُحدث الفوضى، ويحوّل الحيوانات إلى بشر، والبشر إلى حيوانات. ألبرتو يعلم هذا بمفرده، ولا يراه لغزاً، وحين يحاول أن يقنع أحداً بكلامه، يكتفي بالمثال المحبّب إلى قلبه: آل كوزليوني في بالرمو. تلتزم الصمت حينها، وتفكّر في أنّ الجميع يطأطئون رؤوسهم تحت تهديد السلاح الناري، فيقرأ أفكارك، ويجيبك على الفور بسخرية قلّ مثيلها:

«ولماذا أهل المدن الخرائيين لا يحملون الأسلحة النارية؟ لديهم أسلحة بالتأكيد، لكن الفلاحين نزعوها منهم، وأدخلوها في أدبارهم. هذا كلّ ما في الأمر، يا طوني. حتّى الإجرام يتطلب رقيّاً وبُعد نظر، ولحسن الحظ أنه هكذا،

وإلا كان لدينا مجرمون أكثر ممّا لدينا الآن. وهنا يتدخّل الاختيار الطبيعي؛ إذ تجد المنحرفين المبتدئين مضرّجين بدمائهم في أماكن قذرة وسط أوراق ممزّقة وسرائر مرميّة. وهذا من حسن حظ المجتمع. إن كنا نرفض الانتهاكات برمّتها، فعلينا أن نقبل بمجتمع، يعمّ فيه الإجرام.».

تذكّرتُ شيئاً ما: «بخصوص السرائر، يا ألبرتو، هل تعرف لماذا يوجد الكثير من السرائر المرميّة قرب الحاويات في نابولي فقط؟ لماذا يغيّرونها هكذا غالباً؟».

يضحك. «وهل تحسبني لم أتساءل عن هذا؟ حين كنتُ شابّاً، منذ ثلاثين عاماً، شرعتُ أتقصّى عن المسألة، وسرعان ما قمتُ بصفقة أيضاً، وقبضت الكثير من المال. يا طوني العزيز، ما إن يموت أحد الناس حتّى يرمون سريره بعيداً. إنها عقدة نفسية، يظنّون أن الموت يبقى معلقاً بالفراش، مثل الطفيليات. وهل تعلم كم يموت من الناس باستمرار؟ الكثير الكثير. قم بجولة في المدينة، ولاحظْ كم من النسائج الزهرية والزرقاء على الأبواب التي تُنذر بمولود جديد. ومع كل ولادة هنالك موتٌ في مكان آخر. وهكذا اتفقتُ مع أحد الماسونيين على العمل. حصلنا على قائمة الموتى، وكلّما رحل أحدٌ، عرضنا على عائلته سريراً جديداً. وكنا نبيع من السرائر أطناناً.».

راودني فضول غريب. «عذراً، يا ألبرتو. الماسوني الذي تتحدث عنه هو...».

يقاطعني؛ لأنه لا يريد ولا يستطيع التحدث عنه، وينهي النقاش بحركة من إصبعيه. «أجل أجل. هو ذاك الذي تفكّر فيه، يا طوني».

أقول بتواضع: «هل بوسعي أن أسألك المزيد عن هذا الخصوص، يا ألبرتو؟».

«كلا، يا طوني، ليس بوسعك أن تسألني المزيد عن هذا الخصوص.».

أضحك، ولكنني لا أستسلم. «أنا لا أحبّ الثرثرة، يا ألبرتو، ولكننا هنا على بُعد عشرة آلاف كيلومترا عن إيطاليا. لن يسمعنا أحد، وكأنني فهمتُ أنك تعرف الكثير عن تاريخ بلدنا الجميل. ما رأيك؟ هلا عرضتَ عليّ مفتاح قراءة من حكمتك التي لا حدود لها؟».

«لا تتزلف؛ كي تحصل على المعلومات، فهذا ليس من طبعك. أنت ذكي».

«تعلم جيداً أنني لا أتزلف. لكنني أعدّك رجلاً حكيماً بالفعل».

«حسناً، سأرضيك. أنا أعرف الأحداث والأشخاص ووقائع الجرائم، والانتحارات المفبركة ورمي القنابل يمنة وشمالاً. أعرف كل هذا، ولكنك قلت لي إنك لا تحبّ الثرثرة، لذا: لن أطلعك على شيء.».

«لقد ندمتُ، يا ألبرتو. أنا أعشق الثرثرة. تابع».

«الأمر بسيط جداً، يا طوني. يُقسَم العالم إلى نصفين مثل الدراقة. نصف الأمم تطأطئ رأسها، وتعمل، في الحديد والنسيج والبيتزا، إلخ. عملياً نحن نتحدث عن نصف سكان الأرض الذين يحفرون الدراقة بكدّ، يُخرجون الحبّة، ويجمعون حصاد ألف هكتار. أما النصف الثاني؛ فيحصل على نصف الدراقة، ويأكلها بسهولة. لا يقوم هؤلاء بأيّ شيء منذ الصباح حتّى المساء. وإيطاليا تُعدّ من النصف الثاني، الكسول. لا تريد أن تعمل. فترى الطليان يقضون الوقت على الهاتف، ويلتقون في الصالونات، ويدردشون، ويشربون الكوكتيلات، ويتناولون الحلويات. وماذا يفعلون في أثناء ذلك؟ يثرثرون. إنهم محكومون بالثرثرة. لا يتقنون فعل شيء سواها. يبدؤون بالمواضيع العامة، ويملّون. ثمّ يتحدثون عن كسّ المرأة حتّى يملّون، فيتبادلون زوجاتهم، ويملّون، ثمّ يخطّطون لتأسيس شركة، لكنهم يتخلّون عن المشروع بسبب التعب، فيذهبون إلى المطعم، ويتحدثون عن الطعام حتّى يملّوا، وعندها تشدّهم النميمة للحديث عن أصدقائهم ومعارفهم والمشاهير إلخ، لكنّ هذا

لا يكفي، فالعاطلون عن العمل وقتهم فارغ، فماذا يبتكرون فيه؟ المؤامرة. يقررون أن يسحقوا هذا وذاك حتّى ينالِ منهم النعاس، وينامو بهناء بعد أن شغلوا نهارهم بالكلام. هل فهمت الآن كيف تتكوّن الألغاز الإيطالية؟ تتكوّن؛ لأننا ليس لدينا ما نقوم به. قرّرنا أن نقضي الحياة على أنها إجازة، ربّما لأننا محظوظون بشواطئ طويلة وساحرة.».

أنظر إليه بصمت مدّة طويلة. ينظر إليّ بوجهه الجلف، فتفلت منه ابتسامة، وهو يعلم أنني على وشك الضحك. يضيف: «لم أقنعك، أليس كذلك؟».

«لم يدخل كلامك حتّى في رأس قضيبي» أقول بكل صراحة.

«أعلم. ما العمل إذنْ؟ إنني لستُ سوى فلاح بسيط من آنجري، قرية لا يعلم بوجودها إلا الله. فعمّ تبحث عندي؟».

«ولم تقنعني بهذا أيضاً».

وبما أنّ المباغتة من طبعه، يقول ما ترتجف لسماعه يداي. يسند ظهره إلى الكرسيّ، يشبك ما تبقّى من أصابعه، وينظر إليّ بجدّيّة. «لكنك تعرف أنني قد أموت، إذا أقنعتك، يا طوني».

يطبق علينا الصمت. أستند أنا أيضاً إلى الأريكة. أشعل سيجارة روثمان. وأنفخ الدخان. أتأمل، وأسأل: «قل لي الحقيقة، يا ألبرتو، فنحن أصدقاء منذ ثمانية عشر عاماً. لطالما أطلعتني على أسرارك ما عدا السبب الحقيقي لمجيئك إلى البرازيل. سأحاول أن أتكهّن. أنت هنا؛ لأنك هارب. لو بقيتَ في إيطاليا، لقتلوك. لأنك تعلم أشياء في منتهى الخطورة والعجب».

اختفت الابتسامة اللطيفة من على وجهه للمرّة الأولى منذ أن عرفتُه. أراه متأثراً. وهذه حالة جديدة لم أرِه يمرّ بها يوماً.

يخرج منديلاً أسود، يمسح عينيه المبتلتين، ويهمس بنبرة متقطعة من

هول الحنين: «لقد كنتُ بخير في إيطاليا. كنتُ بأفضل حال في بلادي. على المرء أن يبقى في بلاده، يا طوني».

وأخيراً عرفتُ ما يعانيه هذا الرجل. ربّما عليّ أن أغادر البرازيل؛ لأعبر إلى الحياة الثالثة، ليس قبل التأكد ممّا آمنتُ به دوماً: أنّ كل إنسان لديه معاناته. الآن وقد فهمتُ ما يعانيه ألبرتو، أشعر بأنني أنجزتُ مهمّتي الصغيرة.

إنه يجهش في البكاء. أنهض، وأذهب لأضع يدي على كتفه. يقدّر حركتي. يضع يده على يديّ. نحن صديقان حقيقيان. يرنّ هاتفه بغتةً. يرفع السمّاعة، ويسمع ما يقوله المتصل لعشر ثوانٍ، ثمّ ينفجر في ضحكة، تستمرّ لأربع دقائق متواصلة.

«أيها المنيوك اللعين، كيف حالك؟ لقد أضحكتني كثيراً. انتظرني، عليّ أن أودع صديقي» يضع السماعة بين فخذيه، ويقول كأن شيئاً لم يحدث: «كم جميل أن نلتقي دوماً، يا طوني. تعال إليّ غداً، أرجوك».

«حسناً» أقول بينما أفكّر في غرابة أن يقول "أرجوك". لكن ألبرتو راتو هكذا، يغطس في الخراء بالمتعة نفسها التي ترافق سباحتنا في مياه النبع النقيّة. إنه رجل لا يُهزم، ألبرتو راتو.

وبينما أفكّر أكتشف أنّ اسمه تامّ حتّى يزلزل الشكّ ذهني. أتوقف عند العتبة، بينما يقهقه على الهاتف مع صديقه. تلمع الفكرة في رأسي. ألتفت فجأة بعينين تبرقان بالذكاء وأقول:

«عليّ أن أخبرك بشيء، يا ألبرتو».

يستأذن من المتصل أن ينتظر لحظة، وينظر إليّ: «قل لي، يا طوني العزيز».

«ألبرتو راتو ليس اسمك الحقيقي. إنه اسم مستعار؛ كي تتخفى بشكل أفضل».

كشفتُ أمره. فتح فمه مستغرباً من بصيرتي التي لم يكن يتوقّعها من مطرب في النوادي الليلية. والآن عليه أن يقول شيئاً ما، لا يمكن أن يتركني هكذا.

يطبق يده على السماعة؛ كي لا يسمع المتصل شيئاً، يتنهد، ويجيبني: «لقد فهمتَ هذا أخيراً، ها؟ لكنني أحسنتُ اختيار الاسم، أليس كذلك؟ كم أنا عبقريٌّ وفنّان. أجل، يا طوني، أنا لا أدعى ألبرتو راتو».

«وما اسمك - إذنْ - يا ألبرتو؟»

يعيد السماعة إلى أذنه: «سأتصل بك بعد قليل، يا جيجي المحترم».

يُقفل السماعة. ينظر إليّ. يتأمّل. لم يقرّر بعد أن يفشي الحقيقة بأكملها أم لا. لا يثق بي رغم مرور كل تلك السنين. يتّخذ نبرة لطيفة وأبوية:

«طوني، إن أخبرتُك باسمي الحقيقي قد تموت بذبحة قلبية. هل تفهم هذا؟ لأنك حتماً قد سمعتَ باسمي الحقيقي حين كنتَ في إيطاليا، أو قرأته على صفحات إحدى الجرائد مراراً. أنا أيضاً كنتُ مشهوراً، لكنني لسوء الحظّ لم أكن فناناً، كما كنتَ أنت. اسمي الحقيقي اسم رجل ميت. هكذا يظنّ الجميع، لكنني أعلم أنك آمنت بأنّ ألبرتو راتو لا يموت منذ أول يوم تلاقينا فيه. وكنتَ على حقٍّ في هذا. لأنني حيٌّ. في البرازيل، وليس في إيطاليا. ثمّ إنّ وقت الحقيقة ولّى. الحقائق تُكشف في حينها، وإلا فسدت كالحليب. سأبقى دائماً ألبرتو راتو بالنسبة إليك. ألا يكفيك هذا؟».

«لا. لا أكتفي بهذا. لأنك خدعتني طيلة ثمانية عشر عاماً، وخنتَ صداقتنا، يا ألبرتو.»

أثور مثل الأولاد. هذه أول مرّة نتواجه ندّيّاً وبصراحة. وهو يبدو متألماً.

«لم أخدعك، يا طوني. لقد قدّمتُ عرضاً عظيماً بأداء ألبرتو راتو. لا يمكنك نكران هذا».

«لا أنكر أنّ العرض كان عظيماً. لكنه عرضٌ، وليست الحقيقة التي تحكم الصداقة بين أيّ رجلين، يا ألبرتو ... أو مهما كان اسمك اللعين».

أين أنتُم الآن؟ على الكرسيّ؟ على السرير؟ على أريكة عند الشاطئ؟ على مقعد في المترو؟ تشبّثوا جدّيّاً، واثبتوا أينما كنتُم جالسين، وإلا وقعتم في هاوية عميقة. اسمعوا.

ينهض ألبرتو متأهّباً كالنمر. إنه غاضب، لكنّه لن يتعرّض لي بأذىً. سيفعل ما هو أسوأ من الضرب واللكم. سيضعني في مواجهة أبشع طيف مرّ في حياتي. سترتجف ركبتاي من رعشة البرد في أكثر بلاد العالم حرارةً. كنتُ قد نسيتُ حقاً ما معنى رعشة البرد في هذا الصيف المستمرّ. وها هي كلمات ألبرتو تنهال عليّ، بعد أن يشعل سيجارة طبعاً:

«الحقيقة، يا طوني؟ تتحدث عن الحقيقة؟ وهل أخبرتني أنت بالحقيقة؟».

أشعر بالإعياء، قسماً بالله. أتلعثم: «أنا؟ طبعاً...».

«لا تتفوّه بالترهات، يا طوني».

«ماذا تقصد؟».

«أقصد بياتريشا، تلك المرأة التي ارتبطتُ بها منذ سنوات بعيدة.».

تضيق أنفاسي. كأنني التهمتُ كيلوغراماً من الكوكايين. «وما المشكلة؟ حدثتُك عن بياتريشا. كنتُ أحبها. كان حباً عظيماً. ثمّ انفصلنا. ما المشكلة؟».

يرفع صوته مثل وعيد الله، مع أنه لا يهدّدني في الواقع، بل يبدو صديقاً حقيقياً بالفعل.

«انفصلتُما، يا طوني؟ هل أُنت متأكد؟».

«أجل، انفصلنا. لماذا؟» أرتعش وأفقد التواصل مع البرازيل وبقية الكوكب.

«لأنكما لم تنفصلا. هي كانت تريد أن تنفصل، أما أنت؛ فلا. ولهذا السبب قتلتَها. عن سابق إصرار وتعمّد. أنت مَن قتلها. وكنتَ محظوظا بأنّ الشرطة لم تنتبه إلى أنها ماتت مغدورةً، ولم يلاحقوك. دفعتَها إلى أسفل السلم. وأنت تعلم، ولم تخبرني بما ارتكبت يداك. هذه حقيقة أخرى، يا طوني. نحن متعادلان الآن.».

أصرخ مثل المجانين: «وكيف عرفتَ ذلك؟»

يعلو صراخه صراخي. لأنه متفوّق عليّ في أي شيء.

«أعرف ذلك؛ لأنني لست ألبرتو راتو. لأنني حتّى عام ١٩٨٥ كانوا يأتون، ليخبروني بسقوط تفاحة عن شجرة ما في إيطاليا. أنا خازن الأسرار، يا طوني. الكثير من الأسرار. وهكذا وقع سرّك بين يديّ أيضاً، عن طريق الصدفة».

«تبّاً. لم يكن أحدٌ يعلم بهذا. أنا فقط».

«وأنا أيضاً. وأحد الشهود. لم يتكلم أبداً. ولن يفشي سرّك، كن مطمئناً. لن تنتهي في السجن بتهمة القتل. استمتع بشيخوختك، يا طوني. ولكنْ؛ لا تحدّثني عن الحقيقة؛ لأنّنا جميعاً لدينا من الأشياء ما لا نخبر بها أحداً، كما ترى».

مرّغ وجهي في التراب. إنه رجل لا يُهزَم؛ لأنه غامض.

لستُ مندهشاً، بل مصدوماً. كلماته مرّغت رأسي في كومة من الصراصير، وفي الوقت نفسه، يخلّصني من ذلك السرّ الثقيل. كم كنتُ ساذجاً، لم أنتبه إلى وجود عالم من الأسرار يتحرّك فوقي. منذ ثلاثين عاماً، وانا أخفي هذا السرّ الشنيع. أجل، إنني قاتل. وامرأة أحلامي تعيش في عالم

آخر، أنا مَن نقلتُها إليه. ما مرّ صباحٌ خلال ثلاثين عاماً إلا واستيقظتُ على فكرة واحدة: «اليوم يأتون لاعتقالي؛ كي أقضي بقية عمري في السجن.» ثمّ لا يحصل شيء. يمرّ اليوم. يوماً بعد يوم.

كان بوسعه أن يطمئنني منذ ثماني عشرة عاماً.

أين أنت، يا بياتريشا؟ ما الذي فعلتُه بحقّك، يا بياتريشا؟ لماذا لا نستطيع العودة إلى الوراء؟ لماذا تقضي لحظة غضب واحدة على حياتنا كلّها؟ ثمّة ما هو أسوأ من السجن، وهو العيش بانتظار دخول السجن كل يوم. كطيفٍ يقبض على أنفاسك أكثر من مرّة خلال اليوم. لماذا يُكتب علينا الندم؟ لماذا؟ كان بوسعكِ أن تعيشي حياة عظيمة، وأنا مَن منعك عن ذلك. أستحق الموت طبعاً. لكنني أضعف من مواجهة الموت. إنني شرير جداً. ومغفّل أيضاً. فلنقل الحقيقة، يا بياتريشا، كنتُ ولا أزال غبياً. لست سوى مهرّج فاشل. هكذا كنتُ، وهكذا سأكون، يا بياتريشا. لقد خدعتُ الجميع، وخدعتُك. تخلّص مني الآخرون بأسهل ما يمكن. وأنتِ - أيضاً - أردتِ التخلّص مني، لكنني لم أسمح لك بهذا؛ لأنني كنتُ واهماً، لا تُغتفر ذنوبه. كنتُ أفكّر في نفسي فقط؛ لأنني كنتُ واثقاً من أنكِ ستجعلين مني رجلاً عظيماً وخالداً. ولكنني رميتُك من أعلى السلّم. ومات الجمال حين رحلتِ. وموت الجمال لا يطابق جمال الموت إطلاقاً. لأنك خُلقتِ للحياة. ليقع في غرامكِ جميع الرجال.

وها أنذا أموت شنقاً بالحقيقة. بوسعي الآن أن أعانق المخدرات مرّة أخرى كالطفل الذي يقبّل جبين أمه قبل أن ينام. حرّرتني الحقيقة من سجونها. أنظر في وجه ألبرتو في صمت ضروريّ، يحول دون نقاش لا طائل من ورائه. يعرف كلانا أننا وصلنا إلى النهاية. رُبَّ حقيقة تدمّر الصداقة فعلاً، ولهذا يُفضّل السكوت في بعض الحالات.

الآن أجهش بالبكاء.

ألبرتو يبكي معي.

أعانقه.

وداعاً، يا ألبرتو راتو. لقد كنتَ رجلاً، لا يُهزم فعلاً.

وأنا لن أنساك أبداً. أبداً.

-١٢-

المجهول يُربك الأذهان

آنا أوكسا

وفجأة يصل المجهول.

الثامنة والخامسة والأربعون صباحاً. الرطوبة تصل إلى نسبة مائتي درجة مئوية. الجدران البيضاء في المطبخ؛ حيث أوشك على الموت، مكسوّة بمياه آسنة أقرب إلى الرغام. الشمس لا تتسلّل إلى هذا الجانب من الشقّة، كما تفعل في الجانب الآخر، لكن هذا لا يمنعني من التعرّق، كأنني في حمّام بخار فنلندي. إنني منهك، وأشعر بالمذلة من هذه الحرارة الشنيعة كبقية البلد. أرتدي سروالاً، تفتّح لونه من كثرة الغسيل. لم أر لوناً فاتحاً إلى هذا الحدّ. أحاول عبثاً أن أحمل قطعة خبز بالمربى إلى فمي الجافّ والرطب في آن واحد. باختصار، إنني أتناول الفطور. وفي أثناء ذلك، أنتبه إلى شيء منقطع النظير في البرازيل: أرى، في الزاوية، صرصاراً يمشي بخمولٍ، كأنه عجوز بريطانية. ليس جريحاً، ليس مريضاً، إنما يعاني مثلي من الحرارة التي تخطّت مستوىً تاريخياً. قال الراديو والتلفزيون البرازيلي كل شيء بوضوح: أيها المواطنون، ابقوا في منازلكم، وعانقوا المراوح، ثمّ صلّوا للبقاء أحياء، وأنتم واقفون وإلا تصبّبتُم عرقاً حتّى الموت. بالمحصلة، نحن نغرق.

نتصوّر جوعاً إلى الهواء، فتخيّلوا أن نحلم بالانتعاش.

لابدّ أن أضيف أنّنا في الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر ١٩٩٩. لم أنجح يوماً في القضاء على تعاسة آخر يوم في السنة. ومع هذا، أفكاري

واضحة. سأبقى في البيت، أنام في الحادية عشرة ليلاً؛ لأستيقظ غداً في ألفية جديدة. لا تُخيفني الألفية الجديد. كأنّها حدثٌ اعتياديّ.

في هذا السياق الجهنمي، أسمع طرقات على الباب. لا جديد. في هذه الساعة تأتي خادمة التنظيف، تحاول أن تجعلني حياً ما استطاعت. وكي تسدي لي هذا المعروف الذي لا جدوى منه، تستقلّ كل صباح أربع حافلات؛ لتأتي من فافيلا، لا تجرؤ على دخولها قوات المارينز إلا إذا كانوا يرغبون بالموت بين أكوام البراز الثخين. حتّى يسوع المسيح، في أشدّ لحظاته شروداً، لا يجرؤ على دخولها. يخاف من البشر والرائحة النتنة، ومن رؤية ما وصل إليه عباده البشر من شنائع. وحده راتو يدخل إلى هناك طبعاً.

الرحلة من المطبخ إلى باب الشقة لا تتجاوز الخمسة أمتار، لكنها تبدو كعبور المحيط الهادي بقارب ذي مجدافٍ واحد في ظلّ هذه الحرارة. وفي طريقي، أسحق صرصارين. أفتح الباب، فلا أجد خادمة التنظيف.

بل أجد المجهول.

المجهول يبلغ من العمر ستّين عاماً، طوله مترٌ واثنان وتسعون سنتمتراً، ملامح وجهه ناعمة كطفلٍ ذي ستّة أعوام، يشبه لاعبي كرة السلة، ويبدو لي أكثر فظاظة منهم. يرتدي سترة ذات أزرار مزدوجة، أنيقة جداً، وقميصاً أبيض، عليه ربطة عنق حمراء، سأكتشف لاحقاً أنها من صناعة أحد أبناء بلدي الذي بات يملك إمبراطورية لكثرة ما خنق الرجال. ما أكثر وسائل تكديس الأموال! المجهول شعره أسودٌ لمّاع ومموّج، كأنّه يحاول إقناعنا بديمومة شبابه، وابتسامته خالدة لا تنطفئ.

كان ينبغي أن أدرك خللاً ما في هذا المشهد، يعود إلى سبب بسيط: إذ لا يظهر على وجهه أيّ نوع من أنواع التعرّق، بلباسه هذا، وبعد صعود ثلاثة طوابق، خلال هجمة الرطوبة غير المسبوقة. الجسم البشري يقدّم ألغازاً عجيبة تصدّع الرأس.

عموماً. كان أحد معارفي يقول: أعطني وجهاً حديدياً، ثمّ الكمني كما تشاء. تحوم هذه الفكرة في ما تبقّى من رأسي المهذور بفعل الحرارة.

«مَن أنت؟» أسأل كأنني أحد الأموات المتعرّقين.

يجيبني فوراً، مثل مسجّل لا يفنى: «أحد المعجبين بك جداً».

أسنانه العلوية مثل أنياب العفريت المتجمّد. أقول جملة رائعة:

«المعجبون بي ماتوا. اندثروا».

يوطّد بعض المبادئ الراسخة دون أن أطلب منه، ويقول بلا إذن:

«عليك أن تعرف عني شيئاً مهماً. لا أحتمل المتشائمين. التشاؤم كذبة كبرى. التفاؤل هو الحقيقة. وأنت لا تقول الحقيقة. المعجبون بك لم يموتوا بعد. بل إنهم حول العالم. يجثمون أمام تمثالك، ويصلّون كي تعود إلى الغناء».

أضحك، وأقول: «لابدّ أنّ أبناء بلدي يعيشون حياة مريحة، إن كان لديهم وقت وسبيل للصلاة لشيء خارج عن المألوف، ولا فائدة تُرجى من ورائه كهذا».

دون أن يرفّ له رمشٌ، يجيبني محافظاً على ابتسامته، كأنّ صوته يخرج من بطنه: «أجل، أبناء بلدنا يعيشون حياة مريحة بفضل جهودنا. ألا تقرأ الجرائد وأخبارها السارّة؟».

«كلا. لا أقرأ الجرائد الإيطالية منذ حوالي العشرين عاماً. لا أعلم شيئاً عن إيطاليا. توقفتُ عند عام ١٩٨٠. أذكر أن بيتينو كراكسي كان يعد بمشاريع لا بأس بها».

«وفعلاً لقد حافظ على وعوده».

«وماذا بعد؟» أسأل بمكرٍ؛ لأنني أعرف الحياة، وما تجهّزه من مشاكل دون الحاجة إلى الغوص في الأخبار.

يبتلع المجهول ريقه، وتكتسح العواطف صوته. إنه على وشك البكاء؛ لأنه يفكّر في كراكسي. يحضّر كلماته عند عتبة الباب؛ لأنني لم أقرّر بعد أن أُدخله. مسألة عدم اطمئنان فطريّ.

بكل حال، ما يزال يحاول إغوائي، وها هو يجود عليّ بكل الأجوبة التي أبتغيها، ولكنْ؛ شيئاً فشيئاً: «أخذت وعوده تطمح لسعرٍ، لا يرضاه السوق. قد تتجاوز كل شيء عدا مرضاة السوق. وبالفعل، نفي كراكسي إلى الحمّامات في تونس».

«فهمتُ جزءاً من كلامك» أقول بصراحة.

«سأدعك تفهم كل شيء جيداً» يقلقني بقوله هذا؛ إذ بات واضحاً أنه يريد أن يعرض عليّ مشروعاً ما. وأنا لديّ مشروع واحد، وهو البقاء حياً تحت هذا القيظ الخانق حتّى الحادية عشرة ليلاً؛ لأنام وأستيقظ عام ٢٠٠٠، وهي غاية، لا بأس بها لرجلٍ مثلي. لا أريد سوى أن أدخل، أقحم أنفي للحظاتٍ في عام ٢٠٠٠، ثمّ تهون جميع المسائل. غطسٌ سريعٌ في المستقبل، ثمّ أوضّب حقائبي، وأتقيأ ليلة سعيدة على الجميع وعلى الحياة. لكن هذا العبد الفقير ذا السترة الباذخة لديه برامج أخرى. ويريد أن يقحمني فيها. حيويّ وواثق من نفسه حتّى أفكّر أنه يحاول أن يهديني حياة ثالثة طويلة ومميزة. يحاول أن ينتشلني من الشيخوخة؛ ليرميني في شيء آخر، لم أدركه بعد. لا شك في هذا، وإلا أضاع وقته معي في آخر يوم من آخر عام من الألفية الثانية.

تضجّ البرازيل اليوم في سؤالين مهمّين:

١ مَن هذا الوغد؟

٢ وكيف عثر عليّ؟

لكنه يجرحني بفضوله: «هل صحيح أنك لا تعرف شيئاً عمّا حدث في إيطاليا؟».

«ما الذي حدث؟»

«لقد تغيّر كل شيء» يبتسم بفخرٍ، لا يوحي بالسعادة.

أقول بزيف ضبابي: «على الفنانين أن ينفصلوا عن الوقائع، ويتجهوا نحو الجوهر» ثمّ أعدّل كلامي المرتجل بأسلوب قديم: «بمعنى أنكم تساوون عندي الخراء».

لا يهتمّ بالكلمات القذرة، ويقول: «تماماً. لكنّ الجوهر يكمن في الوقائع وتفسيرها. أنا مثلاً لديّ جهازٌ تناسليّ من الجودة بمكان.» من الواضح أنه يستعلي.

ثمّ يتحدث فجأة عن تفصيل تقنيّ، لم يطلبه منه أحد.

«سقف بنايتك واسع. لم تواجه الحوامة أيّ صعوبات في الهبوط».

لم يقاوم. وها هو يريد أن يخبرني بأنه محدث نعمة، منيوك.

«هل وصلتَ بالحوامة؟» أسأل بلا فضول.

«طبعاً» يجيب بلا ادعاء.

«ومن أين لك هذا المال كلّه؟» أتجه نحو الجوهر.

«لقد جابهتُ المخاطر. وضاعفتُ الاستثمارات في نشاطات متنوعة.»

«أنت مستثمر؛ إذنْ؟»

«لا يكفي أن تكون مستثمراً في إيطاليا. كان عليّ أن أصبح نائباً في مجلس الشعب.».

«ثمّ تقول لي إنّ الأمور تغيّرت في إيطاليا» أقول مستهزئاً.

«أجل كلّيّاً. الشيوعيون مثلاً لم يعد لهم وجود في إيطاليا».

«لم يكن لهم وجود في السابق أساساً. بالمحصلة، لم يتغيّر الجوهر كثيراً. كالعادة، يتغيّر موضوع الثرثرة، لكنّ الأشياء في عمقها تبقى على حالها، والناس والنواب والمستثمرون. يا عزيزي، إيطاليا بلدٌ جريح، لا ينزف دماً، بل خوفاً من التغيير في أيّ مجال. حتّى المراحيض تخشى التغيير. صدّقني، فأنا دخلتُ إلى مليون مرحاض في إيطاليا؛ كي أغتسل بعد أن كنتُ ضيفاً على سرائر الحب. لا يتغيّر شيء هناك أبداً».

«سترى، سترى» يعدني.

«لن أرى شيئاً، يا عزيزي الشاب المتأنق. علي أن أعود إلى عملي. أحييك».

وحين أغلق الباب، يسألني على عجل: «وماذا تعمل؟».

«أسحق الصراصير».

يضحك، ويصبح جدّيّاً كرجل شرير، ويقول:

«لقد جئتُ من روما إلى البرازيل؛ لأحتسي معك فنجاناً من القهوة. ألا تقدّمه لي؟».

استعمل لسانه بدلاً عن قدمه للحيلولة دون صفع الباب في وجهه. أتنهّد. ليس لدي ما أقوم به. أسمح له بالدخول. ينظر حوله دون أن يحكم على التعاسة التي تهيمن على شقّتي. يجلس على كرسي، ويضع يديه على ركبتيه كأنه يغصّ بالمبادرات والمقترحات الحربية على محارب مثلي. هذا الرجل يؤمن بالمستقبل، يتحوّل لوهلة من مثير للشفقة إلى رجل خطير. لكنني ما أزال متماسكاً مثل ناقلة النفط.

«وكيف وجدتني؟».

«لديّ الكثير من المخبرين».

إمّا جيني أفروديت، أو ألبرتو راتو. لا يعرف أحدٌ سواهما مكان إقامتي. لكنني أتخطّى المراهنات التي لا شكّ أنها تطيب له كثيراً.

يبتسم ابتسامة عريضة، ويعلّق: «لقد تساقط شعرك مع مرور السنوات، يا طوني».

أشعر بالضجر. «أيها المحترم، إن جئتَ لتصفّي الحسابات، فقد أخطأتَ العنوان».

«لا أحبّ تصفية الحسابات» يضحك مثل شيطان.

«ولا أنا».

«جيد جداً، سأستدرك، إذنْ. يا لشعرك الطويل الذي لا يتساقط، يا طوني!» يقول محافظاً على ضحكته الشيطانية.

«أحسنت» أدرك أنني مللتُ. فأسرّع الوتيرة. «ماذا تريد مني؟».

يكفّ عن الضحك، كأنّه مربوط بجهاز تحكّم عن بعد. إنّه شكّ سيعثر على مؤكداته قريباً.

يعدّل ربطة عنقه، ويرتّب سترته التي لم يفكّ أزرارها بعد جلوسه. لا يتصبّب عرقاً، يا لهذا اللغز الغامض! يتصرّف كأنّه بائع مجوهرات، أو أدوات الطبخ. ويقول كأنه يلقي قصيدة لباسكولي تعلّمها في المدرسة:

«سأعرض عليك أي مبلغ تريده، إن غنّيتَ هذا المساء في احتفال نهاية الألفية. نستقلّ حوّامتي الخاصة، ونذهب إلى كورسيكا. وأعيدك إلى هنا صباح الغد. لاحظ: عندما أقول أي مبلغ يخطر في بالك، فهذا يعني أي مبلغ يخطر في بالك.».

«مليار ليرة» أقول على الفور.

«لا أمانع في مليار ليرة، ولكنْ؛ ما الذي ستفعله بها؟ الليرة ستختفي. سيحل مكانها اليورو الغبيّ. كنتُ أقول لك إن الأشياء تتغيّر، وإنني أحدّثك عن سابق معرفية بالأسعار. ستهبط المليار ليرة إلى نصف قيمتها حسب منطق السوق. اسمعني، وثق بي، من الأفضل أن تطلب ملياري ليرة».

تشتعل الأفكار في رأسي. لا أنكر أنّني أرتبك، كما لم يحدث لي منذ أعوام. ربّما حان الوقت لهجر هذه الحياة الفارغة. رغم أنّ الشكوك تساورني من كل جانب، وتجتاحني مثل الصراصير. لم أشهد على مفاوضات، يرفع المانح فيها السعر. هذا الرجل يفتدي الفن العلماني بروحه. يا له من سافل منحطّ. يهدر كلّ ما كدّ في جمعه على أشياء تافهة.

«عليك أن تدفع المبلغ سلفاً» أقول بسرعة الفهد.

يُخرج من جيبه شيكاً ممضياً باسمي، وبهذا المبلغ تحديداً. يعلم أنه يُدهشني، ويمزّقني إرباً. فيقول متفاخراً: «إنني فنانٌ في الأعمال».

فأطرحه أرضاً بجملة بسيطة؛ لأنه أثار أعصابي: «صدّقني، يا هذا، أنت لا تعرف شيئاً عن الفنّ، لأنه لا شأن له بالمال. ومَن يضمن لي أنّ هذا الشيك ليس مزيفاً؟».

«اتصل، بألبرتو راتو. ألا تثق به؟».

الآن عرفتُ من كشف له عن مخبئي. أهزّ رأسي. أجل، أثق بألبرتو راتو. عليّ أن أتخذ قراراً. فأقول كسباً للوقت: «كم شخصاً دعوتَ إلى الحفلة؟ أنا لا أغنّي منذ عشرين عاماً.»

«زوجتي وأبنائي الثلاثة. لا أحد آخر».

«ألا ترى أنك تبذّر؟» أستهزئ.

«الأحداث العظمى تُستقبل بصحبة الأشخاص الحميميين.».

«ربمّا. لهذا أقضي رأس السنة وحدي.» أفكّر بصوت مرتفع، ثمّ أقول: «والموسيقيون؟»

«أعضاء فرقتك. لقد أعدّوا حقائبهم، ينتظرون موافقتك».

«لا أوافق» أصفعه بقراري. ويأخذه على محمل الجدّ، فيفتح فمه مستغرباً.

«ولماذا؟».

«لأنني لا أريد أن أصدّع رأسي. وأنت الآن تصدّع رأسي».

ينظر إليّ بجدّيّة. يشعر بغيظ من الهزيمة، كما كنا نغضب في طفولتنا حين نخسر مباراة كرة القدم. ثمّ يمزّق الشيك. أرتجف؛ لأنني كنتُ قد قررتُ أن أوافق في الحقيقة. وأهدأ حين أراه يخرج الدفتر من جيبه، ويمضي على شيك آخر. بدأ جولة الإياب. يعيش حياته كأنه في بطولة كأس عالم طويلة. يكتب مليارين وثلاثمائة مليون ليرة، بخطّه المنمّق كمراهق بليد يزركش أطراف الحروف. ترتجف ركبتاي، ويبقى كلانا على أمل ما.

أفكّر بنفس تركيز العلماء أمام الاكتشاف الجديد. لا أصدّق في الواقع. مملكة الأثرياء المجانين تنهار في مرحاض بيتي بعد عشرين عاماً من الصمت والملل والصراصير السوداء العملاقة. أرمي بإشارة مضادّة: «عرفتُ أنهم حظروا التدخين في الطائرات. هل بوسعي التدخين على متن طائرتك الخاصة؟».

«أنا أكره التدخين بالعادة، ولكنك تستحقّ الاستثناء بكل سرور».

أشعل سيجارة روثمان، وأجود بالدخان على جلده الناعم. يبتسم؛ لأنه يعلم أنني أستفزه، ويعلم أيضاً أنها ليست لحظة الغضب المناسبة، إن أراد أن يعود بنتيجة.

ولكنْ؛ ينبغي أن نكون صادقين. إنني غاضب، وأعرف السبب جيداً. لأنني أرى سطوة المال تتجلّى في هذا الرجل. سطوةٌ ليس بالإمكان الاعتياد عليها. نتحوّل إلى عبيد تلقائياً، حتّى لو أنني ما أزال أتحلّى بالعنجهية، لكنني لا أعلم كم تدوم. حين يخاطبنا الأغنياء، نكنّ لهم المودة على الفور.

لقد مرّت عشرون دقيقة منذ أن عرفتُ هذا الرجل، وأراني أتغيّر بسرعة فائقة. أعود لما كنتُ عليه منذ عشرين عاماً. أجتاز الأراضي بغرابة ساحرة. يقترح عليّ الأدرينالين جملة من الأفكار الثقيلة: أريد العودة لتجرّع الكوكايين كل يوم، أريد أن أستردّ ولعي بالجنس، أريد أن أشتمّ روائح إيطاليا، أريد حياتي الماضية. تأخّر الوقت؟ ومَن يهتمّ بالوقت! أريد أن أموت عارياً وسط أربع عاهرات في بئرٍ من الخمر. هذا ما أريده الآن. لكنني أخفي رغباتي، وأؤدي دوري جيداً: «يبدو لي الأمر مضنياً لرجل في عمري».

لا يجيبني. يحافظ على ابتسامته كتمثال في متحف الشموع. لقد أنجز مشروعه، ويشعر بالقوة. يدرك تماماً أنّ الصمت في الأعمال ورقةٌ رابحة. يا له من فنّان! إنه يعلم أنّ الكلمات تفقد بكارتها أمام هذا المبلغ الكبير: ملياران وثلاثمائة مليون ليرة. تسقط الأعذار ذليلة على الأرض أمام حجّة الثريّ.

يطبق علينا الصمت. ورغم قسوة القيظ، فإنه لا يشعر بأيّ شيء.

«وما اسمك أنت؟» أسأله.

«فابيو» يجيبني باسمه فقط، لأنه يشعر أنه بات صديقي.

«احذر، يا فابيو. ثمة صرصار يصعد حذاءكَ ذي المليون ليرة».

لا يخفض بصره نحو الحذاء، لا يكفّ عن الابتسامة في وجهي، يكتفي بهزّ ساقه دون ذعر، فيهوي الصرصار إلى أسفل ذلك القماش الاسكتلندي بخفة، لم أكن أتوقّعها من تلك الحشرات المفعمة بالخلود.

«كيف عرفتَ، ألبرتو راتو؟» أسأله.

«منذ عدّة أعوام، التقينا بصفقة ما. ألفتُ عنايتك إلى أنّ الصفقة كانت بين أناسٍ أخيار كما يقال».

تنعكس أشعة الشمس على أسنانه ناصعة البياض، فتنعكس بدورها إليّ حتّى تكاد تغشي بصري. لا أعلم ماذا أفعل. إنني واقف كالمهرّج، وهو لا يزال بتلك الابتسامة الخالدة. يبدو كآلة موسيقية، انتهى اللحن، وانتظر الإجابة. لكنني لا أريد أن أقدّم الجواب بسرعة قد اعتاد عليها. يا له من حقير! أكسر الثلج: «هل تريد فنجان القهوة؟»

يقهقه: «كنتُ أريد الدخول وحسب، فأنا لا أشرب القهوة أبداً.».

«كأس ماء، إذنْ؟»

«لستُ عطشاناً. شكراً».

«جميع البشر يشعرون بالعطش تحت هذا الحرّ».

«أيّ حرّ؟ يبدو لي الطقس معتدلاً.».

«حسنا. ربّما تقدّم لي شيئاً أنت. أليس في جعبتك ما يكفي من الكوكايين؟! لقد جاءتني رغبة عارمة الآن.»

«متأسف. لا أستخدم المخدرات» يقول دون أن يشعر بالعار.

«وما الذي يسعدك، إذنْ؟».

إجابته على رأس لسانه دوماً: «أنا نفسي.».

لو لم يكن ذهني مشغولاً بذلك القيظ الرهيب، لتخيّلتُ أنه سيجيبني بتلك الإجابة. هذا الرجل يجرّدني من أسلحتي. أفكاره واضحة، لدرجة أن لا فائدة من الحديث معه. يبدو أنه خطيب، لا يتعرّق. يسير محقّقاً أهدافه، وهذا ما يزعجني حقاً؛ لأنني لم أضع أيّ هدف نُصب عينيّ، ما عدا انتظار اليوم التالي. عليّ أن أغيّر الموضوع من جديد.

«أرني هذا الشيك» أقول.

يمدّه إليّ، بينما يضع هذا الخارج عن القانون قدميه في المستقبل. يظهر كمّ قميصه، فأرى ذلك الزرّ الذهبيّ الضخم في غاية الجمال. ينتبه لاتجاه أبصاري، فيجهز عليّ بالضربة القاضية. يقرأ أفكاري، ويقول: «أريد أن أهديك هذا الزرّ. أعرف أنه يعجبك.»

ولا ينتظر إجابتي. يفكّ الزرّ، ويمدّه نحوي. فآخذه بامتنان فطريّ. وبابتسامةٍ أعيده إلى يديه. ينظر إلى ساعة المعصم التي تبدو مثل المكوك الفضائي، فيقول مضطرباً: «لدينا دقائق معدودة، إذا أردنا قضاء نهاية السنةِ في إيطاليا.»

إيطاليا. يصعد اللاوعي إلى دماغي، كالوقود الذي كنتُ أمتصّه بالخرطوم من خزّان الدراجات النارية حين كنتُ طفلاً. أحدّق النظر في هذا الرجل الجاد المتسمّر كالآثار في ساحة ريفية. لا يبالي بشيء كالبقر الذي يقف على حافة الطرق في الأرياف النمساوية.

ثمّ أقول كلمتين تغيّران حياتي مرّة أخرى: «سأوضّب الحقيبة».

«كما تشاء، ولكنني أحضرتُ لك على متن الطائرة بزة رسمية كاملة، تناسب أذواقك».

أتحوّل إلى طفلٍ صغير: «هل أتيتَ بطراز "أمير الغال"؟».

«أربع بزات. اثنان من نوع جلين شيك، واحدة رمادية، والأخرى سماوية اللون.».

هذا الحقير يفهم في الملابس. أحاول إحراجه: «ما نوع القماش؟».

«دونجال».

«أحسنت صنعاً» أقول منتشياً كأنني أستمني.

«أتيتُ لك بمورنينغ كوات».

«لم تخطئ» أضيف.

لكنني أشكّ في أمرٍ ما:

«عذراً، كيف عرفتَ مقاسي؟»

«لقد أخذ راتو مقاسك ذات مساء حين نمتَ في مكتبه».

يا لوضوح أفكار هذا الملياردير اللعين. لا مناص، من الأفضل أن أتبعه. أتقدم في قائمة المشتريات، وأقول بلا ترابطٍ منطقيّ:

«لا أنكح منذ أربعة أعوام. هلا ساعدتني في هذا؟».

يتعامل مع الأمر كأنه أهون الأمور: «ليت كل المشاكل كانت على هذا النحو...».

«ماذا تقصد؟».

«أقصد أنه ليس لديك فكرة عمّا سأجلب لك من نساء».

«احذر، يا هذا، فأنا خبيرٌ بالنساء. ثمّ إنني اعتدتُ على مستوى ماناوس، وهو مستوىً لا يُعلى عليه. مستوى يتحدّى الجنة».

«هذا صحيح. العالم الآخر مجرّد عليّة. لكنك تعلم جيداً أنّ المستوى الإيطالي ليس سيئاً. وأنا هناك مثل فرعون. وعليك أن تعرف أنّ في سنوات غيابك عن البلد الجميل، شهدنا هجرة حقيقية وكبيرة من شرق أوروبا، وليس لديك فكرة عن معنى ذلك الجمال. إنهن لبوات الثلج.»

«يا لك من فطحل» أقول «لقد زرتُ بودابست أكثر من مرّة. وغزوتُ بولندا».

يضحك. «لقد تجاوزنا هذه البضاعة. إنني أكلّمك عن تايبن وريجا وفيلنيوس».

«يا لهذه الأسماء الغريبة» أقول مستهزئاً.

من الواضح أنني لا أفقه شيئاً في الجغرافيا، بسبب الآنسة اللعينة في المرحلة الابتدائية. كانت تفضّل القهوة المكثفة باليانسون في الثامنة صباحاً على أن تجتهد في تدريسنا.

يبتسم فابيو، ويصحّح لي: «ليست أسماء، إنها عواصم إستونيا وليتونيا ولتوانيا. يأتين من هناك، من الجنة تحديداً».

«سنرى هذا النعيم» أقول وأضيف: «سآخذ مشطي معي».

غلبتُه هذه المرّة؛ إذ من المضحك أن يقول إنه اشترى لي مشطاً جديداً، لذا؛ لا يضحك.

فيما بعد، أجد نفسي في غرفة النوم الزوجية على متن طائرة فابيو العزيز. هنالك مجموعة من المجلات الرياضية، وأخرى عن أنواع النبيذ. يا للتعاسة! إن عثرتُم على ثريّ واحد يعترف بعدم فهمه في النبيذ، فإنني منيوك، لا أفقه شيئاً في هذه الحياة. اعتاد الإيطاليون أن يعلّقوا الصليب فوق السرير، أما فابيو؛ فقد وضع راية لإحدى سيارات الفورمولا اونو. لم أشهد في حياتي كلها على حسّ هزليّ بهذا القدر من الشيطانية. أنا مستلق على السرير مرتدياً إحدى الثياب؛ كي أتأكد من المقاسات. إنها مطابقة لي تماماً. وعرفتُ معنى الانتعاش بفضل الهواء المكيف بعد أعوام برازيلية مريرة. أرى البرازيل من النافذة، نحن فوق دلتا الريو الأمازونية العريضة مائة كيلومتر تقريباً. هذا النهر يبدو بحراً شاسعاً. ربّما كان البرازيل أكبر من مقاسي، لم أستطع أن أنتمي إليه أبداً. نظرياً، سأعود بعد يومين إلى شقتي الكئيبة، محمّلاً بالمليارات التي لا أعرف أين أنفقها في بلد مثل البرازيل. قلبي يحدّثني

أنّ مغامرتي البرازيلية انتهت، لكنني لا أريد التسليم بذلك. إنني عائد إلى إيطاليا بعد عشرين عاماً من الغياب، ليس لأنّني حصلتُ على أطنان من الليرات، وثماني عشرة بزة رسمية من أفخر الانواع. لستُ عائداً؛ لأنّ لي رغبة في الغناء. لستُ عائداً بسبب الحنين. بل لانعدام البدائل. فقد فرّغتُ كلّ ما كان يثقل صدري خلال هذا الوقت.

الحياة الجديدة إذنْ. يغمرني نوعٌ مجهول من الرضا. أقفز من السرير؛ لأجد نفسي في قاعة أخرى. وبينما أفتح فمي لأخبر فابيو بأنني لن أعود إلى البرازيل، فإذا به يسبقني باقتراح مغرٍ. كان فابيو جالساً كأنه أمام لجنة الامتحان في مشروع التخرج. ينظر إلى الخارج من النافذة، يتأمّل سارحاً، في سكونٍ يتخلّله هدير المحركات. يشعر بوجودي دون أن يلتفت، يتجه مباشرة إلى لبّ الموضوع كنبيل توسكانيّ محتال:

«لم لا تأتي للعمل معي؟ أعطيك أربعين مليون ليرة في الشهر.».

أمضغ ريقي تلقائياً. ماذا يحسب أنني قادر على فعله؛ كي يغدق عليّ بكل هذه الأموال؟

«ولكنْ؛ ما الذي سأفعله؛ كي أستحق هذا المبلغ، يا فابيو؟».

فيقول مثقوباً من حزنٍ وجدانيّ: «لا شيء. تغنّي لي بعض الأحيان في إحدى منازلي».

«فقط؟ بإمكانك أن توظّف سيناترا بهذا المبلغ، يا رجل».

«لقد مات سيناترا».

«حقا؟ بإمكانك أن تحييه من جديد بهذا المبلغ، بمساعدة أطباء ماهرين».

يضحك. لكنه ما يزال حزيناً. كأنه في مأتم مستمرّ. عدم الرضا واضحٌ

على ملامحه. وهذا طبيعي إذا كانت غايتك أن تصبح إلهاً. والإحباط، في حالةٍ كهذه، يتراكم أطناناً كل ثلاث دقائق. يهاجمني بتعاسة أخرى:

«لا أريدك أن تغني تلك الأغاني النابوليتانية الجميلة فقط. أريدك أن تصبح صديقي.»

يوجد الكثير من التباين في تعريف العزلة، لكنّ هذه الحالة أغربها على الإطلاق. كم من مرّة بكينا؛ لأننا نعاني من الوحدة؟ لا شيء بالمقارنة مع ما يكابده صديقنا فابيو. ليست عزلةً بالمعنى الحقيقيّ، بل إنّه هجران. وهو شيء مختلف كلّيّاً.

بينما تتجسّد العزلة في جملة من الأحاسيس، يتجلّى الهجران كمأساة، لا يمكن تعديلها. ومأساة الحياة مثل معبد الموت، لا تترك لنا منافذ للهروب. مأساة فابيو الشخصية هي أحد أقل مشاريعه نجاحاً بلا شكّ، لكنها تزدري الآخرين بفضل دفتر الشيكات.

تخرج من قلبي جملة بسيطة، تناهض المنفعة:

«لكن الأصدقاء لا يُشترون بالمال، يا فابيو».

«بلى، كل شيء يُباع ويُشترى، يا طوني» يقول حازماً، لا يقبل النقاش.

يخطئ في رأيه. وأنا على حقّ. لكنه لن يفهم هذا الأمر أبداً. سيكتشفه متأخراً جداً، بعد أن يموت فقط.

لا يعي وضعه، مثل كل المأسويين. وهذا ما يجعله طفلاً إلى الأبد. يقول:

«تخيّل أنّ حتّى أمي لا تحبني».

«الأمهات يحتملن كل حماقات أولادهن. عدا أمر واحد: جنون العظمة» أعرف ما أقول.

«كلامك هو الحقيقة بعينها» يقول متألماً.

يهبط صمت شبيه بعالم الموتى، تتخلّله خطوات مضيفة جميلة مثل القديسة نصف عارية، كأنها جاءت من جناح النعيم، إذا افترضنا أنّ في النعيم أجنحة. وتمدّ فابيو بكأس ماء؛ لتختفي خلف الباب، لعلّها تغطس برقصة شرقيّة في سرير من الأزهار المعطرة . لقد تركت بمرورها خيطاً من رائحة الحياة يعيد إحياء سيناترا ودان مارتين معاً.

أتنفّس بقوة؛ كي أتجرع عطرها المخدّر، ثمّ أقول بكل صراحة ووضوح دون مقدّمات خرائية: «أقبل العرض، يا فابيو».

«جيد جداً» يجيبني كأنه متأكد من موافقتي. ربمّا لأن كوميديا البؤساء تتكرر دوماً بالمشهد عينه، محمّلةً بفساد النفوس الرخيصة. أو ربمّا لأنه ذكي جداً.

أقرّ فابيو أن الحياة قحبة كبرى. وهو يريد أن يشتري الحياة. وها هو يشتريها. لكنها كباقي الأشياء لا تشعر بالألم حتّى في الحسابات المصرفية. الحياة لا تمنحك الحرية مقابل أيّ شيء، وتستخفّ بأموالك وغاباتك وأجوائك. لكنّ فابيو لا يعلم هذا، لأنّ أحداً لن يجرأ على إخباره بهذا. ولذا؛ ترى الأثرياء يلهون في عوالم مغلقة ووهمية، لأنّ الناس لا يودّون إخبارهم بحقيقة الأمور خشية أن يخسروا المزايا التي حصلوا عليها.

الطفيليات التي تمتصّ دماءنا لا تتواصل معنا، رغم أننا نحن مَن يمنحها قوت يومها.

الأمر هكذا بسيط مثل الحرب العالمية الأولى.

مثل الحرب العالمية الثانية.

مثل الوجوه الجميلة التي تتفتح في سنّ المراهقة.

إنني أشيخ وأذكر أنني رأيتُ الكثير من تلك الوجوه الجميلة التي تضجّ بعنفوان المراهقة. ننحني أمام زوبعة الحنين والحسد، لنتحوّل إلى محاربين واهنين وفئران خانعة.

أتجول في الطائرة كالقطّ بحثاً، في واقع الحال، عن تلك المضيفة القديسة صعبة المنال. ربّما قفلوا عليها الباب، كلوحة على جدار، كي لا تتعرض للتلف. ممنوع عليّ لمس الجمال دائماً.

إيطاليا تبدو من الأعلى كقطعة قماش مرقعة. لم يبق إلا القليل، يا طوني، فصبراً!

-١٣-

وأنت أيتها الفتاة

كنت تخجلين إذا داعبتك بيدي

فكّري أنك ستصبحين أمّاً.

ريناتو زيرو

في النهاية عدتُ من حيث أتيتُ. لأقضي رأس السنة بالعزف والغناء؛ كي أسعد الآخرين، ولم يحدث أن أحداً أسعدني بهذه المناسبة. ما الذي تبتغيه من الناحية النفسية حين تكون مرغماً لبدء حياة جديدة وقصيرة دون أن تحتفل كما تريد؟ في خدمة الآخرين تحت برد يناير القارص. وإن كانت ساحات ماشيراتا وآسكولي بيشينو وكاتانتسارو تشهد على ذلك، فإنني - الآن - في هذا الصالون الواسع والمجهّز بأرقى الأثاث في فيلا فابيو وعائلته في كورسيكا.

مع مرور الوقت، تصبح المناسبات آمالاً غامضة، وهذا ليس جيداً، إنما سيئاً كأغنية قبيحة. وأنا هنا، خلف الميكروفون، أنسى نصوص الأغاني بشكل فظيع حتّى أنقذني فابيو العزيز في اللحظة الأخيرة، إذ جاءني بمنصة؛ لأضع عليها النصوص؛ كي لا أشعر بالإهانة. شكراً جزيلاً، وكيف لا أشعر بالإهانة حين لا أبذل جهداً جهيداً في تهيئة صوتي. حتى الرفاق شابوا وتساقط شعرهم، وتصلّبت أصابعهم مثل متسلّقي جبال الألب، يجدون صعوبة في نقر أوتار الغيتار وقرع الطبول. نحن نصعد هاوية الموت. لقد أصبح جميعنا كهولاً، كهولاً فقط. كان من الأفضل ألا تُغريني المليارات، وأن أبقى

في شقتّي في البرازيل. فالصراصير كلها متشابهة، لا نميّز بين شيبها وشبابها. لا تستخفّوا بهذه الميزة. أما أنا؛ مصابٌ بأشرس الأمراض: الواقع. لكنني قاومتُ الشجار والأعيرة النارية والطلاق ومحاولات الاغتيال والأرق والركوع. سأبقى حياً بعد هذه الحفلة الفاشلة؛ إذ ينبغي أن أكتشف الملذّات في الغرف الثانوية لجميع البيوت. وأتقدم قليلاً إلى الأمام.

فابيو وعائلته يغرقون في بحر من الرسميات المبالغ بها، كالأموات حين يهربون على الطريق السريع، وبحوزتهم مئات الملايين. إنهم يموتون دون أن يلتفتوا لذلك. أو ربّما سيموتون قريباً؛ لأنهم نسوا أن يرتبّوا الأشواك المخصصة للسمك.

مآل الثراء أن نبني قفصاً رديء التصميم. أنظر إلى وجوه أبناء فابيو الباردة، وهم يأكلون الحزن إضافة إلى الكافيار والباستا الشهية. تضغطهم المراهقة حتّى الموت، لأنّ الراشدين شرحوا لهم أنّ امتلاك هذه الأموال يفرض عليه مهمّة مستحيلة. وهذا ما لا يطيقه المراهقون؛ إذ إنّ مفهوم المسؤولية يفتك بالحيوية.

وهذا ينطبق على الأولاد الفقراء أيضاً، الثقل الذي تولّده المسؤولية الباكرة.

إنهم يشبهون، إلى حدّ كبير، أولئك الذين يعيشون في جبال الألب الشاهقة. لقد عاشرتُهم حين كنتُ أتزلّج وأرتكب بعض الذنوب.

يغفو أحد أبناء فابيو على المائدة، عمره ستة عشر عاماً، لكنه يبدو عجوزاً، يصارع مرض السّكّري. وهذا ليس من أنواع النوم القهري، إنما بسبب العجز الذي يفتك بقلب الفتى. إنه كهلٌ لم يعرف من الشيخوخة إلا أخطاءها.

حركات زوجته، الجميلة مثل أحلام فيلليني، تشبه حركات قائد أوركسترا يهودي وشهير جداً. عليها أن تحافظ على الأسس التي يقوم عليها العائلة،

وأن تفرض رقابتها على كل تلك الأشياء التي يعجّ بها البيت، ومن بينها ذلك الطفل النائم. توقظه في أثناء استطلاعها، فيستفيق بابتسامة مأسوية ومتعمّدة، وتؤنّبه بنظرة فارس الساموراي، قبل أن تنهار أعصابها من شدة المراقبة.

نحن، من على الخشبة البعيدة، ننظر إليها على أنها تحفةٌ شقراء. نتخيّل أنّ ثنايا جسدها البديع لا تنكشف إلا قرب سرير في غاية الفخامة. جمالها مطلق، لكنه بعيد. لا يسعدنا ذلك.

لكنّ هذه الندوة الضيّقة تبهج فابيو الذي ترأس المائدة، وبدا سعيداً بما أثمره الشيك. ولو كان يفهم شيئاً في الموسيقى؛ لتأكد أنه ألقى أمواله في المرحاض.

وهذا جيد بالنسبة إلينا. لكنني لا أثق حتّى النهاية، فالأثرياء أكثر خطورة من النازيين.

فابيو يريد أن يثبت، عبر أزرار كمّ قميصه الذهبية، أنه رجل أعمالٍ عصاميّ. يريد أن يذكّر جميع الناس بأنه عمل بكدٍّ طيلة حياته. أسرف دهاءه ووقته وماله كي يحظى على شبكة علاقات عامة، لا تُقهر. لكنه لا يريد أن يعلم أحدٌ عمّا يعتصر فؤاده، بمَن فيهم زوجته وأولاده.

لكني سأعلم سرّه باكراً؛ لأنني سأكون بقربه في ليلة صعبة، تفرض كل السيناريوهات المميتة، في ليلةٍ مرعبة، لا تتمنى فيها العودة إلى المنزل حتّى لو سقط العالم. لأنك محاطٌ بأشنع المخاوف، وهو أن بيتك لم يعد ملكك. تفهمون ما أقصد طبعاً.

لابدّ أن أباه هو الشبح العنيد الذي يزوره في أحلامه. رجلٌ ضخم البنية، وليس لديه أيّ طموحات. سلاحه الوحيد قصصه المسليّة التي تساعده على كسب صداقة الجميع، دون بذل أي جهد. ولعلّ غياب هذا الجهد

ما يسبّب الضيق لفابيو، ويدفعه لنضالٍ غير ذي جدوى، لعدم وجود عدوّ حقيقيّ. إنه يناضل ضدّ الذكريات التي لا يعرفها أحدٌ سواه. والذكريات ملموسة في بعض الأحيان، كالزوائد الورمية. وهنالك طيف أمه الشفّاف مثل الزجاج، لا يهدأ له بالٌ، وهو يذكر صمتها القاتل كأنه صادرٌ عن جهة رسمية. لكنّ المشكلة تكمن في مكان آخر، وفابيو يعلم هذا تماماً. يعلم أنّ أباه كان محظوظاً بموهبة انقرضت مع الوقت: التقشّف.

فابيو لا يمتلك حسّ التقشّف، وهذا الأمر يقتله يوماً بعد يوم والأسوأ أن لا أحد بوسعه الانتباه إلى ذلك. يا له من إحباطٌ قاتل حقاً. ليس من السهل أن تولد في الزمان الخاطئ. أن تعيش كأنك في نادٍ ليلي، وتدخّن السيجار، وتتناول عشاءً خفيفاً وصحيّاً.

عموماً، أفراد هذه العائلة مقتنعون بأنّ المراسم هي الطريقة العفوية الوحيدة لحياة الأثرياء. يتصرفون كالملكة إليزابيث، ولا يعرفون أنّها تتجول في البيت بالنعل، وتصرخ بأعلى صوتها كل صباح بأنها تريد التبوّل. لأنّ الملكات الحقيقيات لا تكترثن لآراء العامة بهنّ. بينما يطمح الجنود البسطاء لمعرفة ما يقول عنهم الناس، وإلا لا ينامون الليل. إنهم بحاجة إلى اعتراف الفقراء بأبّهتم، والفقراء لديهم ما يشغلهم، وهذا ما يجعل الأغنياء في قلقٍ مزمن. لا يعرف الفقراء أنهم في لا مبالاتهم هذه يحرّكون عجلة التقدم وإنتاج المصانع. ووحده الاقتصادي المغفّل يظنّ أن التنافس يقوم بين الأغنياء أنفسهم. لكن التنافس الحقيقي قائمٌ بين الأغنياء والفقراء. والغريب أنّ الأغنياء يجهدون مثل الكلاب الضارية بحثاً عن قطعة اللحم، بينما لا يحرّك الفقراء إصبعاً. يا لهم من كسالى ومتواكلين، يشتكون من حظوظهم كحدٍّ أقصى من عدوّ متبدّل. تارةً الله وتارةً الدولة، تارةً صاحب العمل وتارةً الزوجة المهملة أو الولد الضالّ. لا تتزعزع قناعاتهم، وفي الوقت نفسه يحسبون أنهم يعيشون حياة كريمة، وإنهم على حقّ في هذا.

لقد أصبحتُ محللاً اقتصادياً مع مرور الأيام.

انتهت أخيراً هذه المعركة حامية الوطيس مع الموسيقى التي لم نكن نتقنها أيام الشباب، فما بالك في أرذل العمر. وذهبنا أنا وجينو وليلو ورينو وتيتا والعظيم جيني أفروديت نتسكّع على شاطئ فابيو الخاص. في الثالثة ليلاً من أول يوم في الألفية الثالثة. واستلقينا على رمال الشاطئ الناعمة. نزعنا ربطات العنق، وضرط تيتا مطولاً، بما استطاع من أحاسيسه في ظلام كورسيكا.. وضحكنا جميعنا حتّى سالت الدموع من أعيننا، وبدا لي المشهد سعيداً على عكس ما توقّعتُ.

وحين تعبنا من الضحك على مدى ساعة، عدنا إلى دردشاتنا المعهودة التي لا تنتهي، وكأننا لم نلتق منذ ربع ساعة، في حين مضى عشرون عاماً. الحميمية التي تجمع بيننا تقاوم الزمن والهجران. يا لهذه الروعة النادرة حقّاً. أثّر فينا هذا اللقاء، وقلنا إنّ الحياة تستحقّ أن نعيشها رغم عنائها، وهذا بفضل صداقتنا التي لا ولن تفنى.

لم نلتق منذ عشرين عاماً، لكن أول موضوع تطرقنا إليه هي الحفريات تحت بيت ليلو كوزا الذي لم يعد يطيق سماع صوت المطارق، ولا التعايش مع ضوضائها. يا للروعة!

كم كنتُ أبلهاً في ما مضى! كنتُ أتعامل بطريقة سيئة مع أصدقائي رغم أنّ البساطة والمودّة تملأ قلوبهم، كما يبدون لي الآن. كان طموحي آنئذ أن أمحو الهمود في شخصياتهم. ذنبٌ لا يُغتفر مثل الجريمة بحقّ بياتريشا على السلالم. كلاهما جريمة، لا فرق بين الطريقتين. موت الأجساد ليس له قيمة أمام موت الأفكار، فما بالك بتعمّد العبث في نفوس هؤلاء الرفاق الطيبين.

أشعر بعظمة ما أفكّر فيه، فأقوله على الملأ: «يا رفاق، عليّ أن أعتذر منكم» يسكتون، فأحاول المتابعة. «والآن سأشرح لكم سبب اعتذاري».

لكن جيني يقاطعني، ويدهشني، كما فعل دوماً، بقدرته الفطرية على التقاط الأفكار الغامضة. «لا، يا طوني، لا ينبغي أن تشرح لنا. نعرف ما سبب اعتذارك. كنتَ تظننا أقل أهمّيّة وقدرة ممّا تعتقد الآن».

لا تعليق على كلامه. حين يتحدث هذا الرجل، يتحول إلى بابا فصيح بالمعنى الطيب. ويضيف: «لقد فهمتَ الآن أنك، وأنا وجميع الرفاق، عباقرة عظماء».

«مَن هم العباقرة؟» يسأل جينو.

«العباقرة هم أولئك الذين لا يشعرونك بالإعياء حين تعاشرهم.».

إنه على حقّ. يتركنا دوماً بلا كلمات. رفاقي عباقرة فعلاً. وربّما كنتُ عبقرياً أنا أيضاً، لكنني لستُ واثقاً من هذا. هو هكذا الكائن البشري: يثق بالآخرين أكثر من ثقته بنفسه، لأنّ الآخر يسمح له بإظهار قدرته على التنظير والتحليل واستخدام المخيّلة التي ليست ملكه أبداً.

إنني متأثر حتّى الدموع. وهم يعلمون ذلك حتّى لو أنهم لا يرون دموعي بسبب الظلام الدامس. القمر غاب إلى مكان آخر في هذه الليلة التي تودّع يوماً تاريخياً. كم جميل أن تعانق الألفية الجديدة في جنح الظلام. لكنّ صفاء الذهن لا يتجاوب مع الرموز أبداً.

رينو يتكلم: «وضراط تيتا المطوّل لا يدع مجالاً للشكّ بأنه عبقري».

فنضحك بقوة حتّى أقول: «وماذا حلّ بمسألة الهيروين، يا جيني؟».

فيجيبني بكل هجوء، كأنه يطلب الملح على المائدة: «لقد تخلّصتُ من شروره، يا طوني. الواقع مرهقٌ بلا شكّ، لكنّ العبث مرهق أكثر».

أقول بصراحة غريبة عني: «كم أنا سعيد، يا جيني. هذه أول مرّة أشعر فيها بالسعادة لشخص آخر».

ثمّ يقوم تيتا بحركة جميلة وغير متوقّعة. ينهض على قدميه فجأة، كأنه مستعجل، وبفورة غريبة عن طباعه، يقول: «ما أجمل هذه السهرة، يا أصدقاء! نحن لا نهتمّ لأي شيء. عدوني بأن نبقى أصدقاء دوماً، حتّى مماتنا. عدوني بذلك الآن».

إنني أبكي كطفل صغير، وجيني وجينو ورينو وتيتا أيضاً. كلنا نبكي في الوقت ذاته كالأطفال الصغار، بلا خجل. لأننا جميعاً على القارب ذاته. قارب جميل. قارب الصداقة.

وفعلاً نتعانق بقوة تضاهي عناق المراهق لأول حب في حياته. ونصيح معاً: «وعد. وعد. وعد. وعد».

تجتاحنا داومة من المشاعر، تفوق خيالنا. نعود إلى الجلوس على الرمل الأبيض في الظلام. أشعل سيجارة خفيفة، وأنفخ غيمة من الدخان إلى السماء البعيدة، ثمّ أقول:

«حدّثوني، يا أصدقاء. ماذا خسرتُ خلال هذه العشرين عاماً؟».

جيني يبدأ: «الهواتف الجوّالة. أكوام من الأغاني الهابطة. شاشات البلازما. القنوات الخاصة ،ثمّ قنوات الاشتراك فيما بعد. مسكّنات لألم أسناني التي فتك بها الهيروين. أطنان من المجلات الإباحية والمجلات التافهة التي لا تتحدّث إلا عن العارضات الساقطات سواء على الغلاف أم داخل الصفحات. كتائب من النباتيين الذين يصدّعون الرأس. اندثار الأقراص الموسيقية وخسارة كبرى لمحلات بيعها، كما اندثر قبلها الشريط. الإضاءة التوفيرية التي لا تنير شيئاً. أول مصارع ثيران لا يحمل الجنسية الإسبانية، إيطالي كان يعمل في مرآب في نابولي، اسمه آتيليو، دخل في غيبوبة، ليس بسبب الثور، إنما لانزلاقه في الحمّام، واصطدام رأسه بحافة المرحاض، وكان قد بدأ بكتابة سيرته الذاتية التي يصف فيها كيف قرّر الرحيل عن نابولي. شركة إيكيا والأثاث المتشابه في جميع البيوت من تورونتو إلى مقديشو. استبدال طبقة سياسية فاسدة بأخرى تفوقها فساداً وانحطاطاً أخلاقياً. التونة الطازجة بالسمسم على يخوت الأثرياء الذين نخروا أسنانهم بذلك السمسم. فيالق من الصينيين في الأحياء المجاورة للمحطات، خادمات من أوكرانيا والدومينيكان وسيلون وبيلوروسيا، رومانيات وألبانيات ومغربيات. شعوب

قذفها البحر إلى شواطئنا، يبحثون عن لقمة خبز، فتم استغلالهم في جني الطماطم على مدار السنة، وفي تنظيف مؤخّرات المحتضرين أيضاً. يتقاضون مبلغاً زهيداً مقابل عمل شنيع كهذا، فتفهم لماذا يتعرّض لك أحدهم، ويطلق عليك النار في الزقاق، تتهمه بالذنب دون اقتناع تامّ. لقد خسرتَ فوز رينو في مراهنات كرة القدم، ثمّ اكتشف أنه لم يملئ القائمة وأراد أن ينتحر جدياً. خسرتَ ظهور جينو على شاشة التلفزيون الوطني ضمن برنامج ترفيهي، وتقاضى على ظهوره ستة عشر مليون ليرة، أنفقها في بناء ثلاث شرفات مخالفة، هدمتها الدولة، وهكذا خسرتَ مشهداً نادراً للدولة، وهي تطبّق القانون لأول مرّة. فأنت تعلم أن دولتنا لا ترحم المحظوظين، وتتغاضى عن الماكرين، مسألة تربية وطنية. خسرتَ زلازلَ وأمواجاً عاتية. انتحار رجال أعمال وقادة سياسيين كانوا يظنّون أن دخول السجن لا يشرّفهم، ويعدّونه تطاولاً على كراماتهم. خسرتَ الحواسيب التي انتشرت في كل مكان حتّى قضت على البشر. بالمحصلة، خسرت أشياء كثيرة، لكنك لم تخسر شيئاً»

ثمّ جينو: «لقد خسرتَ التغيّر الذي طرأ على حياة معارفك، يا طوني».

أرتعش، وأقول: «حقاً. حدّثني عنهم جميعاً، يا جينو».

«نبدأ بزوجتك. بلغنا أنها - في الحقيقة - كانت على علاقة برجل حين كنتُما معاً. وبعد رحيلك بيومين، انتقلت إلى بيته. لكن عشيقها مات بعد شهر واحد، فلم ترث عنه سوى جبل من الديون. حاصرها الدائنون، فاستقلت قطاراً، وفرّت دون أن تعلم أين كانت ذاهبة. وربّما كانت تعلم؛ لأنها نزلت في فرانكفورت، ويبدو أنها كانت تدرس الألمانية خلسة عنك، ومَن يدري لماذا. ومنذ تلك اللحظة لم نعلم أي شيء بخصوصها. وابنتك، يا لها من فتاة قوية فعلاً. تصدّع رأسها من جنونك وجنون أمها، فغادرت إلى باريس. والآن تعمل كمصمّمة أزياء مع شابة بلجيكية، وذات مرّة رأيتُها في مقابلة على التلفاز؛ حيث قالت بحزم: "مات والداي بحادث أليم"».

وحان دور ليلو: «صديقتك في لعب القمار، ريتا فورميزانو، ذات يوم

فتحت النافذة، وألقت نفسها من الطابق الرابع بثياب المطبخ. فوقعت على ستار بائع الفواكه، ولم تمت، ثمّ ظلت مشلولة على كرسي متحرك. وحين سُئلت عن سبب محاولتها الانتحار، أجابت بكل بساطة أنّها لم تعد تحتمل ذكرياتها. وبعد المحاولة، تغيّر شيء مهمّ: أقلعت عن التدخين.

ابنها ألبرتو، الذي لم يبلغ الثلاثين بعد، تم إيقافه ثلاث مرّات، بتهمة استغلال الدعارة».

تفلت مني ابتسامة رغماً عني على هذ الخبر.

رينو بابالاردو: «المايسترو ميمو ريبيتو. معلّمك ومعلّمي أيضاً. لن تصدّق إذا قلت لك إنه ما يزال حيّاً. لقد أتمّ المائة عام منذ شهرين. وأخته ما تزال على قيد الحياة، وبلغت مائتي عام.

التقدّم في السنّ ورطةٌ كبرى. يعيشان بلا حراك في مأوىً للعجزة. أخته لم تعد تتكلم، ولكنْ؛ يحدث أحياناً أنها تبصق على الأرض حين تكون بخير. وميمو شبه أخرس أيضاً، ينطق بشقّ الأنفس، كل صباح، الجملة ذاتها على مسامع الخادمة الرومانية: "لآخر مرّة في الحياة، أرجوك أن تطبخي لي الباستا بالبطاطا، كما كانت أمي تحضّرها". فتبكي الخادمة على وقع هذه الجملة، لأنها لا تستطيع تحضير هذا الطبق، فالبطاطا التي تصل إلى هناك شبه فاسدة. حتّى أخته، التي لا ترى ولا تسمع، تجهش بالبكاء حين تسمعه يقول هذه الجملة.»

حصلتُ على معلومات مفصّلة، والحمد لله. أحاول عدم التفكير بما سمعتُ، وإلا اختلّ توازني.

يحلّ علينا الصمت، عدا صوت الأمواج البطيئة والمشابهة. ثمّ أقول:

«وأنت، يا تيتا، ماذا تقصّ عليّ؟»

لا تصلني أي إجابة.

«هذا الحقير ينام دوماً حين نلهو. لطالما فعلها منذ أن عرفتُه» يقول جيني غاضباً.

كان واضحاً أنّ السهرة تنتهي بدليل هذه الإشارة. استمتعنا كثيراً، لكن التعب يغلبنا جميعاً، وأنا أكثرهم بفعل الرحلة الجوية. ننهض بكسل، ونتهيّأ للمشي بعد أن نفضنا الرمل من داخل السروال، وتحت الأقدام.

ليلو يقول لتيتا: «هيا، يا رفيقي، حان وقت العودة إلى منزل ذلك الثريّ؛ حيث تنتظرك غرفة دافئة كلها تحت تصرّفك.».

لكن تيتا لا يتحرك.

«تيتا، هيا، استيقظ، يا رجل» يلحّ ليلو.

تمرّ لحظة. ثمّ نفهم الأمر جميعاً في اللحظة نفسها؛ لأننا فرقة واحدة، وسنبقى هكذا. نفهم الآن أنّها لم تكن سهرة ممتعة. ننسى دائماً طبع الحياة الكريه، ثمّ نذكره مجدداً مرّة أخرى. هذه الحياة الحقيرة تكرّر اللعبة اللعينة ذاتها بلا انقطاع. تمنحك القليل من الفرح، وسرعان ما تسرقه من بين يديك. في هذه الليلة، كما في كلّ وقت. وهنا كما في أي مكان من العالم.

ترتفع نسمة خفيفة تهزّ وقفتنا الجنائزية. أنا الزعيم، آخذ على عاتقي تلك المسؤولية الأليمة واللئيمة. عليّ أن أتحمّل المسؤولية؛ لأني أفهم، مع الزمن، أنني لا أستطيع اللوذ بالفرار دوماً. علينا أن نواجه الأمور بقوة، ليس لفهمها، بل لتذوّق فتات الكرامة. أقترب من تيتا المستلقي على الأرض. أجسّ نبض قلبه. لا شيء. قلب العبقري تيتا انطفأ خلال النوم؛ كي لا يفسد السهرة.

خطفه الموت من بين أيدينا. ومَن يدري كم مرّة جاء، ولم يجده، في أثناء جولاتنا الغنائية.

لا بأس، يا تيتا. لن يستطيع الموت فعل شيء؛ لأننا - لحسن الحظ - وعدناك قبل قليل أن نبقى أصدقاء حتّى الممات.

-١٤-

العبرة في النهاية.

مينا

يطول الغروب، يا روما.

إنني في روما منذ عامين؛ لأنّ فابيو، رئيسي في العمل، يقيم في هذه المدينة الخالدة، ويبحث عن الضربة القاضية كمنحرفٍ هائج، ويخطّط لبناء مملكة، لا يحلم بها أيّ نظام في أمريكا الجنوبية. هذا قدر إيطاليا المسكينة. إيطاليا بلدٌ صغير، تهدر الفرص منذ زمن بعيد، حتّى إنّ جوّها النقيّ يتلاشى، بحجّة ثقب الأوزون.

لم أكن أتخيّل أن أقضي شيخوختي في مدينة كبرى، تستضيف الجميع بشكل ديمقراطي، وبسوء نيّة، وعدم اكتراث. لكنك لا تنتبه إلى هذا؛ لأنها تعيد إليك الثقة بقوتك على الاحتيال الرفيع. لا وجود للمذنبين؛ لأنهم كُثُر.

جميعهم مذنبون. جميعهم نصّابون ولصوص مصارف.

في الماضي، كنتُ نادراً ما آتي إلى روما، لإحياء حفلة خاطفة. وكنتُ أتخيل المدينة دوماً بصورة دقيقة، رأيتُها ذات مرّة في ساحة إسبانيا: الممثل إنريكو ماريا سالرنو، شارداً ونرجسياً، يتمشّى عن غير هدىً، يلبس رداءً من كتّان، ويبدو كأنه آشوري أو بابلي. وبقيت تلك الصورة المريعة، والمثيرة للشفقة، لذلك الممثل، بالنسبة إليّ، تلخّص روما. ومَن يدري لماذا. ربّما لأنّ الطيش يفشل، كلّما أصبح منهجاً معتمداً. أجل.

على أيّ حال، حين وصلتُ إلى هذا الغروب المستمر؛ أي روما، شعرتُ أنّ حركتي ثقيلة بالمقارنة مع هذه الدنيا التي أراد فابيو أن يُدخلني فيها من جديد. وهكذا قرر أن يعرّفني على صديقه تونينو باتسينتي. يعمل رسمياً كمختص بالتجميل من الطراز الأول، لا يشقّ له غبارٌ في التدبير مع الكائنات النسائية اللواتي تسلبن الإمبراطور فابيو من أشغاله المليارية. بالمحصّلة إنه قوّاد، مثليّ الجنس، وطريفٌ إلى أبعد حدّ، غرّته الشقراء تتدلّى من شعرٍ أسود اللون، وله طبع خطير ومجاني بالحديث عن نفسه بصفة الغائب.

يستحقّ لقائي الأول مع باتسينتي أن أذكره هنا. حدث في حانة روزاتي الشهيرة. يصل باتسنتي صافي الذهن. يجلس، يطلب كوكتيلاً، لم أسمع به في حياتي، يلقي نظرة عامة على المكان. وحين يجد السيّاح الأمريكان المتعبين من صولاتهم وجولاتهم في المدينة، يطمئنّ أن لا وجود لأحدٍ يعرفه. وحينها يبدأ المونولج الذي لا أشارك فيه، ولا حتّى بفاصلة صغيرة. ويشرح لي حقائق الأمور بعبارة كأنها افتتاحية كتاب ما:

«كلّهم على حقّ».

يا له من اكتشاف. لم أكن أعرف ذلك.

يتابع بلا هوادة: «وبناء على هذه القاعدة الأساسية، يعمّ الرخاء، وتتضاعف الحسابات في البنوك. تذكّر هذا جيداً، يا طوني. إن تحدّثوا بسوءٍ عن أنطونيلا، فإن تونينو باتسينتي هو آخر مَن يتحدث بالسوء عن أنطونيلا. أنطونيلا أو سواها، لا فرق.

أنت عاهرة محترفة؟ تونينو باتسينتي يتعامل معك، بوصفك عالمة.

أنت عالمة؟ تونينو باتسينتي يتعامل معك، بوصفك عالمة العالمات.

هل منحوك جائزة نوبل؟ تونينو باتسينتي يعترض؛ لأنك تستحقين جائزتين من نوبل.

أظفارك تحتاج إلى تقليم؟ لم يُحسنوا استخدام الألوان؟ تونينو باتسينتي يتفهّمك. يقف بجانبك. يواسيك. يهوّن عليك. بخفّة وطرفة. هو لا يمتلك الكلمة. يمتلك الصفات. يخاطبك ببلاغة؛ ليس لها مثيل، وهذا في غاية الأهمّيّة. يتّصل على هاتفك الجوال حين لا تتوقّعين اتصاله.»

«يا جميل، كيف تقلّم الأظفار؟»

(١١ يناير ١٩٩١ تونينو باتسينتي يتكلّم مع جوليو سانتيلا، المعروف بـ"الجميل")

«لم تجدي الصندل التي كنتِ تبحثين عنه؟ تونينو باتسينتي لا يستخفّ بهذا، يمسك المشكلة بين يديه، يداعبها، ويقول يا لها من كارثة. وإن كان مزاجه معتدلاً، وصفها بالمؤامرة. كنتِ تستحقين ذلك الصندل، ياحلوة. وإن أخبروك بأنهم باعوه، فهذا لخشيتهم من أن تسحقيهم بجمالك الأخّاذ. هل أنت تتابعني، يا طوني؟».

«تقريبا» أقول متلعثماً، ولكنْ: عبثاً، تونينو يركّز في أفكاره المتقنة، ودون هدنة، يكمل الحديث عن الموضوع المحبّب إلى قلبه: أن يتحدّث عن نفسه.

«أقسم لك بفقراء لوكسمبرغ، يا حبيبتي، اختفاء الصندل مؤامرة»

(روما ٢١ أبريل ١٩٩٣. تونينو باتسينتي يتكلّم مع النبيلة جراتزيا بيدانتي).

«لم تضحك جراتزيا؛ لأنها ليست خفيفة الظلّ مثل أكثر النبلاء. لكن باتسينتي قادرٌ على السخرية من ذاته، يا إلهي! قد يموت، إن استأصلوا منه هذه الميزة. عليه أن يعمل حتّى الرابعة صباحاً. وحين ينام تونينو باتسينتي لا يحلم، إنما يخطّط. يخطّط لكلام معسول وطموحات على أعلى المستويات. ثمّ يحسب أمواله الكثيرة مع بزوغ الفجر.

تونينو باتسينتي، وسط هذه الدموع الجبانة، لديه قضيب، يشبه قرن المثلجات الذي لا يذوب. قسماً بالله، لا يذوب!

أنا هو تونينو باتسينتي. مرمّم الأظفار من الدرجة الأولى، وعازف موسيقي هاو من الدرجة الثانية. أضرب بأصابعي على الأورغ، في أوقات، لا تخطر على بال؛ لكي أخدع الأوهام التي تتبعني منذ سنين مثل كلب ريفي في الليل، لا يستسلم. أنا المتحدث باسم الحياة الثمينة، لا أكره الطيران الخاص. ولا أتردد بالحديث عن نفسي بصفة الغائب، بلباقة أقرب إلى السوقية.

فلنكن واضحين، لابدّ من اجتناب أمرين؛ كي لا ندخل الجحيم المدنيّ: الخجل والأخلاق. إن كنتَ تملك هاتين الخصلتين، فعش في قرية صغيرة نائية، تضمن لك أياماً مملّة. ستكون كالإجاص تحت الشمس المشتعلة، تناسب عصير الفواكه فقط»

«عصير الفواكه يُحضّر من الفواكه الفاسدة، ألا تعلم هذا، يا تونينو؟»

(روما ١١ نوفمبر ١٩٨٨ ليلو ليبوري المستثمر البارز في المجال الغذائي والزراعي يتكلّم مع تونينو باتسينتي في أحد مطاعم البيتزا).

«تونينو باتسينتي يُدهشكم. يشعركم بأهمّيّتكم وضرورة وجودكم وأحقّيّة نرجسيتكم وخطورة ذكائكم أو طرافة بلاهتكم. تونينو باتسينتي يجعلكم تشعرون كما تشاؤون. هذه ميزة سطحية لتونينو باتسينتي، ومن المعروف أنّ الأشياء كلّها سطحية، ما عدا الأبناء، وأنا لا أنجب أبناء.

بهذه الميزات، تونينو يستقبل مائة اتصال في اليوم. والدعوات بالأطنان. تونينو لا يقول لكم أبداً إنه مشغول. بل يصغي إليكم بصبر. اسم على مسمّى، بما أنّ باتسينتي تعني "الصبور" بالإيطالية، أليس كذلك؟ يصغي إليكم دائماً. إنني أعرف الكثير من الأسرار، يا طوني. أعرف الكثير. أعرف الأسرار. هل فهمتَ، يا طوني؟ وهم يعلمون أنني لن أبوح بشيء. لكنني الآن قد أغيّر مبدئي، وأبوح بكلّ ما عندي. فيليبو هجرني هذا الصباح. لهذا أنا مستاءٌ ومتشنج. يا إلهي. أنا مصدوم.»

«لماذا غيّرت فكرتك، يا تونينو؟ هل تريد أن تتعلّق على جسر فراتينيري،

كما علّقوا كالفي في لندن؟ الجسر مثل كسّ كبير. وأنت، حين يعلّقونك، ستبدو مثل قضيب صغير.»

(مساء البارحة، أخي إرمانو، يلومني على الهاتف، وهو يصرخ بشدّة.)

«أخي إرمانو باتسينتي. لديه ثقافة ملمّة عن التاريخ المعاصر. لكنه يفتقد الحدس وتغيّرات المشهد. يفسر الحياة على أنها سيلٌ متدفّق، وهذا ما يجعلني أُعجب به، وأحسده. ورغم هذا، فإن تونينو باتسينتي لم يجب عن ذلك السؤال البسيط والمشروع. وهل تعلمون لماذا سكت؟ لا تجرحوني، لا تضربوني، كفّوا عن تصديع رأسي. تونينو باتسينتي شابة شاطرة. وحسّاسة. تأخذ كل وقتها قبل أن تعطي إجابة، ولو قصيرة. وهي الآن تعاني من الصدمة.»

يرفع باتسينتي صوته، يصرخ. يبشّر بالخلاص البشري، ثمّ يتجاهل الكون برمّته. يشعر أنه محاط من المجحفين، لكنني وحدي، ولم أفهم من كلامه كلمة واحدة. لكنه، مثل ضحايا المهزلة المتأرجحة، يتابع بسلاسة: «بشكل عام، أكثر الناس تسيّباً للخجل والأخلاق لديهم ألمٌ ما. وآلام البشر تشبه الفئران. تظهر في الصيف؛ لأنها جائعة. جوع الحقيقة. لا تهمّها حقائق الآخرين، بل حقيقتها الملعونة نفسها. لكنني سأخبرك بحقيقة الآخرين، رغم أنني تعبتُ حتّى الموت في البحث عن حقيقتي.

ابق جالساً، يا عزيزي طوني؛ لأن تونينو يريد أن يهديك النتانة والأكاذيب. الجمال وموت الجمال. الغضب والفقر. إيطاليا. المواطن الإيطاليّ والثأر. بالمحصلة، الفرد المعاصر.

مَن أنا؟ أنا عذريّتي. وشهوتي المثليّة. أنا حبيبي فيليبو. أنا آلامي. وليس هذا فقط. أنا أغاني الحب الإيطالية ونوبات الفزع. الشالات الملوّنة وليالي الصيف. أنا النبيذ الأبيض البارد في أرياف توسكانا عند الغروب. القبلات والتهاني: كيف حالك، يا عزيزي يا عزيزتي، يا أعزائي. الدردشات التي لا

تنتهي: يا لجمال إليزابيتا الصغيرة! وكيف أصبحت جميلة شقراء، يا إلهي! هل ليلي انفصلت عن زوجها حقاً؟ ما رأيك أنت؟ هذا جنون! بل إنها كارثة. دردشاتٌ لا تنتهي، يا طوني. الحياة هي الغطس في الحياة، مكانٌ لا يتنفّس أحدٌ فيه. العلاقات الاجتماعية تجعلك كائناً غير اجتماعي. أين نقضي إجازة الصيف؟ نتناول السباغيتي، ونشرب الشمبانيا. لا أحد أفضل منا. ماريزيلا تقيم حفلة كبرى. حفلة تنكّر اجتماعيّ. أعجبتني مقالتك عن نيويورك، يا دوناتيلا. الزيف، ثمّ الزيف، يا طوني، ومناسبات أخرى. يا آرتورو، لقد صدّع المصوّرون رأسي، يتعقّبونني عند باب البيت، ألا يمكنك فعل شيء؟ ولكنني طردتُهم في المرّة الماضية، وغضبتِ؛ لأنهم لم يعودوا لتقصّي أخبارِكِ. كم أنت ماهر في المغازلات، يا هذا، عليك أن تعمل في مجال السياسة. قد تكون مفيداً هناك. لماذا؟ لا أحد يعلم. وأخيراً يأتي دور المرحاض أو السرير، موعدٌ مع أنفسنا. ما يزال الغبار الأبيض في أنفي. من المتعب أن تخوض كل تلك العلاقات العابرة وشمّ تلك العطور، وحضور المناسبات، وتقديم التهاني والمغازلات، والثرثرة على ضوء الشموع. كلّ الفتيات يرغبن الظهور على أنهنّ مجنونات أو غريبات الأطوار، وخوض سهرة إباحية مع الأثرياء، قد لا تفضي إلى الزواج بهم. صدّقني، يا طوني، نحن في حاجة إلى أطنان من الكوكايين؛ كي نواجه هذا القدر من السطحية. لكننا لا نشتكي، الحمد لله، فهذا أفضل من التسمّر أمام التلفاز في إحدى الضواحي المنسية التي أتحدّر منها.

أجل، يا طوني، أجل، سأهتمّ يوماً بسرّتي القذرة تحت هذا النطاق البني. لدينا مستقبل أنا وأنت، يا طوني، في فكّ هذه الألغاز السياحية، إذا كان المستقبل يهمّنا.»

سؤالٌ مهمّ، بلا جواب.

هكذا قدّم تونينو باتسينتي نفسه. كنهرٍ غزير، وأنا ألهث خلفه. لاحظتُ ميوله لاستخدام كلمة "مصدوم". أما البقيّة؛ فلم يكن تونينو يكترث لعدم

معرفتي في الآليات المدنية التي كنتُ أجهلها، وأعدّها ضبابية. روما مدينة خيالية، إذا أتيتُموها من الضواحي النائية. لها قوانينها الخاصة، غير موثّقة، لكنها باهتة حتّى تظنّوا أنها ليست موجودة. وربّما لأنني كهلٌ أمام هذه الترّهات التي أطلقها عليّ بسرعة مائتي وعشرة في الساعة، بينما كنتُ أحتسي بيرة فاترة، تبلغ اثني عشر يورو. سعر يستحقّون عليه عقوبة السجن بالأعمال الشاقّة.

ولكنني فكّرتُ في كلمات تونينو باتسينتي في أول يوم لي في روما، وأعترف أنه لخّصها بطريقة علمية، لا تقبل النقد، وأمدّني بكلّ ما كان عليّ معرفته عن سرّة هذا البلد القذرة، عن عاصمة إيطاليا الملعونة.

في ذلك المساء نفسه، لا يمنحني تونينو الوقت للاستحمام، ويحثّ على تقديمي إلى العالم الجميل، ويجرّني إلى بيت أديب ما: جيجيه راجا، عمره ثلاثة وثمانون عاماً، يعيش في روما منذ أن كانت النوارس تقضي وقتها عند البحر فقط، وهو يقدّس هذا الأمر أكثر من الآخرين، كونه من نابولي، ومتخرجّاً من الجامعة. لم تُفقده الشيخوخة رشده، ما يجعلني أتأثر حقاً، وأستحضر رائحة الربيع الزكيّة.

كنتُ أحب روائح الربيع، كما نحبّ أول زيارة إلى البحر. ثمّ أحببنا روائح الكوكايين. وباقي ما تبقّى بات في حاوية القاذورات. تفتح تلك الحاوية برؤوس أصابعك، وتحبس أنفاسك؛ كي لا يقتلك ذلك الحدس الضائع باسم عدم الحساسية المفرط.

وها هو جيجيه، يقشّر المفاهيم والمشاعر. كأنه يقول: أهلاً بكم في الألفية الجديدة، يا أصدقائي وأعدائي. الآن تتحمّلون أنتم عناء الحياة، فأنا أوشك على الموت.

وينطلق بغزارة: «روما، وإيطاليا بأسرها، خضعت لمصطلحٍ مستحدث:

"حبّيت"(*). إذا ما رأيتَ شيئاً يعجبك، تقول: "حبّيت". الأمة بذلك تفقد شهيّتها لبليغ الكلام. وتستسلم لتصحّر الإحساس.

وقد يقول أحدهم: هذه اللغة الدارجة عند المراهقين. يا ليتها كانت كذلك! لأنه سيكون مصطلحاً زائلاً، شأنه شأن المراهقة. ولكنْ: انظر إلى السياسيّين وأساتذة الجامعة والطبيبات والطلاب والتجّار والعاطلين عن العمل. جميعهم يستخدم هذا المصطلح. يستخدمونه غالباً وبكلّ سرور حتّى أكاد أضيق ذرعاً، صدّقوني. "حبّيت"، و"ما حبّيت". لماذا لم تخبروني سابقاً أن الأمور ستؤول إلى هذا النحو؟ لقد خضتُ حرباً ضد أعدائي الأدباء حتّى غاصت الركب بدمائنا، طيلة أربعين عاماً، وبأجور زهيدة، بحثاً عن الكلمة الدقيقة والتعبير الأفضل. وماذا جنينا بالمقابل؟ كلمة واحدة وحيدة: "حبّيت". كلمة لم نستخدمها طوال تلك الأعوام، يا لسخرية القدر! كنا نعدّها مبتذلة وسطحية. أهذا هو احتجاجكم على جيلنا الذي عانى الأمرّين؟ أهذا أسلوبكم في التعبير؟ أرى أنكم في حاجة ماسّة إلى ما يُغلق أفواهكم، هذا أفضل دواء لدائكم.

اكتشفوا كوكباً جديداً قرب زحل؟ حبّيت!

افتتحوا محلاً جديداً للعدسات الطبية الملونة؟ حبّيت!

لدى ابني ستّة هواتف جوالة. حبّيت! يقول له الآخر ويسأله ماذا يفعل بستّة هواتف، بينما السؤال الحقيقيّ: لماذا استخدم "حبّيت" في مثل هذه الحالة؟

يقولون إنّ هذا التعبير طريف. منذ متى كان الزمان يجود علينا بابتكار تعبيرات طريفة؟ ألا ترون أننا نفقد فرصة بالضحك، كلّما تفوه أحدهم بهذا التعبير؟ ماذا يعرفون عن جوهر النكتة وأسباب الضحك؟ إنّ الضحك يتطلّب

---

*) ترجمة تقريبية لكلمة (figo) التي يُكثر الإيطاليون من استخدامها في لهجتهم الدارجة بمعنى "جميل... رائع"، وقد رأينا أنّ المعادل الموضوعي هو كلمة "حبّيت" المستحدثة والشائعة في العاميّة العربية أيضاً. المترجم.

بذل الجهد في البحث عن المعنى. بحث بسيط، لكنه يضيف شيئاً إلى المعرفة بفضل الموهبة والجهد المبذول. أما اليوم؛ فلا أحد يريد أن يتقصّى المعرفة التي تقوم على الموهبة والجهد المبذول. بل باتت المعرفة كلمة نابية. ولهذا السبب، ترى جميعهم يتصنّعون الضحك.

لستُ أهاجم نقداً للضحالة الثقافية، مع أنها موجودة، بل لأنني ما أزال أمجّد الطرفة، وذلك لأنّ الضحك هو أسمى أشكال الثقافة، الضحك لا يتطلّب التفسير، وباقي ما تبقّى من ثقافة مصيرها أن تكون وجبة لفئران المكاتب العامة. هل تريدوننا أن نضحك من محادثاتنا؛ لأنه لم يعد أحد ينزلق بقشر الموز أمام أعيننا؟ يا لهم من مرضى بالبكم والتكرار. تهيمن الكآبة اللغوية على حياتهم. لعلّ أحدهم يذهب لدى الطبيب النفسيّ، ويقول له: أيها الطبيب إنني أعاني من الكآبة اللغوية. وقد يجيبه الطبيب: "حبّيت!" وحينها يكتئب المريض حقاً، ويغيّر طبيبه.».

جيجيه يتمتّع بطرافة، لا مثيل لها، لقد أضحكنا طوال السهرة، فجميع الحاضرين كانوا يخشون أن تزلّ ألسنتهم بتلك الكلمة المحرّمة. أمّا أنا؛ فلا، لأنني لا أستخدمها، وأؤيّد البحث عن الكلمات المدهشة. كنتُ ساكتاً؛ لأنني أحاول أن أفهم كيف تقوم المعرفة على الموهبة والجهد المبذول.

مارينيلا، إحدى الحاضرين، بنظّارتيها المقعّرتين، أرادت أن تُدلي بدلوها.

«لم نعد ننزلق بقشر الموز؛ لأنّ أحداً لم يعد يلقيها على الأرض، يا جيجيه. فلنعترف بوجود الجانب الإيجابي. الحسّ المدنيّ تطوّر، يا جيجيه.».

«وما هو الحسّ المدني، يا مارينيلا؟ إنه التفكير بالذات، ومقارنة ذواتنا مع ذوات الآخرين، لكنه ينبع من التفكير بالذات. وعليه، فإنني لا أرى الحسّ المدنيّ قد تطوّر، يا مارينيلا. لقد تسطّحت عقولنا، ونحن نفكّر على عتبة باب بيتنا. لقد جعل الإنسان حياته مؤقتة حين هتك ما تبقّى عنده من كرامة. وكلّ خطوة يخطوها في ذلك، إن هو إلا يرسخ عبوديته الذهنية والمادية،

ويزعزع أسس الديمقراطية. وهل ترين أنّنا بحسّنا المدني نحافظ على أسسنا الديمقراطية؟ لا أرى إلا النرجسيين يعتلون منابر الشعب، ويتحكّمون في سياسة هذا البلد. ولا يُفلحون إلا بتوطيد أساليبهم السخيفة، ومضامينهم الفارغة، يعمّمون خيباتهم واهتزاز ثقتهم بنفوسهم المريضة، عبر ظهورهم على التلفاز وسنّهم لقوانين الطوارئ دون أي طارئ. لا تعارضوني في هذا، أرجوكم. هل كانوا ليلقوا بأنفسهم في معترك السياسة لولا شغفهم بالتطفّل على شؤون غيرهم؟ أرجوكم، كأنّ أحدنا يقول إنه سعيد، ثمّ يرمي بنفسه من الطابق السادس بعد لحظات.».

«لن نعارضك، يا جيجيه» تدخّل باتسينتي بسرعة، لكنّ جيجيه لم ينتبه إليه؛ إذ كان ينعطف نحو الفكرة التالية بانسيابية السلمون في التيار، طريفاً لاذعاً لمّاحاً.

«هل سمعتُم مؤخّراً عن ازدياد أعداد السيدات المتقدمات في السن عند أطباء النسائية لرغبتهنّ في ترميم أجهزتهنّ التناسلية؟ لا أقصد إعادة غشاء البكارة، فهذا لم يعد يشغل بال أحد. يجرين عمليات معقّدة ومكلفة وخطيرة. ومع هذا لا يجدن بدّاً من القيام بها، يا لهنّ من فاجرات ومنحطّات وعنيدات! حتّى النساء يتأرجحن على مصطلح "الكسّ". يشبهن علبة المربّى الغليظة، لكنّ أكساسهنّ حديثة الترميم. هذا الأمر يثير حفيظتي فعلاً. لقد تجاوزني العمر، أعترف بهذا. الجميع منشغلون الآن بالكسّ، ويتحدثون عن الكسّ، ويفكّرون في الكسّ. لا ينامون الليل، وتنعدم شهيّتهم، ويدمّرون عقولهم بترّهات، تصل بهم إلى النشوة. النشوة، يا لها من كلمة قبيحة.

هذا هو هدفهم وغايتهم وسرّ حياتهم. وماذا بعد؟ لا شيء. ألا تشتمّون رائحة الموت؟ الموت ليس غياب الرغبة، الرغبة في أرذل العمر تصبح بدنيّة، ولا غنىً عنها. أتحدث عن الموت بوصفه تبسيطاً للرغبة. وهكذا فالموت على الجانب الآخر يكوّن في تبسيط اللغة. ومن جهة أخرى، لطالما كانت الرغبة تتعلق بالبلاغة الفريدة واللغة المتقنة. ورغم هذا، فإنني لا أعمّم.

منذ ستة وستين عاماً، استدارت زوجتي، ونظرت إليّ، كما لم تنظر إليّ من قبل. نظرت إليّ كما يضاء الدرب بسحر ساحر، كما يلهو الطفل برشّ المياه. هكذا نظرت إليّ، وكانت نظرتها ثورة بالنسبة إليّ. لا أقصد أنني وقعتُ في غرامها، بل شعرتُ أنّ روحي تبلغ النشوة برعشة على عنقي. أليس صحيحاً، يا كارلا؟ أتذكرين تلك اللحظة، يا كارلا؟ كنّا شبّاناً، يا كارلا. وكان شقاء الحياة يتهاوى على رأسينا بلا شفقة. ألم يكن اكتشافنا للألفة أهمّ من الحياة بحدّ ذاتها، يا كارلا؟ أنا أرى الأمر كذلك، فهزّي برأسك، ووافقيني على كلامي، يا كارلا. لطالما وافقتني على كل شيء، فلا تحرميني من موافقتك الآن، يا كارلا. الآن أقضي الأيام في وداع الدنيا، فكلّ يوم يبدو لي الأخير. وافقيني، يا كارلا. كم مرّة تعرّقنا ونحن نذرف الدمع في أثناء قبلاتنا في كابري. خلال متاهات الصيف الدائم. وبعدها كنّا نخطّط لإنشاء عائلة، ونفكّر في المسؤولية كمضادّ لجميع الأمراض التي واجهتنا. المسؤولية هي الدواء العلمي الوحيد لمواجهة الفراغ المريع. المشاركة بكل تبايناتها داء لابدّ من الإصابة به، يا كارلا. أن يشعر كلٌّ منّا بيد الآخر تحنو على كتفه. أين كنّا؟ كنا نطوف على سطح اللحظة. لو شاء الله أن يثبّت أنفاسنا، ويجعلنا كهوابط المغارات خالدين، لما قضينا العمر في سعيٍ مستمرّ لاختطاف اللحظة من يد القدر، اللحظة التي لا تعود إلى الوراء؛ لأننا أفسدناها بالتجربة والمعرفة، يا كارلا. تسكّعنا أنا وأنت كالصعاليك في أرجاءِ الشوارع بحثاً عن لحظات الحبّ. كم كان زماننا جميلاً، يا كارلا؛ حيث البساطة منهل، والجهل خزّان من المعارف. وأزهار الصيف التي تفطر قلوبنا بمجاز من شاعر الشعراء دانونتزيو ومخيّلته الفريدة التي تقاسمناها بعيوننا الحزينة والبهيجة، يا كارلا. أن نتشارك الحياة كما فعلنا أنا وأنت، بكامل قذسيتها وحصارها، كان يعني أن نكتسب القدرة على السخرية، وأن نعجب بالسخرية التي تهرب من تحت البنطال والتنانير كالشيطان الذي رأيناه تحت وابلٍ من الألعاب النارية ذات مرّة. سحقتنا كلماتنا المتموّجة في فيض الملل المتبادل، واعتدنا على ميزة الكمال، واستحالة التبديل رغم أنه لا وجود للكمال. كنا كاملين معاً. الحبّ هو استحالة أن يكون لحبيبك بديلاً. هذا هو الحبّ.

أما في أيامنا هذه؛ فلم يبق سوى أشباه رجال ينتظرون بفارغ الصبر أن تفتح المرأة فخذيها، كي يمارسا الجنس في طقوس وثنية بدائية، تفتقر إلى الحبّ. يبدو المشهد براغماتياً، لا إحساس فيه. قالت لي جوزيبنا، أولى عشيقاتي، تحت شجرة الدلب: "نحن الآن". ولم تضف شيئاً آخر؛ لأنّ ما قالته ثورة بحدّ ذاتها. حين نفكّر في الجنس لا نفكّر إلا فيه، ولكنني أقسم لكم أنني عندما سمعتُ تلك الكلمتين بات الجنس معجزة عديمة الأهمّيّة. هذه هي حقيقة الجنس، إنه بمثابة معجزة حقاً. ومثل المعجزات الأخرى، عليك أن تستمتع بالدهشة التي تولد منها، وليس بالرغبة في ديمومتها؛ إذ لا يتمنى حدوث المعجزات سوى المهابيل والمغفّلين والمحبطين والعاجزين. ينبغي أن نعيد علاقتنا مع الجنس على هذه الأسس الإيمانية. الإيمان، وليس النفاق. علينا أن نعدّ الجنس معجزة، وحينها - فقط - سنفهم ما هو الجنس. الجنس مثل المنجنيق. ولم يعد بوسعنا استخدام المنجنيق، فالمناجق اندثرت مثل الهواتف الأرضية، مثل يراعات الشاعر المبتدئ. لا حدود للقبح؛ إذ نقوم بشيء آخر، نسمّيه بـ"الجنس"، لكنه ليس بالجنس. لا أعرف إن كنتُ واضحاً. وإياكم أن تفهموا أنني أفكّر كعجوز يحنّ إلى الماضي. إنني أفكّر كإنسان يفكّر، نقطة انتهى. هل ما تزالون تفقرون الأفكار بربطها بسير أصحابها ونقاط ضعفهم؟ مَن يفكّر بهذه الطريقة مريض، ولا يشعر بآلامه فوق ذلك. لكنني أعلم أنكم ستفعلون هذا. ستخرجون من هنا، وتقفون عند بوابة البناية، وتتهامسون خوفاً من أن تصل أصواتكم إلى مسامعي، بينما أغلق النافذة، وتقولون: لقد خرف جيجيه، لا يعي كلامه، ويكرّره علينا في كل زيارة، يا له من مريض ... ثمّ تختمون نميمتكم بـ: "ليلة سعيدة، تعالوا يوم الخميس إلى العشاء عندي، لقد اشتريتُ التونة الطازجة". ستفعلون هذا، لكنكم لن تحلّوا المشكلة؛ لأنّ التفاهة والبغضاء ستسرقان منكما النوم، وتستبدلانه بالشعور بالذنب. حينها سيقول النوم المحترم للشعور بالذنب: "اذهب إليهم، وقضّ مضاجعهم، وأشعرْهم باضمحلال عقولهم، أنا ذاهب إلى حانة روزاتي؛ كي أشرب الخمر". وهكذا ستعتقدون أنكم

تعانون من الأرق، وهذا نمطيّ ومعتاد عند الجهلة وعديمي حسّ الفكاهة ومناهضي السخرية؛ لأنكم تستبدلون المشكلة بأخرى. وهذا لا يرتقي لحالة الأرق، إنما تصفية حساب، لأنكم قلتُم ذات ليلةً صيفية صافية عند البوابة "لقد خرف جيجيه". البشر ليسوا قادرين على الأخذ بالثأر، لهذا يتوسّلون إلى القدر. أجل، هذا صحيح. لقد خرف جيجيه، سيموت بعد قليل، لكنه ما يزال يحظى بالقدرة على الصراخ في ليلة صيفية مشؤومة أمام كأس نبيذ فارغة: هزّي برأسك، يا كارلا، هزّي برأسك مرّة أخرى».

لم يهزّ منا أحدٌ برأسه. أصابت القشعريرة أبداننا، وخيّم على أفئدتنا المفطورة صمتٌ مهيب. تأخر الوقت، وجيجيه كان ينظر إلى عالم آخر. لقد انزلق في مونولوج توحّديّ، وسرعان ما أمست ظلالنا ثقيلة على عتبات موته. مثل الأثاث الذي لا تتشجّع على تحريكه بعد أن قمتَ بنقله. عيناه الدامعتان، كعيون كلّ الكهول، تصوّبان النظر نحو ابتهالات النوارس البعيدة التي ترفرف فوق مذبح الوطن. السكون يعمّ كل الأماكن. صمت المتاحف يطغى على شالات السيدات على تلك الشرفة التي غالباً ما استضافت الأمسيات الحافلة بالدردشات والمشاحنات والطقوس الفاجرة. أجمل شرفة في الكون، تطلّ على أسطح البنايات؛ حيث تتكدّس المهزلة البشرية.

عليك أن تتعلّم كيف تعبّر عن أفكارك، هذا ما كنا نفكّر به جميعاً، سواء إن أردتَ بثّ الرعب في القلوب أم أردتَ شطر القلوب بالعواطف. هذا ما أهداني إياه جيجه: الرعب والعاطفة، معاً كأنهما صنوان، لا يتفارقان.

لكن الآخرين كانوا يعانون من المشكلة ذاتها: تفاهتهم الجريحة. لم يكونوا منشغلين بكيفية التعبير عن أفكارهم، كما فعل جيجيه بكلمات بليغة ورفيعة. من الصعب أن تعيش حياتك كلها وأنت تتأبّط القاموس. ومن جهة أخرى، كنتُ أشعر أن الحاضرين يسعون لدهس كرامته، ما لا يطيقه جيجيه، ولهذا السبب، انتقد نميمتهم قبل أن يقوموا بها. بوسعك أن ترتكب أي جريمة في حقّ أخيك الإنسان، ولكنْ؛ إياك أن تمسّ تفاهته. فحينها يتحوّل إلى

جاموس ثائر، يهوى الانتقام، ويتوحّش كضبع، لا يرفع رأسه إلا حين ينهش آخر عظمة من ظلّك على ذلك البساط الشرقيّ.

إيما رابيزاردا نظرت إلى حذائها، ثمنه أربعة آلاف يورو. يا لها من مخلوق ثانوي، يجمّد أيّ مشاعر بميله الهمجي نحو الاستهلاك، مصابة بالانفصام الماديّ، بلا شكّ. لا تؤمن بالإنسان، بل بحذائها، وبعض المبادئ الماسونية.

فكّرتُ بكلمات جيجيه، بدت لي كغزوة خالدة على تلك الحياة عديمة التطلّعات. تأثرتُ بكلماته مثلما حين رأيتُ أبي يبكي على مقود السيارة فجأة. لقد نوّه جيجيه بعدم معنى الوجود، ولم أكن قد تأثرت هكذا منذ أعوام. ماذا أضيف بعد كلامه؟ كم أشمئزّ من التفكير بالعودة إلى خوض الحياة الرتيبة بعد أن حضرت مسرحية جيجيه أو فيلم جيجيه. لهذا السبب أراني لا أتردّد أبداً إلى السينما. بعد أن تخرج من العرض، تصطدم ببُطلان الحياة الحقيقية. وهذا أكثر ما يجعلني بائساً؛ إذ أشعر أنني خرجتُ من الحياة التي أحبّ أن أعيش وأن أموت فيها، تلك الحياة التي يعرضها الفيلم. أما الحياة خارج داز السينما؛ فهي أشبه بحادثة اغتصاب.

وحين كنا عند عتبة البوابة، احتشدنا كاللاجئين على متن القارب المتهالك. وهيمن الصمت علينا، ذلك لأنّ جيجيه استبق ثرثرتهم السخيفة التي عادة ما تنتهي كعادة سهرات الصيف. كل واحد منهم اختبأ بين أفكاره المعطوبة. حقيقة التفاهة؟ ربّما. كأنّها غارات خاطفة.

وفجأة ينطق إيتوري بويا، وهو محامٍ في الشؤون التجارية: «مَن كان عليه أن يهزّ برأسه؟ ألم تمت كارلا؟».

«منذ خمسة عشر عاماً» ارتجلت إيما رابيزاردا بينما تحسد بنظراتها حذاء فيولانته، وتقرّر أن تشتري مثله في الفجر، إن عرفت اسم المصمّم. لكنها لا

تريد أن تُرضي فيولانته، وتبدي إعجابها بذلك الحذاء. فإذا بتونينو باتسينتي يفهم نظراتها، وينتشلها من نيران الحسد، ويهمس بأذنها الناعمة: «جيمي شوه». فتبادله بنظرة امتنان، كأمّ ترمق الطبيب الذي أنقذ حياة ابنها.

يعاود بويا الهجوم بقهقهة شنيعة، ويهمس: «لقد فقد جيجيه عقله. لم تعجبني تصريحاته عن حبّه العظيم لكارلا أمام زوجته الجديدة.».

«لا يعجبني غسيل الأموال بالتجارة بالهيروين»

(بعد عامين، النائب أنطونيو ماسا يوجّه تهمة إلى إيتوري بويا)

«زوجته الجديدة بولندية، ولا تفهم الإيطالية جيداً» قال إيديجو بونوموري، شريرٌ بقامة، لا تتعدّى المتر وخمسين سنتمتراً، وصاحب أملاك شاسعة في مقاطعة بازيليكاتا. حاصلٌ على ثلاث شهادات فخرية، رغم أنّه لم يتجاوز الصف الخامس الابتدائي.

«بل إنها تفهم كل شيء» تقول فيولانته عن خبرة، وهي تعلم أنّ الجميع معجبٌ بجاريبها.

«جيجيه أديب، ويحقّ له أن يقول ما يحلو له» ارتجلتُ أنا هذه الإجابة الفطرية. ومزّقت رايات الجهل التي ترفرف فوق عقولهم الغبية، وتتبعهم كما يلاحق المسروقُ اللصَّ.

«لقد وصلتُ متأخراً ثلاثين عاماً، يا طوني. لقد فقد المفكّرون حصانتهم، وكلمتهم أيضاً.»

أجل، لقد وصلتُ متأخراً حتّى وجب على هؤلاء أن يقلبوا ترتيب الأشياء التي اعتدتُ عليها رأساً على عقب. إنني أنتمي لجيل جيجيه. وهؤلاء يرسّخون معتقدات حديثة من المستحيل القبول بها. لكنني قضيتُ وقتاً طويلاً مع الصراصير السريعة التي أشعر بالحنين إليها قبل أن أغفو هذه الليلة. الحنين، يا له من شعور غامض! لم أكن أتصور مطلقاً أنني سأحنّ

إلى تلك الجواميس المنزلية التي كانت تتسبّب لي بفزع الأمهات حين كنتُ في البرازيل.

أخذت الثرثرة منحىً آخر، يفضي بها إلى العبثية التي لا غنى عنها للبقاء على قيد الحياة. هكذا عليّ أن أستمتع بانحطاط روما التي لا تتغيّر، و تظلّ تنسخ نفسها إلى ما لا نهاية. لا تتخطّى حدودها، وبالتالي يبقى تاريخها البعيد عتيداً، يقاوم الفناء، لشدة ما تخلط الأوراق، وترفض الاعتراف باحتراق كتابها الجميل.

إيلسا وأرتورو يتبادلان الآراء حول كيفية تحضير كفتة التونة. سحقاً لهما. بإمكاني أن أصغي إلى محادثة أسخف من هذه؛ لأنني عشتُ أسوأ من هذه الأجواء، ولكنني لا أحتمل سماع الآراء حول طرائق تحضير الطعام. لم أعد أطيق كفتة التونة، فأينما ذهبتُ وجدتُها أمامي، لقد تصدّعت خصيتيّ من هذه الوجبة الخرائية. وأنا الذي واجهتُ الباستا بالفودكا والمكرونة بالسلمون والبيتزا بطماطم صقلية وسمك القاروس المملح.

«أريد القاروس طازجة من فضلك، مثل فخذي زوجتي»

(ليلو بوتسولي، صاحب أحد عشر محل لتصنيع الألعاب، يتكلّم مع الطهاة في جميع مطاعم الجنوب، بما فيه الجزر)

ثمّ تأتي لحظة اللاعودة. تصوّب فيولانته أنظارها نحوي بابتسامة برّاقة، وتهمس بأذني، كأنها تدعوني للتآمر معها، والتخطيط لثورة ما: «طوني، تعال يوم الجمعة إلى بيتي. سأحضّر سمك القاروس مع ذرّات السمسم»

القاروس بالسمسم! ما هذا الهراء؟ يعود أبي إلى ذهني مرّة أخرى. الرجل الذي شعر بالذعر من الـ"كريم كراميل". الرجل الذي قضى نحبه على أيدي الـ"كريم بروليه" الهمجية. ما الذي قد يفعله، لو كان في مكاني؟ ربّما صفعها بظاهر يده على وجهها، بسبب الفزع الذي قد يعتريه. حين يصمّم الآباء

على تربية أولادهم، غالباً ما يضربون بظاهر اليد. أما أنا؛ أفضّل أن أرفس عضلة ساقها، كوني سيد الغضب ومحرّك الشجار في كل مكان، لكنني أضبط نفسي بصعوبة. أتنهّد، وأجد جواباً: «متأسف. لا أستطيع يوم الجمعة»

تنصرف بإحباط، كأنّها تشهد موت مربّيتها الأوكرانية، أو موت عشيقها.

لا أعلم إن كنتُ سأحتمل عبودية الكفتة والقاروس. أشعر بالإرهاق من جرعات الكوكايين التي استنشقتها بصحبة باتسينتي، وانعدمت شهيّتي.

بعد لحظة، نسي الجميع أمر جيجيه؛ لأنه كان يطرح تساؤلات وتأملات وأحاسيس، وأراد أن يضحك أيضاً.

«لماذا يصدّع جيجيه أيورنا بكلامه؟» قال ألدو فاليلاتا، وهم محامٍ نابوليتاني مشغول بأعماله. أحدثت جملته هذه مزيداً من القهقهة، وانصرفنا على إثرها. تفكّك الجمع بضربة واحدة، وهذه إحدى حسنات ألدو فاليلاتا.

لكنني في الليل لم أستطع أن أنام، بسبب الحرّ الشديد أم بسبب تجرّع القليل من الكوكايين، لا أدري.

ليس بسبب الشعور بالذنب على الإطلاق. فحين تتقدم بك السنون الحافلة بالحروب والمعارك، توقّع بكل سرور على معاهدة لوقف إطلاق النار مع شعورك بالذنب. ذلك الزمان الذي كنتَ فيه أضيق ذرعاً بدُرج فارغ في رأسي، انقضى وولى وتلاشى.

التعاسة تستفيق بعد أعوام طويلة، وتنهض من قبرها الرخاميّ هناك؛ حيث دفنتها في سنّ التاسعة عشر. لابدّ أنها أحد الأعراض الجانبية للشيخوخة. اشتد عليّ الأرق حتّى زحفت بشقّ الأنفس إلى النافذة؛ كي أطلّ على منظر بديع. واكتشفتُ في تلك الليلة أنّ هنالك نقاط تواصل خطيرة وغير متوقّعة بين الشيخوخة والمراهقة. وكما في باقي الآلام، تنصهر الشيخوخة بالمراهقة، فيمتزجان بالألم والتعاسة، بنفس الكثافة والضراوة.

أشعلتُ سيجارة أخرى، بينما تغرورق عينيّ بالدموع. رأيتُ من نافذتي النوارس نفسها التي تمثل أمام عيني جيجيه الدامعتين في تلك اللحظة ذاتها. أشعر بوقوفي إلى جانبه كبرقية تعزية. أجل، يا جيجيه، فأنا وأنت لطالما كنا نرتاد البحر صيفاً، بصحبة الرفاق؛ لنغطس من على صخور شواطئه، وندع العالم خلف ظهورنا غير آبهين. فكلّ غطسة ما هي إلا غارة مرتجلة وناجحة دوماً ضد قدسية الحياة الدنيا. لن نفترق، يا جيجيه، كما كان الرفاق يهتفون إثر غطسة خاطئة. علينا أن نقفز بهدوء، وهذا ينطبق على الغطس، كما على أيّ شيء في الحياة. تهطل الدموع من عينيّ؛ لأنني فهمتُ الآن فقط ماذا كنتُ أرغب طيلة حياتي، يا جيجيه: كنتُ أرغب أن أصبح عجوزاً.

وكنتُ قد أخطأت الغاية، كما يحدث غالباً. كنتُ أظن أنه يجب عليّ اللحاق بسنّ الشباب، مهما كان الثمن، فإذا برغبتي تتخذ المنحى المغاير. ولعلّ هذه أرضيّة كل تعاستنا. إن هي إلا غطسة واحدة في غمار الشيخوخة، وندع العالم خلف ظهورنا، كما كنا نفعل، ونحن في مقتبل العمر.

التعاسة والغطس والحسناوات على الصخور. الوثب الهادئ. لن نفترق، يا جيجيه حتّى آخر لحظة. هذا ما يعزّز موقعنا.

وفي وقت لاحق، تعادلت النتيجة. استلقيتُ على ظهري مستسلماً لتأثير الكحول، وحاولتُ أن أدمج مفاهيم تونيو باتسينتي بمفاهيم جيجيه راجا. قاربتُ بينهما، الماضي والحاضر، ففهمتُ جوهر الحياة التي كانت تنتظرني في روما منذ تلك اللحظة فصاعداً. وبقيتُ سنتين على هذه الحال.

فهمتُ مثلاً أنّ العشّاق في مقتبل العمر، أولئك الذين يتبادلون القبل في الشارع، كأنّ الموت سيقبض عليهم بعد ثوانٍ معدودة، لن يستطيعوا أن يسرّعوا من نبضات قلبي بحركاتهم تلك. فجميعهم سينضوون في مكان ما، وتنتهي علاقاتهم.

ورغم أنّ المسارح أقفلت في وجهي، فإنّ هنالك مشهداً ما يزال في انتظاري.

ذات مرّة غنيّتُ لفابيو، وهو عارٍ، يلتحف أفخاذ أربع أوكرانيات في غاية الحسن والجمال، وهو يشعر بالوحدة في أعماقه. كما رأيتُه أكثر من مرّة يغوص في ردفي إيطاليات سوقيات وسمراوات. كان يهديهنّ الملابس والظهور على صفحات الجرائد مقابل الثرثرة معه بكل سرور. ثمّ لا تلبث أولئك الحقيرات وناكرات الجميلات أن يتمتّعن بشهرة واسعة وعقل ضيق الأفق، حتّى يبدأن بثورتهنّ التي تفضي بهنّ إلى مآزق، لا تخطر على بال. وهذه النهاية غالباً ما تحدث للعاهرات اللواتي يأخذن من سندريلا مثلهنّ الأعلى. السيرة الناجحة تقود صاحبتها إلى الهلاك، ما دام أنها تحلم أن تكون مثل سندريلا بفتح فخذيها ومصّ قضيب هذا وذاك. وتظنّ جميعهنّ بأنهن حصلن على الجمال بعَرَق جبينهنّ. وكم من الخراء عليك أن ترى. لابدّ من الفرضيات؛ لترتكب سلسلة مضاعفة من الجرائم، ثمّ تنام قرير العين دون أي شعور بالندم. من الصعب أن تكره الهمجيين، فالحقد يكون أسهل مع أولئك الواهمين.

والمشكلة أنّ حماقة العاهرات كانت لا تختلف في شيء عن حماقات فابيو. لدى فابيو وعاهراته أفق التطلّعات نفسه، والمشاريع نفسها: الموت وسط آلام بسيطة تتنكر في زيّ متعة ملكية. تمنّي الموت يوقظكَ كل صباح، ويرافقكَ دوماً في إفساد ذاتك.

هنالك بعض التفاهات لا تحتمل حقاً، حتى لو كان مصحوبة من جهل الحياة. لقد عدتُ أموت ببطء من الكوكايين على شرفة تونينو باتسينتي الرائعة، وبرفقة أصدقائه، الذين لم يكونوا خير أصدقاء؛ لأنهم كانوا يبتغون منه شيئاً واحداً فقط: الكوكايين بالمجّان. وكم رأيتُ من شفقة، إلا أنني لم أشهد على قلب طيب كقلب تونينو باتسينتي. كان ينتقم لنفسه، ويعمل بجهد لإرضائهم كالياباني الذي لم يخبره أحد بأن الحرب قد انتهت. كان

يشعر بأن له دورٌ في الحياة، لكن هذا ليس صحيحاً، كان له وظيفة، وظيفة أن يُفرح الآخرون. وهو يعلم ذلك في سريرته، وإلا لماذا كنتُ أرى الحزن ينهش وجهه، كلما استدرتُ إليه فجأة؟!

كان يتعثّر في بعض الأحيان، ويُصدم لعدم جدوى ما يقوم به، وفي تلك اللحظات العنيفة يتألم كالكلاب الشاردة والمسعورة. فهو - أيضاً - يشعر بالوحدة، على هامش الطريق، تحت قيظ لا يُحتمل في جزيرة لامبيدوزا.

وكان له الفضل في أنني تعرّفتُ على الأسرار والعلاقات الملطّخة بالمال والجنس، بفضل وساوسه الطارئة في الجنس البشري. كان يظن أنه سيعثر على حقيقة نفسه من خلال كشفه لكلام الآخرين وأهوائهم. كان يزجّ نفسه في بحث مرهق، لا ينتهي، ويُطلعني دوماً على مجريات الأمور، وما يرشح عن رحى هذه المدينة الطاحنة وأسماء سكانها وثرثراتهم وآمالهم، وذاكرتي تخوض حرباً قذرة للاحتفاظ بكل ما يصل إليها، ممّا لا يعدّ ولا يُحصى من متاهات وتطلّعات، شاء جيجيه أن يختصرها ذات يوم بكلمة واحدة: الكسّ.

شرعتُ أخدع نفسي بأنّ الحياة لا تنتهي، حتّى لو كانت عديمة المفاجآت لرجل في عمري. وذلك الغروب الطويل الذي يستبيح العاصمة لا ينتهي أبداً حتّى تظن أنك مثله في نهاية المطاف، وأنت لست كذلك.

تجوّلتُ بين قصور نبلاء العاصمة، المليئة بروائع الفن والكثير من الخدم المحرجين والمصابين بالإعياء من قائمة طويلة من أنواع الحلوى والمقبلات. لا يهدؤون حتّى يحلّ الليل، فيأخذهم إلى ضاحية مريعة، لكنها هادئة ومطمئنة.

شاهدت انتفاخ وجوه النساء وصدورهنّ، نساء محبطات يحاولن التشبث بآخر رمق من شبابهنّ. تجارة الجمال، والمتعة تحت أي ثمن، هي فعل الأمر الحازم في هذه الألفية الجديدة. متعة تأتي عبر السيليكون؛ لتبدو النساء كالألعاب الصينية المزيفة، وخدودهنّ كالورم المنفوخ، حتّى تخشى إذا لامستَ نهداً أن تتلمّس عليه لحية طبيب النساء.

ورحتُ أخدع الوقت بشرب الكوكتيلات وأنواع من الخمر، وأقضي عطلة الأحد في السيرك، أو على مدرّجات الملاعب بصحبة تجّار السيارات الفارغين، أو مع زوجات شهيات، مملات بقدر ما يشعرن بالملل، مستعدّات للإخلاص لأزواجهن، أو قتلهم على حدّ سواء. أشفقتُ على ممثلين مبتذلين وموظّفين جائعين وعاهرات مبتدئات وقضاة مهتمّين بمحاسبة المافيا. كلهم يشتركون بطبع واحد: فقدانهم لحسّ المغامرة.

كانوا يلهثون خلف المغامرة، لكنها تظل بعيدة عنهم. كانوا ليبيعوا أبناءهم مقابل حفنة من التصفيق، وكل هذا كي يبعدوا عنهم شبح الشيخوخة قليلاً، ولم يعلموا أنهم باتوا كهولاً منذ زمن بعيد. وأنا أيضاً كنتُ مثلهم، آمل دون وعي بأن أبعد تلك اللحظة الحتمية التي تشعرك بأنك ستكون بلا مشاريع في اليوم اللاحق، فقد لا يكون هنالك متسع ليوم لاحق أصلاَ.

أبلغ من العمر ستة وستين عاماً الآن. وحين أغنّي، يصفّقون احتراماً لماضيّ. وبالطبع شعرتُ أنني أصبحتُ مثل سيناترا، لم أستطع أن أقاوم هذا الإحساس العنيد البليد. ذلك التصفيق الفاتر يذبحني، لأن الأيادي تفكّر في شيء آخر. لا يفهم الجمهور ما أهمّيّة أن تقوم بهذا العمل؛ إذ لا شيء عاد يبدو ذا أهمّيّة، وهذا مخيف بحدّ ذاته. كأنك تنزلق إلى هاوية الفراغ التام. تفقد طعم الضحك والنكتة ولمسة اليد على الكتف والابتسامة الماكرة ونظرة المتزوجة خلسة من خلف ظهر زوجها الشارد. لا شيء. سيرة أيام الشباب كلها تلاشت وتبدّدت خلال تلك الأعوام التي كنتُ أصارع فيها الصراصير بصدر عاري.

تأكّدتُ من شيء واحد: أنني لم أعد أستطيع أن أكون ذا أهمّيّة لأي شخص. كان ينقصني العلامات البدائية المميّزة. كنتُ في حاجة إلى شهادة صحية ودستورية، قد يضحك الأطباء من هذا. كانت تلك الصفات موجودة، لكنها تبتعد عني أكثر وأكثر. كل الأغاني القديمة التي غنّيتُها باتت قديمة، وكفى. مثل مدرج الكولوسيوم، يعشقه اليابانيون فقط. يا لهؤلاء اليابانيين

وقدرتهم على إبداء رضاهم بشيء ما، كم هم قادرون على الإعجاب بأي شيء. إنهم كالغابة البكر، كأنهم ظهروا على سطح هذا الكوكب يوم أمس ليس إلا.

لكنك لا تفرح حين يُعجب بك حديثو الولادة، بل يسبّبون لك اليأس فقط. وهذا ما دفعني لتناول بعض الأدوية؛ كي أشعر بانتصاب دائم وسط حفلات من الفجور الجماعي. وحتّى في هذه المرّة تجد نفسك أمام الشبح نفسه: تدخل في فرجٍ ما، وتشعر بأنك لا تحلّ أيّ مشكلة.

لأنك أنت المشكلة.

وغالباً ما ترافقك المشكلة إلى أن تربطها بحسّ الدعابة؛ لأنها محض انطباع. كل شيء محض انطباع.

روما انطباع. تشبه كفن المسيح، لا يحتوي على أي إله.

«كانت تبدو ألعاباً نارية، لكنها - في الحقيقة - ضراط نتن» كانت والدتي تقول بغضب تقشعرّ له أبداننا نتيجة خوف فاشل. جملة أمي تلخّص حياتي وحياة الآخرين جميعهم. كانت تقولها بلؤم ناتج عن آلام فؤادها المظلوم، ففي مدرسة الراهبات قصّوا لها حكاية أخرى عن الحياة. كانوا يكذبون عليها، بنيّة حسنة، لكنهم كانوا يكذبون. أفسدوا بساطة سريرتها، وهم يطلعونها على عالم مريع من المفاهيم التي لم تكن تؤمن بها.

كان عليّ أن أذهب إلى بيت أنطونيلا؛ كي أفهم حقيقة ما آلت إليه حياتي. وتطلّب مني هذا الأمر كلّ ما تحمله كلمة "شجاعة" من معنى.

كنتُ قد تركتُ أنطونيلا، وهي أجمل نساء الأرض، على بساط أزرق في ممرّ فندق في أسكولي بيشينو. كان لديها ساقان في غاية الجمال، ممشوقاين تغشيان الأبصار لاثنتي عشرة ساعة متواصلة. كانت أجمل ما وصل إليه الخيال الإباحي، وعيناها السوداوان لوزيّتان، كأنها بربرية ذات حسب ونسب. لكنني وجدتُها غريبة الأطوار، تلفظ الكلمات بقواعد

مستحدثة وغير مفهومة، مشوّشة من المهدّئات النفسية، ومنفوخة مثل المنطاد العملاق، مصابة بسمنة مفرطة، وعروقها نائتة، بما لا يوصف، ناهيك عن التجاعيد التي تبدو كطعنات سكّين أخرق. بدت حزينة على وفاة أمها باكراً، بجرعة زائدة من المهدّئات مساء يوم أحد شتوي في بناء جديد من ضاحية أوستا، داخل غرفة مغلقة النوافذ وأضواؤها موقدة وجدرانها بيضاء كئيبة. توفيت هند، ولم ينتبه أحدٌ لذلك إلا بعد مرور أيام. ولكنني لم أصدم من هذا السيناريو المأسويّ، فكنتُ قد رأيتُ ما هو أبشع وأسوأ من هذا.

ما صدمني أن أنطونيلا كانت تريد مني أن أطارحها الغرام بأيّ ثمن، كأنها وجدت فيّ ضالّتها. وقعت فريسة انفصام مريع في شخصيتها، وهي تحاول في مساء تعيس أن تعوّض معي كل الزمان الذي أهدرته على أقراصها الغنائية السخيفة وعشّاقها الفاترين وصديقاتها الناكرات للمعروف، أهدرت وقتها مع مخرجين لأفلام إباحية أوغاد ومديرين مختلسين ومعجبين مزيفين. وحتّى لو أردتُ أن أواسيها فإنّ ممارسة الجنس معها كان أمراً مستحيلاً؛ لأنها كانت تناقض كلامها في اللحظة ذاتها، لم تتعلّم أبسط دروس الإغواء. كانت تطوف في الغرفة ذهاباً إياباً بثياب قبيحة، نسجتها بنفسها؛ لتبدو ممثلة في مسلسل تافه من حقبة الستينات، تحيط بها قطع البيتزا التي تطلبها على الهاتف، وأعقاب السجائر تكتظّ تحت السرير الملطّخ ببقع القهوة المغلّاة. وليس هذا السيناريو الذي صدمني وأفهمني حقيقة الحياة. بل في لحظة ما، دون سبب، نهضت ووقفت مثل لبوة بعد حملة الصيد. جلست على أريكة هرئة بوضعية غريبة. خطرت في بالها جملة وقالتها: «لقد تأخر الوقت على ممارسة الحب، يا طوني. لقد تأخر الوقت على فعل أي شيء».

كانت مرهقة، فالحياة لم تمنحها الراحة المطلوبة. وكانت على حقّ. هذا ما صدمني. هذا ما أفهمني حقيقة ما آلت إليه حياتي.

عليك أن تشعر بالموت يجتاح عظام وجنتيك؛ كي تفهم الحياة. هل فهمتَ، يا باغودا الصغير؟ تذكّر هذا! الموت في عظام وجنتيك!

هذا ما قاله لي ميمو ريبيتو منذ ستين عاماً.

أجل، يا ميمو، لقد فهمتُ الآن ما كنتَ تقصد.

عدتُ إلى البيت كأنني أمشي مسرنماً. خائر القوى. كانت الساعة الثامنة مساء حين بلغتُ جادة روما، وعثرتُ على صفة تناسبني وتناسب أنطونيلا في آن واحد: نحن فضالة!

كنتُ مرتبطاً بأربعة مواعيد في تلك الليلة. لم أذهب إلى أيٍّ منها. أطفأتُ هاتفي الجوال. ولم أكتف بذلك، فرميتُه على الأرض أكثر من مرّة، وبهدوء تامّ، حتّى استحال ألف شظيّة.

وارتميتُ على السرير بملابسي.

كان الغروب ينساب على أفق العاصمة.

نمتُ.

وبعد انقطاع أعوام طويلة، رأيتُ حلماً:

عمري عشر سنوات، وأمي تمسك بيدي.

أنظر إلى يميني، فأجد والدي يمسك بيدي الأخرى.

نمشي في شارع أوراسيو صباح يوم سبت شتويّ ومشمس لن يتكرّر أبداً.

كنتُ أرتدي كنزة خضراء، أعتزّ بها.

الطقس بارد، لكن يديّ دافئتان.

أشعر بالسعادة؛ لأنني في أمان.

والداي سعيدان، لم يتشاجرا.

أبي يقول لأمي إنّ هذا المعطف الجديد يليق بها، فتستغرب أمي؛ لأن

المجاملات التي ينطق بها والدي نادرة؛ لتبدو غير لائقة.

أمي كانت ترى الأمر هكذا.

وحدهم أواخر العنقود يدافعون عن أمهاتهم.

بسذاجة تجعل منهم أقوياء، لا يُهزمون.

وفجأة، وبلا أيّ مبرر، أسألهما متى يموتان.

فيقولان لي، دون غيظ، وبثقة كبيرة، إنهما لن يموتا أبداً.

أصدّق كلامهما.

وأبتسم، بينما أنظر إلى البحر النظيف.

كانا يكذبان بطبيعة الحال.

منذ تلك اللحظة، بدأت آلامي.

وأفراحي أيضاً.

الشمس غابت.

الحلم انتهى.

لكنني لم أستيقظ منذئذ.

انتظريني لحظة، يا بياتريشا.

ها أنا قادمٌ إليك.

المترجم: معاوية عبد المجيد

مترجم سوري من مواليد دمشق عام ١٩٨٥. حصل على إجازة في الأدب الإيطالي من جامعة سيينا الإيطالية. درَّس اللغة والثقافة الإيطالية في كلية الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبية الأوروبية عن قسم الترجمة الأدبية من جامعة بولونيا الإيطالية وجامعة مولوز الفرنسية.

نشر عدة مقالات عن الشعر الإيطالي ومواضيع ثقافية أخرى في العديد من المجلات العربية. ترجم إلى العربية رواية "ضمير السيد زينو" لإيتالو سفيفو، "بيربرا يدعي" و "تريستانو يحتضر" لأنطونيو تابوكي، "اليوم ما قبل السعادة" لإري دي لوكا (صادرة جميعها عن دار أثر السعودية). كما ترجم رواية "آخذك وأحملك بعيدا" لنيكولو أمانيتي، صدرت عن دار مسكلياني للنشر.

وصدر له أيضاً رواية "لا تقولي إنك خائفة" للإيطالية "جوزِّبه كاتوتسيلا" عام ٢٠١٦ عن منشورات المتوسط.

تبرز الفوضى والتفاهة واللامبالاة، كسماتٍ ضرورية لفهم الحياة، وطرح التساؤلات عن الجدوى والنجاح والفضيلة، بنقدٍ ذاتيٍّ لاذعٍ يقوم به البطل، المطرب، وزير النساء، والمدمن على المخدّرات.

تتغلغل الدعابة والمأساة في ثنايا هذا الكتاب لتجعل منه مسرحيّة تشهد لكاتبها على براعته في الإيحاء والاستفزاز معتمداً على الإثارة والتشويق والمفاجأة. فجميع الاحتمالات مفتوحة في نظر المؤلف. وجميع التأويلات منطقية؛ وجميع شخصيات الرواية على حقّ.

توصف هذه الرواية على أنّها امتداد للأدب العبثيّ الذي كرّسه ألبرتو مورافيا في الرواية، وأبدع به ألبير كامو في الفلسفة، ونقله إلى السينما مخرجٌ بحجم فيديريكو فيلليني. ولعلّ هذه هي الأسس الثلاثة التي تقوم عليها رواية سورّنتينو وتنجح بالمزج بينها جميعاً، بدقّة عالية.

يطرق سورّنتينو أبواب الأدب بلغة جزلة وسلسة، ويستخدم تقنيّات سرديّة متقدّمة. يبني عوالمه على السورياّلية، التي لطالما خَبر آلياتها في عالم السينما. لتظهر الرواية كأنّها عرضٌ سينمائيّ من نوع خاص.

يتطرّق سورّنتينو إلى أكثر القضايا الفلسفية عمقاً بتعبير متقن كما يسلّط الضوء على المجتمع وانقساماته وإشكالاته بأسلوب بديع. فنراه يفرض على روايته شكل المونولوج الطويل، لكنه لا يخضعها لقالب أدبي واحد، فيبوح بكلّ ما تفيض به النفس البشرية من مشاعر مختلفة. ويضيف على البوح استحضار الذكريات والأحداث الغريبة التي تصادف الإنسان المعاصر دون أن يتقيد بزمان أو مكان محدّدين.

تنمية
المتوسط
طبعة خاصة بمصر


ISBN 978-88-99687-18-2
9 788899 687182